المشرق
بيروت

السنة الخامسة والاربعون — تموز – ايلول ١٩٥١

تمهيد

لا يستطيع الفرد البشري ان يتحرر من الالم الّا بفقدان حريته . هذا ما قاله بردياييف في كتابه « روح دوستويفسكي » .

اذا كان من المؤكد ان الانسان يستطيع ان يفقد كل شيء اذا ما صدمته اسباب خارجية قاهرة او احتياجات داخلية ، فمن المؤكد ايضاً ان لا شيء في العالم يستطيع ان يُفقده ذلك الكنز الحقيقي الوحيد الذي يملكه في الارض ، الا وهو حريته . لا المادة ولا المصنع ولا تعسّف من اي نوع كان يستطيع ذلك . ولكن الانسان ذاته بوسعه ان يفقد حريته اذا رفض المحنة والالم الذي هو الطريق الى الحب :

اضعفته وحقَّرته المتناقضات ، واحزنته الخيانات التي يستهدف لها من كل جانب ، واستعبدته الضرورات اليومية ، وغلّلته مطالب القوت اليومي المقلق ، وزعزعه التهالك المتواصل على اللذة التي لا تشبع جوعاً ولا تروي ظمأً ، واتخمته الاموال وخيور الدنيا ، ولكن الانسان ما برح في جوعٍ ، يتشوق الى ابعد من كل ذلك مدفوعاً بقوة داخلية لا تُدرك ولا تُحدّ ، يتشوّق الى تحرير القيم التي تؤلف كيانه العميق ، الى تحرير حريته الانسانية التي تأبى الموت . وهذه الحرية ترفض اليأس ولا تعنو له . وكل انسان مهما كان معوزاً او مثرياً يدرك ان له في هذا المجال عملاً جبّاراً عليه ان يؤديه ، ويدرك ايضاً انه لن يؤدي عمله الحقيقي الّا من الداخل . ولهذا فان عالم اليوم الذي اقصى الانسان عن ذاته هو وحده المسؤول عن هذا الفراغ الذي نشعر بكثافته حولنا . عالم اليوم هو بحاجة الى روح . وكم يحاولون ان يعطوه اياها حين يعاّون احساسه بالتسليات العابرة . ولكن ما تستطيع هذه التسليات امام هذه الحقيقة الجبارة، حقيقة داخلية الانسان التي تقدر وحدهـا ان تجد الله فتعطي قيمة للانسان وللمدنية التي يمثلها . اقول يمثلها ، لانه احياناً لا يمثل شيئاً . ارادوا من الانسان ان يعتقد بان له في التكاسل واللهو والتغاضي ما يشبع متطلبات نفسه المتوثبة ، فقدموا له شاشة بيضاء ومرسحاً وملهىً ومخدّرات اخرى عديدة ، وتناسوا ان جوع الانسان هو روحي وانه في غير هذا الجو الروحي يختنق اذ يستولي عليه اليأس . وكم تجهر مدنيتنا عالياً بهذا اليأس . وكم من تآليف تحمل هذا العنوان . وسيطول هذا الى عهد ، ولكن اليأس لن يظفر في النهاية . لان الانسان سيستمد من شجاعته قوّة توجّهه نحو الينابيع التي تروي والاشعة التي تنير ، وسيجد وجهة مصيره في ما وراء المادة وما وراء المستعبدات . وما ذاك الّا لأنه سيجد حريّته التي لن يلاشيها شيء ، بعد ان حاول كل شيء ملاشاتها .

وهذه الحرية تنمو في مصهر الالم والبلاء . وهكذا تجد ذاتها مطهرة من كل مزيج ، محررة من الشر الذي يريد ان يخنقها في اللذة والمادة وفي كل ما هو غير الحب . والحب يظهر البلاء والالم .

فاذا كان المسيح مات ليسترجع من اكف الشر حرية استعبدها الشر ، على الانسان ان يفهم ان ذلك لم يكن الّا امثولة له . فعليه ان يتبع المسيح عن كثب او فيشاركه عن كثب او عن بعد . ولكن من الداخل على كل حال ، يشاركه في المه الجبار ، وهكذا يظفر بالتحرر الاكمل لذاته ولاخوانه البشريين الذين يؤلف معهم وحدة لا ينفرط عقدها . هذه هي الحقيقة الوحيدة . وبعد أليس من المؤكد ان الانسان الذي اصبح هكذا حرًّا بالالم والمحنة يتعرف الى الفرح الذي هو نتيجة عراك ، وهل من عراك دون ألم ؟ قد يضمحل الجسم وقد لا يصبح غير غطاء شفّاف للنفس المسكينة المتطهرة البيضاء . ولكنه لن يوقف نهم الفكر الذي يتطلب المطلق وينشد الحرية الداخلية .

كم يحاولون اليوم ان يطعنوا حرية الانسان ويجردوه من هذا الخير الاسمى الذي يغار عليه ، وهو على حق في ذلك ؟ ألا يحاولون بكل الاساليب والوسائط ان يلاشوا معنى الحياة ، معنى الحب الحقيقي ، اساس الحرية ! اذا كنت تكلمت في العدد الفائت من المجلة عن فقدان تذوّق الحياة ، فما ذاك الّا لأن انسان اليوم فقد — ولن يفقد تماماً — معنى حريته التي هي اساس عظمته . لقد فقد العلاقة المباشرة مع الواقع المتحجب ، المنتظر الخلاص ، وفي هذا الواقع ينبسط الصليب حتماً ، شئنا ام ابينا . ولكن انسان اليوم رفض ان يصغي الى النداء المتصاعد من الحياة الواقعية ولم يفقه منه سوى ما هو سطحي ثانوي .

وانما لضرورةٌ ملحّة ان يتعاضد ذوو الارادة الصالحة ليقفوا سدًّا بوجه الشر الطاغي . انها لضرورةٌ ملحة ان تحتفظ المدنيَّة بوجهها الانساني . وكيف تستطيع ذلك اذا كان وجه الانسان ذاته اصبح مشوّهاً . فمن كل الآفاق — لو تسمّعنا قليلًا — يتردّد نداء اخرس يدعو الى استرجاع معنى الحرية المفقودِ . ولن يكون للنداء جواب الّا بقدر ما يرضى انسان اليوم بان يمرّ بين خيور الارض دون ان يتوقّف عليها ، يرضى بألّا يتوقف على الحدود المغوي لكي يصل ، عن طريق الالم المتواصل والعراك الداخلي الوجيع ، الى حريته الكاملة الملأى .

الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

من الخزانة الشرقية — بقلم حبيب زيات

دفائن الخزائن

ديوان محمد بن نصر القيسراني

المغربيات

في دار الكتب المصرية مجلد صغير لا يتجاوز ٤١ ورقة في كل صفحة منها ١١ سطرًا بخط واضح جميل تتضاعف به لذة القراءة لولا ما ينغصها احيانًا من اخترام الأرضة بعض الالفاظ ولا سيما في اسافل الصفحات وانتثار سلك النظم بضياعها وفي ما يلي الصفحة البتين نقص يسير لا يدرى مقداره بالتحرير لعدم رقم الديوان قبل التجليد وبما يزيد في قيمته ما ورد في آخره : « هذا ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره » فلدينا اذن صفوة شعر القيسراني كما كان يراه هو بنظره الثاقب وصاحب البيت ادرى بالذي فيه ولا شيء في الختام يدل على اسم كاتبه او ناسخه وقد ذكر ابن خلكان انه ظفر بديوانه في حلب ونقل منه اشياء حسنة رائقة (وفيات الاعيان ١ : ٣٩١ طبعة ١٢٩٩) وممن نقل عنه ايضًا ياقوت في معجم الادباء (٧ : ١١٢—١٢١) وعماد الدين الاصبهاني الكاتب (خريدة القصر رقم ٣٣٢٩ من خزانة باريس).

واول المجلد في الدار (رقم ١٤٨٤ ادب) :

« قال محمد بن نصر بن صغير القيسراني يمدح الوزير الاجل جلال الدين صدر الاسلام ابا الرضى محمد بن صدقة انشده اياها بالجزيرة سنة سبع وثلاثين وخمسمائة :

في طاعة الحب ما انفقت من عمري وفي سبيل الهوى ما شاب بن شعري

(٣٥ بيتًا ص ٢—٧) وتليها امداح اخر لبعض الوزراء والقضاة والكبراء استغرقت سائر الصفحات ٨ الى ٤٨ لا ننقل منها شيئًا لضيق المقام بها هنا وتليها اوصاف واغزال قليلة تبلغ ٤٥ بيتًا ختمها بقوله في مجلسه ارتجالا وقد سُئل ان يعمل على وزن ابن هانئ المغربي : « الصبر حيث الكلة السيراء » فقال :

أرأيت ما فعلت بنا الصباء من حيث تسبي العقل وهي سباء

(١٩ بيتاً ص ٥٣ — ٥٥) وتأتي بعدها مقاطيع عملها عند قفوله من العراق الى الشام يتشوق فيها السكن والوطن وذلك سنة سبع وعشرين وخمسمائة نختار منها قوله في الانبار وفيه شاهد على انه كان مقيماً في دمشق وفيها توفي سنة ٥٤٨ ودفن بمقبرة باب الفراديس :

أنت بالانبار ذا لوعة مقسومة بين حبيبين
اشتاق اهلي بدمشق وفي بغداد حظ القلب والعين
ففي لغاني ذا فراق لذا قل لي متى اخلو من البين (ص ٥٥)

وقد اكثر في هذه المقاطيع من الحنين الى الشام والتحسر على فراق بغداد فقال حين مرَّ بجوراح [1] وسُوَى :

احب الشآم واهوى العرا قَ فخلفي هوى وامامي هوى
فيا معشر الشام اشكو العرا مَ اليكم فهل عندكم من دوا

وقال ايضاً حين مرَّ بديار بني عدي :

مررنا في ديار بني عدي يجاذب لوعتي شرق وغرب
يتيمني بارض الشام حب ويعطفني على بغداد حب
غرام طارف وهوى تليد لكل صبابة في القلب شعب
ولا وأبيك ما هوّمت الا سرى لهما خيال لا يغب
فكل هوى يطالبني بقلب وهل لي غير هذا القلب قلب (ص ٥٦)

وقال ايضاً لما نزل بالزواجر :

ولما نزلنا بالزواجر هاجني خيالان منها مُعرق وشآمي
فبتُّ وهذا آخذ بشكيمتي اليه وهذا جاذب بزمامي
تجاذبني الاهواء شرقاً ومغرباً فقلبي ورائي تارة وامامي
وتسألني الحسناء عن طول غيبتي فقلت لها عام لديك بعام
تباعد عن ذات السوارين روحتي فلم يبقَ من ليلاء غير لمام
فها انا ان بغداد هاجت صبابتي بعثت الى دار السلام سلامي (ص ٥٩-٦٠)

---

١) دراح قاع في طريق اليمامة الى البصرة (معجم البلدان ٢ : ٧٢٦ طبعة اروبة) ذكره ابو فراس فقال :

لقد اخذ السُرى والليل منا فهل لك ان تريح بجوّ راح

(ديوانه طبعة الدكتور دهان ٢ : ٦١)

وسُوى اسم ماء لبهراد من ناحية السادة (معجم البلدان ٣ : ١٧٣)

ومن ذلك ايضاً :

اتت فلم يقض المنام لُبانةً ومرت وقلبي عندكم غير سائر
اسائل اعلام السلاوة عنكم فيخبرني عن بعدكم عجز ناظري
فلما رأيت الوجد ليس بنافعي زجرت فؤادي عنكم بالزواجر
وآنس مني لوعة القلب صاحبي فأسبل ماء الدمع بين المحاجر (ص ٦٠)

وهذه الابيات تدل على انه كان كثير التنقل لا تستقر به حال من القلق وانه وان كان عكاوي المولد حلبي المنشأ والتأدب بغدادي الهوى والمقام ظل دمشقي الدار الى يوم وفاته وكان قد عرضت له حاجة في انطاكية سنة ٥٤٠/١١٥٥ فدخلها وطاف بسككها واحيائها وغشي بيوت لهوها وحاناتها وجالس قيانها وطرب لسماع غنائهن العربي وطاف الكنائس ايضاً وشاهد الراهبات فيها والنساء الصليبيات والروميات ووصف كلاً منهن ابدع وصف واعذبه في مقطعات وقصائد له دعاها :

الثغريات

وهذا نص ما كتبه في مختاراته منها في مجلده بالحرف وقد روينا بعضاً منها في مقالتنا السابقة «النساء الفرنجيات في عهد الصليبيين» (المشرق ١٩٤٩، ج ١ : ٢—٣) قال عند دخوله انطاكية ومروره بالمواصم يذكر مواضع استحسنها وهي الثغريات (ص ٦١)

فمن ذلك :

كم بالكنائس من مبتلّة مثل المهاة يزينها الخفر
من كل ساجدة لصورتها لو انصفت[1] سجدت لها الصور
قدّيسة في حبل عاتقها طول وفي زنارها قصر
غرس الحياء بصحن وجنتها وردًا سقى اغصانه النظر
وتكلمت عنها الجفون فلو حاورتها لاجابك الحور
وجلت مدارعها غدائرها فاراك ضمني ليله قمر

ومن ذلك في المكشوف احد هياكل انطاكية :

كم لي بانطاكية من هوى لا انثني عنه بتعنيف
اذ لا أجيل العين الا على جيش من الآثار مصفوف
من كل بيضاء مسيحية ما عندها البدر بموصوف (٦٢)

---

١) في خريدة القصر للعماد الكاتب : لو انصفت .

تجري ثناياها المآقي فما   تلحظ طرفاً غير مطروف
فالعين خوف العين مصروفة   عنها وما القلب بمصروف
هذا وكم وجه كشمس الضحى   بالهيكل المكشوف مكشوف

ومن ذلك يصف انطاكية :

واحربا في الثغور من بلد   يضحك حسناً كأنه ثغر
به قصور كأنها بِيَع   ناطقة في خلالها الصور
هالات طاقاتهن آهلة   يبسم عن كل هالة قمر
سوافر كلما شمرن بنا   برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته   بدر ولكن ليله شعر
فهو اذا ما السلوّ حاربه   كان لتلك الضفائر الظفر
فيا عذولي فيهن دعْ كلفي   وانظر الى الشمس هل لها طُرَر (٦٣)
وكن معيني على ذوي خُدَعٍ   ان سالم القلب حارب النظر
سرتُ وخلفت في ديارهم   قلباً تمنيت انه بصر
ولم ازل اغبط المقيم بها   للقرب حتى غبطت من أُسروا

ومن ذلك :

أمُمْظِمَةَ الصليب وددت اني   ودين الله عندكم صليب
اذا اقبلت قبّلني حبيب   أُسَرّ به وعانقني حبيب
وهل بيني وبين العود فرق   يُرى الا التفجع والنحيب
حبيني صورة يُحنا عليها   أجيب اذا دُعيت ولا تجيب
فلم يسبِ باطرف من فتاة   من الرهبان قوتها اديب
فلو قدّيسها ناجاه لفظي   لامسى والنسيب له نسيب (٦٤)

ومن ذلك :

ماذا باطراف الثغر   من بارق على ثَغَر
وما بانطاكيّة   من بشر يسبي البشر
وكم بها من فتنة   تلقاك في الف قمر
من ظبية تأنيثها   ينظر من عينَي ذكر
واغيد تذكيرهُ   له من العين الحور
حتى اذا اجلتَ في   تلك الديارات النظر
لم ترَ الّا صورا   ساجدة الى صور
سبحان من ابدعها   جند القضاء والقدر

ومن ذلك :

. . . ري في الثغور من الثغور   وفي نحر العدو من النحور

... نجمة باسمها عقودا   ففي افواهها ما في الصدور (٦٥)
على اردانها قضبان بانٍ   تميس بفاتنات اللحظ صور
اذا انتصبت فاقطار الدراري   وان مالت فافلاك البدور
فلو منطقتها بحلى يديها   جرت تلك الخصور على الخصور
سمن بمن سكنَّ بيوت شعر   فابرزن المحاسن في الشعور
وارجن النواظر في وجوه   مترهة الخدود عن الخدور
تريك الحسن غير مبرقعات   الا ما في البراقع من غرور
فلو خادعت طرفك لم تعرّج   به الا على قمر منير
فدعني من منازلة البوادي   فلي شغل بسكان القصور

ومن ذلك :

لقد فتنتني فرنجيّة   نسيم العبير بها يعبق
ففي ثوبها غصنٌ ناعم   وفي تاجها قمر مشرق (٦٦)
فان تكُ في عينها زرقة   فان سنان القنا ازرق

ومن ذلك في كنيسة القسيان :

يا غزال الثغور بالقسيان   انت من غال ذكره نسياني
اسأل السائحات عنك نهارا   فاذا الليل جنّ جُنّ جناني
كيف يصغي الى السلوّ جماحي   بعدما اطلق الغرام عناني
حبذا يوم باكرتنا الزنا   نير ترينا القضبان في الكثبان
وعلى موقف الاساقف ظبي   يفرس الأسد من بني الفرسان
غصن نابت من المرمر المنضو   دِ في غير منبت الاغصان
اخرته النفوس عن . الصد   رِ وحطته في صدور الاماني
..... عليّ به الدهر   فيا هل لذلك اليوم ثان (٦٧)
فأرى من اراني الشمس شمـ   ـسا على الارض تالي الالحان

وقال في كنيسة السيدة وهي قبّة شاهقـة البنيان عجيبة الوضع لنصارى نطاكية خاصة دون الافرنج :

اني رأيت بانطاكية عجباً   معرّس الفكر فيه غير مشترك
على اسم مريم فيها هيكل صلف   سماؤه ذات انوار من الحبك
تحوي اذا اذن الناقوس معركة   لعسكر الحسن فيها اي معترك
ناهيك من صورة تعنو لصورتها   حسناً ومن ملك يومي الى ملك
لما رأيت بها الاقمار طالعة   عجبت كيف اقاموا قبة الفلك (٦٨)

ومن ذاك فيها ايضاً :

أصاحِ متى عُجتَ بالسيدة   فسَل عن فؤادي ا فقده

وقلبكَ حذّره من ان يُصا　　دَ فان بها للهوى مصيده
وجوه تباهي قناديلها　　ببهجة نيرانها الموقده
ترى كل مستضعف خصره　　اذا ما دعا طرفه انجده
وذات روادف عند القيا　　م تحسبها انها مقعده
وبدر من الشمر في غاسق　　يضاحك ابيضه اسوده
فيالِيَ من ذلك الزبرقا　　نِ اذا زرفن الليل او جعّده
محل خيال اذ ما رأيت　　اردده قلت ما ارده
مسرّح عين كخيل الظبا　　تعالج غادته اغيده
به كل نشوانة لحظها　　يطرق بين يدي عربده
صوارم قاطعة في الجفو　　نِ فهي مجرّدة مغمده (٦٩)
فها انا من في سبيل الغرا　　مِ اورده الحب ما اورده
فهل لدمٍ فات من طالب　　وهيهات اعجز يوم غده
وكيف يجازى بقتل النفو　　س من لم يمدّ اليها يده

ومن ذلك في بربارة وهي كنيسة للافرنج خاصة :

فديتكَ يا قسّ بربارةٍ　　وما بتّ تتلوه في الحندس
أَجِرني من الصور الناطقا　　تِ متى قمن حولك في مدرس
اذا هنّ اقبلن وقت الصلا　　ة في كل لون من الاطلس
وجالت مناطق اوساطها　　وضاقت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل اردافها　　فيا لي من ذلك المجلس
فلولا التحرّج في ملتي　　طلمت عليهن في برنس (٧٠)
وقمت أُلحّن قداسهنّ　　م غير بليد ولا اخرس
ولم تكُ فرسانها في الطعا　　نِ باشجع مني ولا افرسِ
الا حبذا ما استثار الهوى　　بتلك الكنائس من كُنّس
ترى كل فاتنة وجهها　　مرّى بشمس الضحى مكتسى
تكاد التماثيل من حسنه　　تنور بناطقة الانفس
فرنجية ساكن عقدها　　وزنارها قلق المجلس
اذا قبّلت صورة اقبلت　　عليها بناظرها الاشوس
فيا ليتني عندها دمية　　تراني ولا ريب في ملمسي
فأقسم لو انني استطيع　　تحولت صورة مرجرجس (٧١)

ومن ذلك في اشمونيث وهي للغريرية والنصارى :

لو كنت ثالثنا باشمونيثا　　حتى ترى التوحيد والتثليثا
لرأيت منا اعينا طمّاحة　　تستحسن التذكير والتأنيثا
... محض يجاذب ردفه　　فكأنه احتقب الرمال الميثا

ومهفهف لعب الصبى بقوامه حتى توهمت الشباب خنيثا
لما سألت علالة من ريقه ملا الزجاجة ثم جاء حثيثا
قلت اسقني من فيك ان رضابه قد ردّ اطيب ما جملت خبيثا
قال اعتبر قرع المزاج نسيبه ما عند ثغري تفهم الثالوثا
وبدا يناظرني به عن دينه فقطعت ليلًا بالجدال مكيثا
فخ ى عيسى بالصلاة واصطفى لوطًا ونذكرنا المدامة شيثا
والبدر مبتسم كوجه خريدة قرنت به فرعا عليه اثيثا
يا ليلة افردت طرفي فجرها عنقا يكون به المطيّ حديثا (٧٢)

ومن ذلك في دير سمعان وهو على فرسخين من انطاكية لهم به اجتماع في عيد الصليب :

يا هل سمت ٌبدير سمعان وما به للعيون من عان
أموقف للصلاة هيكله ام منبت من منابت البان
في كل غصن تفاحتا خجل تلقاك من مثله بستان
من ذات بشر يلوح في بشر وذات جان علا على جان
يرمي فيصمي عن غير ناطقة ما كل قوس ترمي بمرنان
في ليلة لم تزل ...١ حرقي تلفح نيرانهم بنيران
كأن بهرام من توقدها بات زعيماً بحرب كيوان
نار ونور كأن انسها في الليل ما آنس آل عمران (٧٣)
حتى انجلى الصبح في كنائسها عن كل نشوانة ونشوان
تسجد للشمس وهي معرضة في الافق عنه بوجه غيران
وانصرفوا والفؤاد افئدة مع كل نصرانة ونصران
يا حسن عيد الصليب لو ان كان الدهر فيهم اعياد صلبان

ومن ذلك في جارية من مولدات انطاكية اسمها ماريا من احسن الناس خَلقاً وخُلقاً تغني بالدف ومن اصواتها التي تغايظ بها النصارى وتستميل قلوب المسلمين :

علقتُ بحبل من حبال محمد امنت به من طارق الحدثان

تعني النبي صلى الله عليه وسلم

ألا يا غزال الثغر هل انت منشدي علقت بحبل من حبال محمد (٧٤)
ويا هل لذاك اليوم في الدهر ليلة تعود ولو عادت عنينا بلا غد
فالقاك فيها هادي الكأس حاديا وحسبك من ساع بها ومغرّد
الا حبذا عاري المحاسن عاطل محلّى بانواع الملاحة مرتد
اذا ما الاماني ما طلتني بوعدها ذكرت له وصلًا على غير موعد

وقد نام عنا الدهر حتى كأنه   غداة الثقينابات شارب مرقد
فيا حسن ذاك الوجه اذ ريع روعة   نعوّذه منها بتصلية اليد
وعهدي بماريا سقى الله عهدها   بما عندها من حاجة الهائم الصدي
وفي ذلك الزنار تمثال فضة   تنقط خديه العيون بعسجد
وقد غلب المصباح منها على الدجى   سنا قمر في جنح ليل مجسّد
وكنت اذا عفت الزجاجة موردًا   سقتني رضابًا في اناء مورد
فيا ليَ من وجه كقنديل فضة   عليه من الصدغين محراب مسجد (٧٥)
لقد اسرتني حيث لا ابتغي الفدا   فقل في اسير لا يسرّ بمفتد

ومن ذلك فيها :

اذا ما زرت ماريًا   فما سعدى وما ريّا
فتاة كقضيب البان   يثنيها الصبى طيًّا
تلوّى كالمواعيد   اطالت عمرها ليًّا
لها وجه مسيحيّ   ترى الميت به حيًّا
اذا ما قابلته الشمس   لم تبصر له فيًّا
فيا احسن من اعرض   ادلالًا ومن حيًّا
اثنين وحبّاك   فتى قلت له هيًّا
فلو يظهر وسم الحبّ   ابصرت له كيًّا
هوى الّا يكن رشدا   فما احسنه غيًّا (٧٦)

ومن ذلك في خمارة بجسر الحديد على باب انطاكية :

ان كان لا بد من السكر   فمن يدي خمارة الجسر
خمارة تطلع من نحرها   جُمارة بيضاء من نحر
تمشي فتسقي الراح في راحها   تهدي بنا الشمس الى البدر
حتى اذا دارت على شربها   الحاظها اغنت عن الخمر
ما زرتها الا وباتت يدي   اولى من الزنار بالخصر
وبت اسقى من جنى ريقها   كأسًا من الثغر على الثغر

ومن ذلك :

واحياني وقد مررت بعُمّ   من مسيحية دعتني بعمي
ابن عصر الشباب ايام ادعوها صبيًا بجدتي وبامي (٧٧)

ومن ذلك :

عرّجا بالاثارب   كي اقضّي مآربي
واسرقا نوم مقلتي   من جفون الكواعب
واعجبا من ضلالتي   بين عين وحاجب

رب كأس حبابها من ثغور الحبائب
اسكرتني فبتُّ مُلقىً بأعلى الترائب

ومن ذلك وقد اجتاز بعزاز من ضواحي حلب وهي مع الافرنج :

ابن عزّي من روحتي بعزاز وجوازي على الظباء الجوازي
واليعافير ساحبات النفا فير علينا كالربرب المجتاز
بعيون كالمرهفات المواضي وقدود مثل القنا المزّاز (٧٨)
ونحور تقلّدت بثغور ريقها ذوب سكر الاهواز
ووجوه لها نبوة حسن غير ان الإعجاز في الأعجاز
كلّ خمصانة ثنت طرف النر نار من نكتة على هواز
ذات خصر يكاد يخفى على النا رس منه مواقع المهاز
لاحظتني فانقضَّ منها على قلبي طرف له قوادم باز
وسبتني لها ذوائب شعر عقدتها تاجاً على ابرواز
من معيني على بنات بني الاصفر غزوًا فانني اليوم غاز

ومن ذلك :

احين سمالي في السلوّ سبيل توكل لي بالاخترين(١) وكيل
اغنّ ضعيف الخصرين جفونه من اللحظ ماضي الشفرتين كليل
له خيمة بالتلّ غير وخيمة يفيء لها ظلّ عليه ظليل (٧٩)
تدافع عنه غيرة الشمس بالضحى والمطي في ظلّ الكناس مقيل
يقولون لي نوم المليل مشرّد فلم نال منه الطرف وهو عليل
يسائلني ما حاجتي وهو عالم ورب جواب ما اليه سبيل
واطمع منه في الوصال ودونه دلال على الهجران منه دليل
تى سمحت عين لمان بغدية فلا فاتني من ذا الجمال جميل

ومن ذلك في مولّد من مولدي الافرنج ابصره بياعو من بلاد الشمال

وشحنة كالهلال في ياعو عيناه جند له واشياع
وال والبابنا ولايته ومُقطَع والقلوب اقطاع
اذا بدا اذعنت له حدق وان شدا ملكته اسماع
يجسّ اوتار عوده بيد ايقاعها بالنفوس ايقاع (٨٠)

قال وقد اقتُرح عليه الوزن والمعنى :

لا تخدعنّ ذا الحسام المرهف الا الذي يملوه جفن اوطف
واذا رأيت الطرف يسل في الحشا عمل الاسنّة فالقوام مثقف
وبح المحب اما يخالس نظرة الا هفا بالقلب ظبي اهيف

١) الاخترين من قرى حلب

بالله يا نفحات انفاس الصبى   ما بال غصن البان لا يتعطف
يا مُسكري وجدًا بكاس جفونه   قل لي اثالك لواحظ ام قرقف
بادر جمالك بالجميل فربما   ذوت الملاحة او أبلّ الموقف
واسبق عذارك باعتذارك قبل ان   يأتي بعزل هواك منه ملطف

وقال ايضاً :

يا عارضاً نفسه وعارضه   يضرب دون الوصال بالحُجُب
ابنت منه لسلوتي سبباً   يا هاجري قبل ذا بلا سبب (٨١)
فالقَ به قطع كل ذي صلة   هذا كسوف بعقدة الذنب

وقال :

اودعتكم قلبي وودّعتكم   لا آمن البعد على قلبي
وعدت ادعو الله في قربكم   وقد أجيبت دعوة القرب
فاعتبروا مشتاقكم في الهوى   هل زلّ عنه خاتم الحب

وقال ايضاً :

من لقلب يألف الفكرا   ولعين ما تذوق كرى
ولصبّ بالغرام قضى   ما قضى من وصلكم وطرا
ويح قلبي من هوى قمر   انكرت عيني له القمرا
حالفت اجفانه سنة   قتلت عشاقه سهرا
يا خليلي اعذرا دنفاً   يصطفي في الحب من عذرا (٨٢)
وذراني من ملامكما   ان لي في سلوتي نظرا

وقال ايضاً :

كلما خالسته نظري   رد جفنيه على حَوَر
وابلاني من مفوّقة   ليس ترمي القلب عن وتر
كيف لا تصمي واسهمها   واقعات من يد القدر
بأبي من في عمامته   قمر في هالة القمر
يا عديل النفس محتملاً   وتزيل الطرف في الخفر
انت من هذا المحل وذا   ابدًا في رحلتي سفر

وقال ايضاً :

ويلاه من قلبه صخرة   في زند قلبي ابدًا قادحة
كأنما كأس جنى ريقه   بعد الكرى نافجة نافحة (٨٣)
تالله هل في خده حمرة   ام خمرة ام جمرة لافحة
لو لم تكن مقلته في الحشا   جارحة ما سمّيت جارحة
تقضي صلاتي كلها باسمه   فلا تسل عن سورة الفاتحة (٨٤)

هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره

تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بدء الدولة السلجوقية في فارس

في السنة ١٣٤٧ لليونان (١٠٣٦ م) برز قوم من الهونيين او الغز ومعهم امراء سلجوقيون من هرقانة مدينة بارض الخزر شمالاً. وقد كتب عنها بالتفصيل مار ميخائيل البطريرك القديس قال: هم بنو ماجوج بن يافث بن نوح. عنهم تنبأ حزقيال اذ قال: « هكذا قال السيد الرب هنذا اليك يا جوج رئيس روش وماشك وتوبل. فأديرك وأجعلُ حلقةً في فكك وأُخرجك انت وجميع جيشك خيلًا وفرسانًا من كلّ لابس ثياباً فاخرة جماً كثيرًا ذا مجانب ومجانّ من كلّ قابض سيف. ومعهم فارس وكوش وفوط. وكلهم ذوو مجانّ وخُوَذ. ومعك جومر وجميع جيوشهم وآل توجرمة واقاصي الشمال وجميع جيوشهم وشعوب كثيرون. . . فانك بعد ايام كثيرة تُفتقَد وفي آخر السنين تأتي » (حزقيال ٣٨: ٣-٢٨).

وقد طالعتُ انا الحقير كتاباً فارسيًا عنوانهُ « ملك نامه » ذكر مؤلفه انه سمع اميرًا كبيرًا وشيخاً هرماً اسمه اينانغ بك يقول: لمّا ظهر بيغو خاقان الخزر كان بخدمته رجل محارب اسمه توقاق أُطلق عليه بسبب بسالته لقب تورياليغ اعني صاحب القوس الحديديّة. فهذا وَلَد ابناً أسماه سلجوق. وبعد زمن وجيز (٢١٨) مات الامير توقاق فاحتضن الخاقانُ سلجوقَ وربّاه في بلاطهِ وأحبّه حبًا جمًّا. وزار سلجوق يومًا الخاقان كعادته فخامر الملكة ريبٌ في أمره وقالت للملك: يخال اليّ ان لهذا الصبيّ دالةً كبرى عندك الآن. فما يكون من أمره يا ترى متى نمى وترعرع؟ وقد اطلع سلجوق على ذلك

سرًّا فخرج خفيةً مستصحباً ابناء قبيلته وارتحل في خيلٍ وإبلٍ وغنمٍ وبقر كثير من ارض توران التركيَّة الى ارض ايران الفارسيَّة شكل راعٍ . ولما شاهد بلاد فارس عامرة بالمسلمين عقد مشورة مع رجاله وقالوا : إلّم ننضمّ الى دين ابناء البلاد التي يمناها لا يتبعنا احد بل ننقص ونبقى منعزلين . ثم اتفقوا وارسلوا الى مدينة زندة بخوارزم وهي قريبة من البريّة التي اناخوا بها وسألوا سلطانها ان يرسل اليهم معلّماً يلقّنهم عبادة الله عزّ وجلّ . فلبى طلبهم وسيّر معهم شيخاً في الطاف وهدايا فانضتوا الى الاسلام . واقاموا ثمّ اعواماً وغنوا وكثروا جدًّا . ورُزق الامير سلجوق اربعة بنين ذكور وهم : ميخائيل وبيغو وموسى وارسلان . ورُزق ميخائيل ابنان : محمد طغرل بك وداود جغري بك . وحشد جغري بك عسكرًا كثيرًا من التركمان وزحف الى بعض بلاد ارمينية وخراسان وغزاها وعاد يخبر اخاه طغرل بك ويقول : ان ههنا سلطانين كبيرين . خوارزمشاه هرون ومسعود بن محمد بن سبكتكين ولا سبيل الى التغلب عليهما . فالاجدر ان نرحل الى خراسان وارمينية لانه ليس فيهما من يعارضنا كما عرفتُ . فامتثل اخوه المشورة ونهضا وعبرا نهر جيحون ووصلا الى مدينة دمغان وافتتحاها . واستأنفا الزحف الى مدينة سمنان وقهرا كذلك (٢١٩) الجيش العربيّ والفارسيّ ودخلا مدينة الريّ وأخرباها بأسرها . ثم زحفا الى قزوين فامتنعت عليهما ففرضا عليها الجزية وارتحلا .

اما ما ذكره الشيخ المغبوط (البطريرك ميخائيل) عن كلب كان يهديهم مذ غادروا وطنهم فلم نعثر عليه في غير تاريخه . ولعلّه نقل الخبر عن السماع او عن تاريخ لم نظفر به نحن لاننا لم نطالع التواريخ باجمعها .

وفي السنة ٤٢٧ للعرب (١٠٣٥ م) مات الطاهر خليفة مصر بداء الاستسقاء . وظلّ هذا الداء متأصلًا به منذ صباه مدّة عشرين سنة . وخلفه المستنصر ابنه . وعقد هدنةً مع ميخائيل ملك الروم وأطلق خمسين الف مسيحي كانوا معتقلين في مصر . ورخّص للملك الروم ان يجدّد بنيان كنيسة القيامة باورشليم . فوجّه الملك رجلًا خبيرًا في كميَّة وافرة من فضة وذهب فرمّمها كما كانت من قبلُ .

وفي هذه السنة توفي الشيخ الرئيس ابو علي حسين بن سينا . تأجرَ بالوزنة الارسطوطاليَّة فربح خمسين وزنة بدلا من خمس وزنات . وكان ابوه من بلخ ثم انتقل الى بخارى واستوطنها وحينما بلغ ابنه الخامسة من سنه وضعه في المدرسة . ولمّا اكمل العاشرة أحكم القرآن والغرماطيق واللغة العربية . واخذ يختلف الى حانوتيّ بائع بقلٍ يأخذ عنه رقم الحساب الهنديّ . ثم يمّم بخارى الفيلسوف ناتلي وجعل يدرّسه الايساغوجي . ولمّا وصل الى تحديد الجنس الذي يُطلق على انواعٍ كثيرة قال لمعلمه : هــل يُطلق الجنس على كلٍّ من الانواع فردًا فردًا ؟ (٢٢٠) قال المعلم نعم . اعترض الفتى فقال : اذا سألني سائلٌ مَن هو الانسان وقلتُ له هو حيوان فقط فهل يكون جوابي صائباً ؟ قـال المعلّم نعم . ناقضه التلميذ وقال : لستُ اوافقك اذ لستُ بلا رويّةٍ حتى اذا سألني سائلٌ عن الحيوان الناطق مَن هو اكتفي بالقول : انه حيوان وأسكت. ومنذ إذٍ ترك المعلّم وجعل يطالع على حدة ويتفهم ما يقرأ . ولما بلغ السادسة عشرة نبغ في الطبّ حتى اخذ شيوخ الاطباء يختلفون اليه ويقرأون عليه . ثم جعل يعودُ المرضى حتى احكم معالجتهم .

ولما بلغ الثامنة عشرة صنّف كتابه الكبير المشهور بالقانون واردفه بكتاب الشفاء الضخم في علوم الفلسفة الاربعين واتى عليه في عشرين يوماً وضمّنه علوم الطبيعيّات والالهيّات . وبلغت تآليفه المشهورة المتداولـة اثنين وتسعين كتاباً وضع اغلبها وهو في السجن . ونقلت انا الحقير عن العربية الى السريانية كتابه البديع « الاشارة والتنبيه » . وقد قبض عليه في اثناء فتنةٍ اثارهـا اميرٌ على الامير الذي كان يخدمه وحُبس في حصنٍ قال لمّا دخله : لا ريب في دخولي هنا اما خروجي منه فهو في ريبٍ اكيد . وظلّ محبوساً اربعين يوماً حتى وافى اميرُه واحتلّ الحصن وأطلقه . وحُبس غير مرّةٍ ايضاً . وعلى غزير فضلهِ فقد كانت القوة الشهوانيَّة متغلّبة عليه فضعف جسمه بسبب ذلك وانحرف مزاجه وانتابه داء القولنج في اواخر ايامه فاحتقن ثمـاني مرات في يوم واحد وأوصى خادمه ان يلقي في الحقنة دانقين من بزر الكرفس لكنه ألقى خمسة دراهم (٢٢١) فحدث له قرحة في الامعاء وانتابه صرعٌ قد يتبع القولنج احياناً . وأمر

ان يركبوا له علاجاً وضع فيه خادمهُ كمية وافرة من الافيون استعمله غير مرة حتى خمدت حرارته الطبيعية واغمض عن المعالجة وقال : ان مدبّر جسمي قد كلّ عن تدبيره ولن يستطيع الى شفائي سبيلاً بعد . وظل كذلك بضعة ايام حتى توفي ودُفن في همذان وعاش ثماني وخمسين سنة .

وفي السنة ٤٢٩ للعرب (١٠٣٧م) زحف الغز تكراراً الى ارمينية وقتلوا خلقاً كثيراً من اكرادها وعربهـا واحتووا على غنيمة وافرة . ثم زحفوا الى اورمية باذربيجان فانحدر اكراد الجبل وناوشوهم فانتصر الغزّ وأجهزوا على عدد وافر منهم .

ولما رأى الامير ابن وثّاب صاحب سورية وارمينيـة انه عاجز عن مقاتلة الروم والاتراك معاً عقد الصلح مع الروم وتخلّى لهم عن الرها فاستعمروهـا وازدادوا فيها .

وفي السنة عينها دوّخ الغزّ مراغة واحرقوا مسجدها الكبير وقتلوا واعتقلوا الكثيرين من اهاليها . فاحتشدت قبائل اكراد الجبل وناوشوا الغزّ واخرجوهم عن اذربيجـان وانقلبوا تكراراً الى خراسان ودوّخوا طوس وفتكوا باكثر من مائة الف نسمة . وقتلوا في ضواحيها نحو عشرين الفاً واعتقلوا نحو مائة وخمسين الفاً . فزحف اليهم سرباشي سلطان خراسان في ثلاثين الف فـارس فانكسر وانهزم واتجه الاكراد نحو نيسابور وحاولوا نهبها فنهـاهم طغرل بك بسبب دنوّ صوم رمضان . ثم أشخص الخليفة القائم سفيراً اليهم يعاتبهم ويقول : كيف يجوز لكم ان تعاملوا العرب ابناء دينكم مثل هذه المعاملة ؟ واعتزم جغري بك ان يحاصر نيسابور بعد الصوم فصدّه طغرل بك (٢٢٢) تنفيذاً لرسالة بعث بها اليه خليفة بغداد الاكبر . فناهضه جغري بك . فأخذ طغرل بك سكيناً وقال له : اذا فعلت هذا انتحرتُ فسكت واستنزف خمسمائة الف درهم من اهاليها وعدل عن حصارها .

وكتب طغرل بك جواباً الى الخليفة هكذا : من طغرل بك بن ميخائيل عبدهِ وخادمهِ . وكتب مثله قتل صهره زوج اخته هكذا : من قتل بن يحيى عبدهِ وخادمهِ . وامتنع جغري عن الكتابة . وسار طغرل بك الى نيسابور

وجلس على عرش السلطان مسعود . واقام جغري بمدينة سركس وتزل صهره بمدينة الريّ .

وفي السنة ٤٣٠ للعرب (١٠٣٨ م) اثلجت في بغداد وظلّ الثلج بعلوّ شبر في الشوارع اياماً تبعه في كانون برد شديد وجمدت المياه ستة ايام . وفيها جيَّش السلطان مسعود جيوشاً ضخمة من فارس الداخليَّة ومن الهند الخارجيَّة وأطبق على الغزّ بجانب مرو – رود وقهرهم وقتل نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة وانهزم البقيَّة الى الصحراء مع طغرل بك وجغري بك . واستقرّ السلطان في خراسان نحو سنتين وترك جيوشه هناك وعاد الى غزنة بخوارزم . وما ان سمع الغزّ حتى زحفوا تكراراً الى خراسان عام ٤٣٢ للعرب (١٠٤٠ م) واحتلوها دون قتال واحتلوا اذربيجان كذلك .

وفي هذه السنة زحف الروم الى سورية فلاقاهم الامير انوشتكين بجوار حماة وتغلَّب عليهم واوثق ابن عمّ الملك وقتل حاجباً كبيراً .

وارتحل في السنة عينها السلطان مسعود الى الهند كعادته في الشتاء هرباً من برد خوارزم الشديد ونقل نساءه واهل بيته واخاه محمداً الضرير الذي سبق فسمل عينَيه يوم كانا (٢٢٣) نازلين عند نهر حسالم . ووثب انوشتكين على مسعود في الف عبد واوثقه ومضى به الى اخيه محمد الضرير واجمعوا على ان يملك الضرير . فقال الضرير لاخيه مسعود : لستُ اصنع بك مسا صنعتَ بي ولكن اختر لك مكاناً تذهب اليه فيمن تشاء من ذويك . فاختار مدينة كاسا وانتقل اليها مخفوراً بظاهر التكريم . وبعد هذا تشاور الزعماء وانتزعوا بحيلة خاتم محمد الضرير وارسلوه مع بعض الجند الى حاكم كاسا ففتح لهم الباب فدخلوا واجهزوا على السلطان مسعود . وكان مودود ابنه في خوارزم فلما سمع بما جرى لابيه حشد خمسة آلاف رجل ووثب على عشرين الفاً كانوا مع عمه فانتصر عليهم وقتل عمه . وثقب مفاصل قتلة ابيه وربطها بالحبسال فسحبهم الجند على الارض حتى ماتوا . وانقلب هو الى غزنة واستقرّ في ملك أبيه سوى خراسان واذربيجان اذ كانتا للاتراك .

وفي السنة ١٣٥٣ لليونان (١٠٤٢) و٤٣٣ للعرب توفي ميخائيل ملك الروم

دون عقب . وتولى شؤون المملكة ابنتاه زواي وثودورا ثلاثة اشهر . ثم عقد الاقطاب المشورة وانتقوا منهم ثلاثة اشخاص كفوئين وكتبوا اسماءهم في اوراق وضعوها في صندوقة وختموها بالشمع وأحضروا صبياً مدّ يده واستخرج احداها وبها اسم مونوماخس . فزفوا اليه ثودورا المذكورة ونادوا به ملكاً باسم قسطنطين . وأسنت ثودورا لاختها زواي تسعة قناطير ذهباً بدلًا من المُلك . وكان قسطنطين هذا متّصفاً بالشهامة والسخاء ومصاباً بداء النقرس .

وفي السنة ٤٣٤ للعرب (١٠٤٣ م) حدثت زلزلة مريعة في تبريز (٢٢٤) قوّضت قلعتها وسورها واغلب دورها وحماماتها واتلفت تحت الانقاض خمسين الف نسمة . اما صاحبها فقد افلت من الغائلة لانه كان متغيباً في الحديقة . فلبس المسح وجلس على الرماد حدادًا على خراب المدينة . ثم انهزم فتحصّن في احدى مدنهِ خوفاً من الغزّ الذين استحوذوا على خوارزم . وتولى خراسان ابرهيم بن يوسف اخو طغرل بك من أمّه . وكتب رسالة الى بغداد مؤدّاها: ان شاهنشاه الكبير اعني طغرل بك السلجوقي ملك الملوك قد احتلّ خراسان وخوارزم وهو مصمّم ان يوجّه الجيوش الى بغداد اذ بلغه تعدّي المعدّين على الحجّاج المتوجّهين ليسجدوا في بيت الله واكثارهم من السبي والنهب . فيجب ان تستقبلوهم بالتكريم والعطاء كما تستتب الطمأنينة في كل الاطراف . ثمّ رسم على الرسالة شكل قوس وسهم وبعث بها مع سفيره .

وسقط في هذه السنة بَرَد ضخم وزن الحبة رطلًا بغدادياً او رطلين واكتسح اكثر من ثلاثين قرية بضواحي بغداد .

وفي السنة ١٣٥٤ لليونان (١٠٤٣ م) ظهر في بلاد الروم ميناخوس الخارجي وانضمّ اليه نحو عشرين الفاً . فوجّه الملك قسطنطين اليه كُسطفور الحاجب في اربعين الفاً فاجهز عليه وعلّق رأسه في قصبة واركب اكثر من مائتي رجل من اصحابه على حمير موثقين ووجوههم معكوسة في اذناب الحمير . وجعل في جبين كل منهم اربع خصًى ورئةً وكبدًا من اعضاء القتلى . وأمر المنادين ان ينادوا امامهم في شوارع العاصمة : هذا عقاب من يعصى الملك ويتمرّد عليه . وبعد

هذا أشفق عليهم وسرّحهم وهو يقول : اذهبوا الى حيث شئتم . ودفع الى كلّ من الجنود سبعين دينارًا او خمسة وثلاثين دينارًا مكافأة لجهادهم .

وفي السنة ٤٣٥ للعرب (١٠٤٣ م) (٢٢٥) وجّه طغرل بك سفيرًا الى الخليفة القائم يقول : اني خادم لإمام الدولة العربية . وقد اذعت المناداة باسم الخليفة في البلاد التي ملكتُها . وأنقذت الناس من مظالم السلطان محمود والسلطان مسعود اللذين سبقاني ولستُ أضعف منهما . فقد كانا هما من عبيد الخليفة ثم استبدّا بالسلطنة . اما انا فاني حرٌّ ومن عترة الملوك الهونيّين . فاذا عززتموني مثلهما اصبحتُ افضل منهما بطاعتي وتقادمي .

قيل ان طغرل بك كان يجلس على كرسي عالٍ وراءه تروس وارماح وامامه قوسٌ معتبرة وبيده سهمان يلعب بهما . وكان يلبس ثيابًا بيضاء قطنيّة ويصوم يومَي الاثنين والخميس ويثابر على تلاوة الصلوات الخمس . ووصف أقضى قضاة بغداد ذكاءه فقال : لمّا زرتُه بنيابة سفيرٍ كتبتُ رسالةً سريّةً الى بغداد اوردتُ فيها عبارات عن عتوه وفظاظته وريائه في صلاته وهجوتُه هجوًا مرًّا . ودفعت الرسالة الى رجل من امانيّ فسقطت منه عفوًا وعثر عليها احدهم ونقلها الى طغرل بك . فاطّلع على كلّ ما بها وظلّ يؤآنسني ويكرمني . ولم اشعر بما جرى حتى أطلعني على الحقيقة كاتبٌ صديقي كنّا سائرَين معًا في الطريق فأكّد لي ان ناقل رسالتي الى طغرل بك قد أضاعها في الطريق .

واعتاد الجنود ان يتوافدوا كلّ يومٍ فوجًا فوجًا ليؤدّوا الطاعة لطغرل بك . يتألّف كلّ فوج من الفي شخص . وكانوا ينحدرون عن خيلهم من بعيد ويقبّلون الارض ويقفون . ثم يشير الحاجب اليهم بان تحيّتهم قد قبلت . فكانوا يقبّلون الارض ثانيةً ويركبون وينصرفون فيأتي فوجٌ ثانٍ . ولم يكن يدنو منه احدٌ او يحادثه . وتعوّد الجنود التخريب والسبي والقتل اينما اتّجهوا . ولم يسع الناحيةَ التي يقيمون بها احتمالهم اكثر من اسبوع واحد بسبب كثرتهم . وطالما اضطرّوا ان يتوجّهوا من ناحية الى ناحية انتجاعًا لقوتهم وعلف خيلهم .

وساروا في تلك الغضون وعاثوا في بلد نصيبين وميافرقين وسنجار والخابور

وقتلوا في آمد زيرك حاكمها ، ثم زحفوا الى الموصل وطالبوا معتمد الدولة صاحبها خمسين الف دينار ليتركوها وينصرفوا . فلم يلبِّ الطلب فاحتلوا المدينة وانهزم هو من بابٍ تحت الارض ينفذ الى دجلة . وقصد الغزّ داره واحتووا على ما ساوى مائتي الف دينار واقتسموا سبع عشرة نسائه العربيات والكرديات وجواريه الكثيرات . ثم نهبوا المدينة سوى حيّ شهرسوي فان اهله ادّوا لهم خمسة عشر الف دينار. واشترى نساء معتمد الدولة آباؤهنّ واقام الغزّ ولاةً في الموصل وانطلقوا الى مدينة بلد فامتنعت عليهم :

وتحرّش احد الغزّ بعد ايام وجيزة بصبيّ موصليّ وطعنه بالرمح . فسخطت امّه وكانت صخّابةً مهذارةً فلطخت وجهها بالدماء . وخرجت تنادي في الشوارع ان الغزّ قتلوا ابني وابنتي واوقعت صيحةً عظيمةً استفزّت العرب فوثبوا الى الغز وقتلوهم . فبادر سائر الغز من بلد الى الموصل واثخنوا في الفي شيخٍ وفتًى وظلوا اثني عشر يوماً يغزون ويقتلون. وكانوا يقولون لكلّ من قبضوا عليه : اشترِ نفسك . هكذا استنزفوا كلّ ما كان في الموصل من فضّةٍ ظاهرًا وخفيًّا. ثم نادوا بالامان . وبعثوا الفلّاحين الى مزارعهم وأمروهم ان يحرثوا اراضيهم . وما مرّ القليل حتى استجمع المعتمد قواه وحشد المعدّيين وناوش الغز وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيرًا وانهزم من تبقّى منهم الى اذربيجان .

وفي سلخ تشرين الاوّل ١٣٥٥ لليونان (١٠٤٤ م) توفي ابو الفرج الراهب النسطوريّ والفيلسوف الفاضل الحميد الاثر . وقد نقل (٢٢٧) المهدّين القديم والجديد وتصانيف ارسطو الى اللغة العربية . وتطرّف لذمّ جثالقة النساطرة بسبب تغاضيهم عن العلوم البيعيّة وغيرها . غير انه فيما اظنّ لم يكن متضلّعاً من السريانيّة اذ عثرتُ في بعض شروحه على اغلاط أذكرُ منها لفظة ܡܢܳܠܗ الواردة في سفر ايوب بضمّ الحاء . وتغليظ التاء . بمعنى نظارتهُ . ففهمها هو ܡܢܰܠܗ بفتح الحاء . وتليين التاء . وشرحها بمعنى آخرته .

وفي هذه السنة زحف جيش عرمرم من الصقالبة اعني الروس الى عاصمة الروم بحرًا وبرًّا وأنجد الله عزّ وجلّ الروم وأضرموا النيران في سفن العدوّ

واحرقوها مع مَن فيها واغرقوهم واوثقوا الكثيرين من عساكر البرّ وبتروا ايديهم اليمنى وانتصروا عليهم انتصارًا باهرًا .

واستفحل في تلك الغضون أمر الدخلاء من الازمن والعرب واليهود في قسطنطينية فثار الوطنيون واحتشدوا بباب بلاط الملك قسطنطين يدّعون بانه فتك بالملكتين ثيودورا وزاوي وحاولوا ان ينهبوا البلاط ودور الزعماء . فاجتمع الملك بالاقطاب واستدعى الملكتين فبرزتا رافلتين بالحلل الملكيّة . وما ان شاهدهما الثوار حتى اطمأنت خواطرهم وكفّوا . ولما بحث الملك عن سبب الفتنة الجوهريّ قيل له . ان الدخلاء أثاروها قصد اجتياح المدينة . فاصدر الأمر بترحيل كلّ من مرّ عليه في العاصمة ثلاثون سنة ويسهل عيني من يبقى منهم فيها . فغادرها حالًا نحو مائة الف نسمة .

وفي السنة ٤٣٦ للعرب (١٠٤٤ م) وجه الخليفة القائم سفيرًا الى طغرل بك في اربع مسائل : الاولى ان امير المؤمنين يقول لك يكفيك ايها الامير طغرل بك محمد ما احتللتهُ من البلاد . فلا تطمعنّ بسائر بلاد ملوك العرب ولا تؤذينهم . والثانية : ان تطيعنا وتحلف لنا شرعاً بانك ان خالفت امرنا لزمك ان تُطلّق نساءك الشرعيّات وتعتق عبيدك وتزكي اموالك كلّها (٢٢٨) . والثالثة : ان تلازم العدل وتحجم عن الظلم ولا تولّ الظلّام شؤون ابناء الرعية . والرابعة : ان تبعث لنا كلّ سنةٍ بجزية البلاد التي اغتصبتها كعادة من سبقك . فاذا نفذت ذلك عززناك بتحفٍ والقابٍ كريمةٍ واصبحت سلطنتك شرعية منزّهة عن الظلم والغدر .

اصغى طغرل بك الى تلك المسائل وقال في الجواب الاول : ان جنودي كثيرون لا تكفيهم هذه البلاد . قال السفير : لانكَ انت أخربتَها . فلو ملكتَ الارض كلّها واخربتَها لَما كفتك وكفت شعبك . وقال في جوابه الثاني : ان هذا النوع من الحلف يكاد يجهله العلماء . فكيف يتيسّر لي التوقّي في تصرُّفاتي الامور الزهيدة ؟ قال السفير : حسبك ان تعرب بكلّ قلبك عن طاعتك وتلزم العدل فلن تزلّ . وقال في جوابه الثالث : اني افرغ الجهد قدر طاقتي في ان الزم العدل في حكمي . ولكن ما حيلتي اذا اذنب احد

الجياع الذين معي ؟ وقال في جوابه الرابع : أطلعني على مقدار الجزية أدفعها ان تيسّر . على ان الحقيقة هي ان طغرل بك لم يقبل مسئلة واحدة من المسائل الاربع .

وفي السنة ١٣٥٦ لليونان (١٠٤٥ م) غرقت بيوت مدينة ارزنجان كلها سوى بيت آل قرياقس السرياني . فاصبح كجزيرة لم تدخله المياه . ذلك لما امتازوا به من الحسنات والتصدّق على الفقراء .

وفي السنة ٤٣٨ للعرب (١٠٤٦ م) دوّخ الغزّ مدينة الحلّة واحرقوها واضطرّوا الاهالي حتى اكتشفوا المطامير كلّها واحتووا عليها وارتكبوا المنكر من النساء والعذارى وانقلبوا .

وفي هذه السنة وجّه مطران النساطرة من سمرقند رسالةً الى الجاثليق تُليت في دار الخليفة منطوقها ان شعباً غفيراً يحاكي الجراد كثرةً اخترقوا ترعةً في جبلٍ ما بين تبت وكوتن (٢٢٩) كان اسكندر الكبير فيما ذكرت الاخبار السالفة قد سدّها فخرجوا ووصلوا الى كشكر يتولّاهم سبعة ملوك مع كل ملك سبعمائة الف فارس . واسم كبيرهم ناصرتُ اعني المسلّط باسم الله . وهم سودٌ كالهنود لا يغسلون وجوههم ولا يمشطون شعورهم لكنهم يضفّرونها كاللبّاد ويتّخذونها بمثابة ترس يحرسهم . وهم مجنكون برمي النشّاب ويكتفون لطعامهم بالقليل العاديّ . وهم رحماء مستقيمون وخيلهم تأكل اللحم .

وعند قراءة الرسالة قال احد الوجهاء العرب : لا يُصدّق أن الحصان يأكل اللحم . فعارضه وجيهٌ ثانٍ وقال : لا يدهشك ذلك فقد شاهدت بعيني حصاناً عربياً يأكل لحماً وسمكاً مطبوخاً . قلنا : لعلّهم ينشّفون اللحم ويدقّونه كالتبن ويلقمونه الخيل . لان الصيد في تلك الاطراف كثير والعشب قليل .

وفي السنة ٤٣٩ للعرب (١٠٤٧ م) ظهر رجلٌ في راس العين اسمه الاصفر ادّعى ان القرآن ذكر عنه انه سيشرّف دين العرب . وتوغّل مرتين يتلصّص ببلاد الروم وغزا غزوةً وانقلب . فكتب ملك الروم الى ابن مروان يقول : بنا ان بيننا وبينك صلحاً وولاء لزمك ان تمنع هذا اللص ان كان من عبيدك . والّا فأفدنا لنعمل ما نرى . فاستدعى ابن مروان بعض الامراء المعدّيين

وقال لهم : يظهر ان هذا الاصفر يحاول ان يحرّش بنا الروم فاذا زحفوا ازعجونا وازعجوكم . فالرأي عندي ان تحتالوا وتقبضوا عليه . فحمل عليه المعدّيون وجعلوا يحذون نشاطه وهمته بشأن العرب . ثم ركبوا وركب معهم وجعلوا يطاردون متفاخرين بفراستهم ربما ابتعدوا عن القرى . ثم اطبقوا عليه ومضوا به الى ابن مروان فاعتقله وسجنه وجدّد الصلح مع الروم .

واستفحل المرض والوباء هذه السنة في كل الاقليم الرابع حتى (٢٣٠) بيعت زهرة النيلوفر بدرهم بغدادي وبيع فرخ الحجل بدرهمين فضّة . ولم يكترث البغداديون للقمح والشعير اصلاً . واشتدّ الجوع والمرض والوباء في الموصل بسبب الجراد حتى بيع كور الحنطة بستين ديناراً

وفي السنة ٤٤٣ للعرب وهي السنة ١٣٦١ لليونان (١٠٥٠ م) وجّه السلطان طغرل بك سفيراً الى ابن مروان صاحب ارمينية في الطاعة لامره . فرحّب به وأدّى له ثلاثين قطعة من القماش الفاخر وخمسمائة دينار وخياماً وعشرة بغال موسقة بضائع وحصاناً عربياً واسيراً من بطارقة الروم كان الروم قرّروا ان يؤدّوا له ثلاثين الف دينار ديةً عنه . ثم قال للسفير : ليس عندي تقدمة اخرى توافق السلطان . فاقتنع بها السفير وعقد معه صلحاً ومرادعة وانطلق .

سمع قسطنطين الملك بما جرى فارسل الى ابن مروان يرغب اليه كي يسعى لانقاذ البطريق وقال له : اني عارف انّ السلطان طغرل بك صاحب مروءة وشهامة وان يمنعه عني ان طلبته باسمي . فكتب ابن مروان الى السلطان فأبدى السلطان شهامةً كبرى ووجه البطريق مع سفير الى قسطنطين دون ان يطالبه بثمنٍ او تعويض . فسُرّ الملك سروراً عظيماً وجدّد مسجد العرب الكبير في عاصمته وعلّق فيه القناديل وأقام له مُصلّين عرباً عيّن لكلّ منهم معاشاً . ثم سيّر الى طغرل بك الف قطعة أطلس وخمسمائة ثوب مختلفة الاشكال وخمسمائة حصان وثلاثمائة جحش مصريّ وألف عنزة عيونها بيضاء وقرونها سوداء وكانها الجحاش ضخامة .

وفي هذه السنة تضايق اهالي اصفهان بسبب محاصرة طغرل بك لمدينتهم

تسعة اشهر فارسلوا يتوسّلون الى خليفة بغداد ليكتب له في الافراج عنهم .
وكان طغرل بك سبق فسأل الخليفة ان يشرّفه بالقابٍ ملكية . فرأى الخليفة ان يتساهل معه وكتب اليه رسالة سيّرها مع سفيره نعَتَه فيها بالملك الشرعي وملاذ المسلمين وركن الدين . وسأله بشأن اهالي اصفهان . وكان السلطان يتوقع مثل تلك النعوت فلبّى طلب الخليفة وارسل اليه عشرين الف دينار باسم خزانته والفي دينار باسم حاشيته . وجعل منذ إذٍ يرسم شكل قوسٍ في طغرائه ويسجّل فيها الطغرائي النعوت المومأ اليها .

وفي السنة ٤٤٣ للعرب (١٠٥١ م) وجه قسطنطين ملك الروم سفيرًا الى القائم خليفة بغداد في رسالة بالرومية تخلّلت سطورها ترجمتها بالعربية . ورُقمت بحروف ذهبية على قطعة ارجوانية افتتحها بهذه العبارة : قسطنطين الملك المؤمن المعظّم القدير بالمسيح الله اغوسطس موناخس الوحيد في دولة الروم . الى الصديق الودود الكريم ابي جعفر إمام المسلمين وامير المؤمنين . الى غير ذلك من عبارات الولاء .

وفي السنة ٤٤٦ للعرب (١٠٥٤ م) اصبحت بلاد فارس جميعها خاضعة للسلطان ركن الدين طغرل بك فوجّه الالحاظ نحو بلاد الروم وزحف الى قلعة منازكرد وضيّق عليها زمناً طويلاً ولم يتمكّن منها فغزا البلد وسار الى ارضروم وهي للروم وغزاها كذلك وعاد ليشتّي في اذربيجان ناوياً العودة ثانية الى بلاد الروم .

وفي كانون الثاني ١٣٦٥ لليونان (١٠٥٤ م) توفيّ قسطنطين الملك زوج ثيودورا وتولّت هي تدبير المملكة سنةً واحدةً ووجّهت سفيرًا الى خليفة بغداد وجدّدت عهود الصلح بجزيةٍ تطوّعت بها .

وفي السنة عينها ارسل السلطان ركن الدين طغرلبك سفيرًا الى الخليفة يقول : اودّ لو احضر الى بغداد واتشرّف بالخدمة النبوية (٢٣٢) ثم احج مكّة واصلّي فيها واقطع دابر المدبّين المتلصصين في طريق الحج ثم أتوجه الى محاربة الخوارج في سورية ومصر ان شاء الله . فكتب له الخليفة على كرهٍ منه كتاباً اثنى على همته في سبيل الدين واستعجله على القدوم الى بغداد . غير

مخطوط قديم ثمين في طب العين

كتاب تذكرة الكحّالين

للعالم العلّامة عيسى بن علي بن جزله

تعريف له

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني

قد رأينا ان ننشر على صفحات المشرق تعريف كتاب خطّيّ ثمين قديم، في امراض العين وعلاجاتها، يسمّى: «تذكرة الكحّالين» تأليف العالم العلّامة عيسى بن علي بن جزله، عثرنا عليه اثناء وجودنا في عيندارا لالقاء رياضة روحية في كنيسة القديس جرجس المارونية، في تشرين الاول سنة ١٩٤٩ عند حضرة الوجيه الصيدلي السيد فارس نمر بدر من عيندارا.

وكتاب تذكرة الكحّالين هذا يقع في ١٦٧ صفحة، مجلّد بجلد احمر وعلى وجهيه نقشة جميلة، مال الى الاسوداد بتقادم الزمن وكثرة تداول الايدي له، وقد مرّت على نسخه ٢٤٠ سنة، وأضيف اليه «صفة ادوية مستعملة في البيمارستان ببغداد» في ٧ صفحات، ثمّ «صفة اكحال واشياف منقولة من كتاب الكافي في امراض العين منقولة بالحرف من غير زيادة ولا نقصان مع حذف بعض نسخ الاكحال» في ٢٠ صفحة، وهي الاخيرة من هذا الكتاب.

وجميع صفحات هذا الكتاب بخط قلم واحد، مكتوب بالحرف العربي بحبر اسود، وعناوين ابوابه بالحبر الاحمر بخط رفيع دقيق، وورقه مائل الى الثخانة. طوله ١٧ سنتيمترًا بعرض ١١ سنتيمترًا، وعرض هامشه ٣ سنتيمترات ونصف سنتيمتر، والصفحة منه تحتوي على ٢٥ سطرًا، والسطر على نحو ١١ كلمة، وهو ثلاث مقالات.

ثم انشأوا سكة دراهم ودنانير باسم سلطانهم . وبعد هذا اضاف السلطان الى ما كان يخصه الديلم والاتراك العبيد بالخليفة من الارزاق خمسين الف دينار وخمسمائة كور حنطة . وأقسم له انه لولا كثرة جيوشه المعززة للدين العربي لردّ اليه كلّ ما كان الاتراك يقبضونه . فطابت نفس الخليفة واحبّ ان يصاهر الغزّ فزُفت اليه خاتون السلجوقيّة ابنة جغري بك اخي السلطان طغرل بك . وشاد لها عنها قصراً بجانب بلاط الخليفة وبعث الخليفة بعرش مذهّب مرصّع بالحجار الكريمة رُكِزَ هناك واستوى عليه السلطان وراح الاقطاب يتوافدون الى زيارته .

(له صلة)

وقد جاء في آخر المقالة الثالثة ما يلي بالحرف الواحد بخط ناسخهِ :

« تمّ الكتاب بأسرهِ والحمد لله حمدًا دائمًا كما هو اهلهُ ومستحقّهُ ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ واصحابهِ اجمعين امين ، على يد الفقير محمد بن عمر الميداني • غفر الله لهُ ولوالديهِ والمسلمين ، في الثالث والعشرين من شعبان سنة ثلاث وعشرون ومائة والف » (الموافقة سنة ١٧١١ م)

وورد على هامش هذه الصفحة مقابل اسم الناسخ ما يلي بالحرف :

« قوبلت تذكرة الكحّالين من اولها الى آخرها على نسخة صحيحة ، ثم قوبلت مرَّةً أُخرى على نسختين والحمد لله وحدهُ » .

وقد استدرك الناسخ ، بعد مقابلته نسختهُ هذه على الاصل ، ما فاتهُ من كلام المتن بان رقمهُ على الهامش بعد ان وضع لهُ علامة .

وكتب على هامش هذه الصفحة بحبرٍ احمر : « سنة ١١٢٣ الموافقة ١٧١١م » وهي السنة التي انتهى فيها الناسخ من نسخ هذا المخطوط .

وعلى هامش صفحة ١٣ : « بلغ مقابلةً » .

وكتب الناسخ اسمهُ ايضاً في ذيل الصفحة التاسعة الاخيرة من صفحات « ادوية يسيرة مستعملة في البيمارستان ببغداد » ، هكذا :

« وقع الفراغ على يد كاتبه محمد ابن الشيخ عمر الميداني في شهر شعبان سنة ثلاث وعشرون ومائة والف ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ واصحابه امين » .

وعُلّقت هذه العبارة على هامش هذه الصفحة مقابل اسم الناسخ وهي :

« قوبلت بحسب الطاقة البشرية من اولها الى آخرها » بمعنى ان هذه النسخة قد قوبلت على نسخةٍ صحيحةٍ . وكتب مرارًا على هامش هذا الكتاب انه : « بلغ مقابلةً » .

وقد خطّ الناسخ هذا ، بعض وصفات تتعلق بالعين على هامش هذا الكتاب وربما كانت من متنهِ .

وجاء في بياض اول صفحة من هذا الكتاب بخط مختلف ، هاتان العبارتان وهما ، الاولى : « ثمّ دخل في ملك الفقير محمد بن عثمان الحكيم من مسوق ماله »

الثانية : « نظر فيه (طالع فيه) موسى جمال الله محمد الطيب عفي عنهُ » .

ثمّ جاء على قفا الورقة الثانية من اول هذا الكتاب: « من كتب الفقير علي بن عبد الرحمن [العثماني] عفى الله عنهُ سنة ١١٧٥ » .

وهذه هي مقدمة الكتاب بحرفها الواحد :

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذه تذكرة الكحّالين للعالم العلّامة عيسى بن علي بن جزلة

جواباً عمّا سألهُ بعض اخوانه في تعريف امراض العين وعلاجاتها وأدويتها . قال :

وصل كتابك ايها الاخ الفاضل ، حفظك الله برأفته ، وأرشدك الى الصواب برحمته ، تسأل عن جوامع كتب جالينوس في امراض العين وعلاج كل مرض منها ، لان الاسكندرانيين ذكروا عدد الامراض ولم يذكروا علاجاتها . وقد رأيتُ ، اسعدك الله ، ان اؤلّف كتاباً في العين اذكرُ فيه جميع ما سألتني عنه باختصار وايجاز ، فان الاختصار اذًا جمع ثلاثة اشياء احدها الاستقصاء في الصفة والثاني الاستتمام للمعنى والثالث الايجاز في الكلام ، كان افادة ذلك ابلغ . وجعلتهُ ثلاثة (ثلاث) مقالات وأسميتهُ تذكرة الكحالين ، لاني بيّنت فيه جميع ما يُحتاج اليه في علاج امراض العين ، وذلك انه قد تدعو الضرورة في بعض الاوقات الى النظر في الكتب الكبار في علاج مرض من الامراض فيُستغنى به عن النظر في الكتب الكبار[1] ، ويصلح ايضاً في الأسفار لانهُ يغني عن حمل الكتب الكثيرة . وقد جمعتُ فيه جميع الطرق الطبيّة المحتاج اليها في علاج امراض العين مع ذكر الدلائل والاسباب والمداوات لجميع امراضها المتشابهة الاجزاء منها والآليّة وما يكون منها من تفرّق الاتصال . واسأل الله عزّ وجلّ اتمام ما ذكرتُ .

١) ان المؤلّف هذا الكتاب المختصر ، كتاباً آخر مطوّلًا يسمّى : « تذكرة الكحالين الكبرى » على ما ورد في ذيل وصفة ذرور انها منقولة عنهُ ، سيأتي ذكرها ؛ لذلك كان هذا الكتاب مختصرًا عن ذاك .

المقالة الاولى اذكرُ فيها حدَّ العين وتركيبها وتشريحها وعدد طبقاتها ورطوباتها واعصابها وعضلاتها وغلظاتها ومن اين نبات كل طبقة منها وابتداؤها والى اين انتهاؤها ، واين موضعها من العين وما منفعتها ، ومن اين يأتي غذاؤها، ولماذا أُعدَّت .

واذكر في المقالة الثانية عدد امراض العين الظاهرة للحسّ واسبابها وعلاماتها ليَسهل ذلك عليك .

واذكر في المقالة الثالثة علل امراض العين الخفيّة عن الحسّ واسبابها وعلاماتها ، ثمَّ حينئذٍ اذكر علاجاتها ونُسخَ ادويتها ، والتقطتُ ما في هذا الكتاب ، من كُتُب الاوائل ولم أُضف فيه شيئاً ، أَلَّفتُهُ من تلقاء نفسي سوى اشيا يسيرة شاهدتُها من شيوخ زماننا وبلوتُها في اعمال هذه الصناعة وذلك بعد ان نظرتُ في كُتُبٍ كثيرةٍ من كُتُب المشهورين بالحذق وخاصةً من كتب الفاضل جالينوس . وتآليفات حنين ايضاً ، نيّح الله تعالى ارواحها ، لانهُ اجتنى نوار جميع الكتب التي وضعها مَن كان من عهد جالينوس وممن بعدهُ من الحذّاق ، واخترتُ منها احسن ما وجدتُ فيها ، وليس هذا مما يعيب ، لان الفاضل جالينوس أَلَّف في كتبهِ من قول ديسقوريدوس ، وهكذا جعل ابن سرافيون اشياء كثيرة من قول قولس ، وجعلتُها اصلاً ودستوراً لكتابي هذا، وجعلتُ ذلك ابواباً ليسهل عليك طلب ما تحتاج اليه . وبالله المعونة والتوفيق.

واليك ابواب مقالات هذا الكتاب الثلاث :

المقالة الاولى : واحد وعشرون باباً

الباب الاول : في حدّ العين . الباب الثاني : في منفعة العين وفعلها . الباب الثالث : في طبع العين ومزاجها . الباب الرابع : اذكرُ فيه من كم سبب تكون العين كحلا . الباب الخامس : اذكر فيه من كم سبب تكون العين زرقاء . الباب السادس : اذكر فيه كم هي طبقات العين . الباب السابع : اذكرُ فيه كم هي رطوبات العين واعصابها وعضلاتها . الباب الثامن :

اذكرُ فيهِ امر الرطوبة الجليديَّة وما فعلها . الباب التاسع : اذكرُ فيهِ امر الرطوبةِ الزجاجية ومنفعتهُ بهِ . الباب العاشر : اذكر فيه حال الطبقة الشبكيَّة وما منفعتها . الباب الحادي عشر : اذكر فيهِ امر الطبقة المشيميَّة ومن اين نباتها . الباب الثاني عشر : اذكرُ فيهِ الطبقة الصلبية . الباب الثالث عشر : اذكر فيه امر الطبقة العنكبوتيَّة وما فيها . الباب الرابع عشر : اذكر فيهِ امر الرطوبة البيضيَّة ومنفعتها . الباب الخامس عشر : اذكر فيهِ امر الطبقة العنبيَّة . الباب السادس عشر : اذكرُ فيهِ امر الطبقة القرنية . الباب السابع عشر : اذكرُ فيهِ امر الطبقة الملتحمة . الباب الثامن عشر : اذكرُ فيهِ كم عدد عضل العين ورباطهُ واين مواضعهُ . الباب التاسع عشر : اذكرُ فيه امر العصب النُوري والعصب المتحرك للعين وكيف يكون منشأهما . الباب العشرون : اذكر فيهِ من اين ابتدأ الروح النفساني وكيف يكون تولدهُ وكيف يكون به البصر . الباب الحادي والعشرون : اذكر فيه حال الاجفان والشقيقة .

المقالة الثانية : ثلاث وسبعون باباً

اذكرُ فيها امراض العين الظاهرة للحسّ واسبابها وعلامة كل مرض منها وعلاجها .

الباب الاول : اذكرُ فيه اصول ودستورات يُدلّ عليها في علاج امراض العين . الباب الثاني : اذكر فيهِ القوانين الذي يجب على الطبيب استعمالها عند كل استقراء . الباب الثالث في عدد امراض الجفن وهي اثنان وثلاثون مرضاً . الباب الرابع : في امراض الجرب وعلاجهِ . الباب الخامس : في البَرَدة وعلاجهِ . الباب السادس : في التحجر وعلاجهِ . الباب السابع : في الالتصاق وعلاجهِ . الباب الثامن : في انواع الشترة وعلاجهِ . الباب التاسع : في الشعيرة وعلاجهِ . الباب العاشر : في الشعر الزائد وعلاجهِ . الباب الحادي عشر : في انقلاب الشعر وعلاجهِ . الباب الثاني عشر : في انتثار الهدب وعلاجهِ . الباب الثالث عشر : في بياض الهدب وانتثار الحواجب وعلاجها . الباب الرابع عشر : في القمل والقمقام والقردان وما اشبه ذلك وعلامتهِ .

الباب الخامس عشر : في انواع الوردينج وعلاجه . الباب السادس عشر : في السلاق وعلاجه . الباب السابع عشر : في الحكّة العارضة للجفن وعلاجها . الباب الثامن عشر : في الجسا العارضة للجفن وعلاجها . الباب التاسع عشر: في الغلاظ العارض للجفن وعلاجه . الباب العشرون : في الدمّل العارض للجفن وعلاجه . الباب الحادي والعشرون : في الشرناق وعلاجه . الباب الثاني والعشرون : في التوتة العارضة للجفن . الباب الثالث والعشرون : في الكمنة العارضة للجفن . الباب الرابع والعشرون : في الشري العارض للجفن . الباب الخامس والعشرون : في النملة الحادثة للجفن . الباب السادس والعشرون : في السعفة العارضة للجفن . الباب السابع والعشرون : في الثآليل العارضة للجفن. الباب الثامن والعشرون : في الانتفاخ العارض في الجفن . الباب التاسع والعشرون : في انأكُل والقروح العارضة في الجفن . الباب الثلاثون : في السلع العارضة في الجفن . الباب الحادي والثلاثون : في استرخاء الجفن . الباب الثاني والثلاثون : في موت الدم والخضرة في الجفن . الباب الثالث والثلاثون : في عدد امراض المآق . الباب الرابع والثلاثون : في الغرب وعلاجه . الباب الخامس والثلاثون : في الغدّة وعلاجها . الباب السادس والثلاثون : في السيلان وعلاجه . الباب السابع والثلاثون : في عدد امراض الملتحمة . الباب الثامن والثلاثون : في انواع الرمد وعلاجه . الباب التاسع والثلاثون : في الطرفة وعلاجاتها . الباب الاربعون : في علاج ما وقع في العين . الباب الحادي والاربعون : في الظفرة وعلاجها . الباب الثاني والاربعون : في الانتفاخ العارض للملتحمة . الباب الثالث والاربعون : في الجسا العارض للملتحمة . الباب الرابع والاربعون : في الحكّة العارضة للملتحمة . الباب الخامس والاربعون : في السبل وعلاجه . الباب السادس والاربعون: في الودقة وعلاجها . الباب السابع والاربعون : في الدمعة وعلاجها . الباب الثامن والاربعون : في الدبيلة العارضة للملتحمة . الباب التاسع والاربعون : في التوتة الحادثة في الملتحمة . الباب الخمسون : في علاج اللحم الزائد . الباب الحادي والخمسون : في تفرّق الاتصال العارض للملتحمة . الباب الثاني والخمسون : في

المقالة الثالثة : سبعة وعشرون باباً

اذكرُ فيها امراض العين الخفيّة عن الحسّ واسبابها وعلامة كل مرض منها وعلاجاتها

وفي من يرى ما صغر ولا يرى ما كَبُرَ. الباب السابع في العشى وهو الشنكره ، وهو من يبصر نهارًا ولا يبصر ليلًا . الباب الثامن في الجَهَر وهو الزمدكور، وهو من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار . الباب التاسع في عدد امراض الرطوبة الزجاجية وعلاجها . الباب العاشر في امراض الطبقة الشبكيَّة . الباب الحادي عشر في عدد امراض العَصَب الاجوف النُوري . الباب الثاني عشر في امراض الانتشار وعلاجه . الباب الثالث عشر في السدَّة والضغط والورم الذي يعرض في العصب النُوري وفي علاجه . الباب الرابع عشر في تفرُّق الاتصال الحادث للعصبيَّة . الباب الخامس عشر في علل العضلات الثلاث التي في فم العصبية النُورية . الباب السادس عشر في علاج نتوء جملة العين وهو جحوظها الى الخارج . الباب السابع عشر في علاج هزال العين . الباب الثامن عشر في امراض الطبقة المشيميَّة . الباب التاسع عشر في امراض الطبقة الصلبية. الباب العشرون في امراض العضل المحرِّك للعين . الباب الحادي والعشرون في علاج الحَوَل . الباب الثاني والعشرون في ضعف البصر وعلاجه . الباب الثالث والعشرون في حفظ صحَّة العين . الباب الرابع والعشرون في الصداع والشقيقة التابعة لوجع العين . الباب الخامس والعشرون في سلّ شريان الصدغين وقطعها وكيّها . الباب السادس والعشرون في علاج المواد المنحدرة الى العين . الباب السابع والعشرون في قوى الادوية المفردة المستعملة في علاج العين .

واننا ننقل امثلة من هذا الكتاب الخطي ، نقدمها لقرَّاء مجلَّة «المشرق» عامَّةً وللاطباء العين خاصةً ليقفوا على سياق هذا الكتاب ونهجه وليتحققوا ان الطب العربي القديم كان يأتي بالطرائف والبدائع ، وان العرب لم يدعوا فنًّا وعلمًا من العلوم الّا ومارسوه وبرعوا فيه ونشروا عوارفهُ ومعارفه وقدَّموا حقائق ساطعة على حذقهم وذكائهم وتضلعهم منهُ . ولا يخفى ان بعض وصفات الطب العربي هي اسدّ واسرع الى شفاء كثير من الامراض من وصفات الطب الغربي الذي يقف عندها عاجزًا ومقصّرًا كما دلَّنا على ذلك الامتحان والاختبار[1]

---

١) لديَّ مجموعة طبيَّة خطيَّة نفيسة ، تشتمل تقريبًا على ذكر جميع الامراض وعلاجاتها ، قد انتقيتُ وصفاتها من عدة كتب طبية عربية خطية نادرة الوجود ، واثبتُّ

وكثيرون يعرفون هذه الحقيقة ويعلنونها بدون تهيّب او تحرُّج، جرياً على هذه القاعدة الذهبية : عند الامتحان يُكرم المرء او يُهان .

وهاك الامثلة من هذا المخطوط الثمين :

المقالة الاولى

جاء في اولها ما يلي : انه قد يجب على مَن اراد ان يداوي العين مداواة صواب ، ان يكون عارفاً بحدّ العين وطبيعتها ، وذلك لان نفي العلل عن كل عضو انما يكون بردّه الى طبيعته التي خرج عنها ، ولذلك صار غرض الطبيب من الطب حفظ الصحة الموجودة او ردّ صحة قد فُقدت ، ولذلك ابتدأتُ بحدّ العين .

الباب الاول : في حدّ العين

أمّا حدُّها ، فانهُ عضوٌ حسّاس كمّلته الطبيعة لحسن البصر . وقال آخر : انها عضوٌ حسّاس الى باصر . مركّب من طبقات ورطوبات واغشية ورباطات وأوراد واعصاب وعضلات وشريانات .

فهذه هي أتمّ حدودها وأكملها . وكل شيء يُحدُّ بحدّين جوهريٍّ وعرضيّ . وهذا حدُّها الجوهري .

الباب الثاني : في منفعة العين وفعلها

أمّا منفعة العين فهي ان ترقى البدن من الآفات الواردة عليها من خارج وترشده حيث بــه طبيعته وأحبّ ، ولذلك جُعلت في أعلى البدن كالحافظ للبستان . وأمّا فعلها فليحسّ الالوان والاشكال والاجسام ما عظم منها وما صغر .

فيها وصفات علاجات جرّبة التقطها ممن امتحنوها بانفسهم وصحّت معهم . وهذه المجموعة تقع في نحو ١٣٠٠ صفحة ، وكلها بخط يدي . وقد طلب المرحوم ريشا قرتناز ، في المالمتين ، جونية ، ان يبتاعها مني بألف لبرة لبنانية ، فأحببتُ ان احتفظ بها في خزانة كتبي كأثر خطيٍّ نفيس .

الباب الثالث : في طبع العين ومزاجها

أمَّا طبع العين الخاص فيها فحارٌّ ، وأمَّا مزاجها الطبيعي فرطبٌ ، وذلك نشوها من الدماغ وهي لذلك رطبة . وأمَّا حرارتها فلكثرة ما يخالطها من العروق والشرايين وهي لذلك سهلة الحركة ، وقد يغلب على مزاجها البرودة ولكن الاشبه ان به البرودة عرضية لا اصلية ، ولكن ليس هو بالطبع الخاص بها . ومما يُستدلُّ بهِ على مزاج العين انه حارٌّ ، بسرعة حركتها وسعة عروقها ويكون لونها احمر وملمسها حارًّا . فأمَّا أبا بردة المزاج فانه يستدل عليها بابطاء حركتها وضيعة العروق ويبس ملمسها . وكذلك يُستدل على رطوبة مزاج العين بلين ملمسها وكثرة رطوبتها . وكذلك يستدل على يبس مزاجها بصلابة ملمسها وتكون يابسة جافة . وقد يُستدل ايضاً على مزاج العين بلونها ، فان العين الزرقاء اقلُّ حرارة ، وهي الى البرودة أميل وأقلُّ رطوبةً واكثر يبساً ، ولذلك يُبصَر بالليل لِمَا يُرطّب العين عند برودة الهواء . ومما يدل على ان العين الزرقاء باردة المزاج مثل أعين الصقالبه باردة ، لان الغالب على بلادهم ومزاجهم البرودة ، فأعينهم زرق . ومما يدلُّ ايضاً على ان العين الزرقاء باردة المزاج ما يعرض للمشايخ (الشيوخ) من زرقة العين اذ غلب على مزاجهم البرد واليبس.

وأمَّا العين الكحلاء فهي اكثر حرارة واكثر رطوبة ، ولذلك اكثر ما يعرض لها علل البخارات وعلل الماء لكثرة حرارتها ورطوبتها . وكلما كانت العين أشدَّ سواداً كانت اكثر حرارةً ورطوبةً ، والدليل على ذلك أعين الحبشة وسوادها ، فالغالب على بلادهم ومزاجهم الحرارة .

وأمَّا العين الشهلاء والشهلاء فانها معتدلتا المزاج .

الباب الرابع : اذكر فيه من كم سبب تكون العين كحلاء

تكون العين كحلاء من سبعة اسباب وهي : إمَّا من نقصان الروح الباصرة ، وإمَّا من كدورته ، و إمَّا من صغر الرطوبة الجليدية ، و إمَّا من انخفاضها ، و إمَّا من كثرة الرطوبة البيضيَّة ، و إمَّا من كدورتها ، و إمَّا من شدة اسوداد الطبقة العنبيَّة .

الباب الخامس : اذكر فيه من كم سبب تكون العين زرقاء

العين الزرقا. تكون ايضاً من سبعة أسباب، وهي ضد الاسباب الاولى المذكورة في الكحل . وهي : كثرة الروح الباصرة، وصفائها، وعظم الرطوبة الجليدية، وجحوظها، ونقصان الرطوبة البيضيّة، وصفائها، ونقصان سواد الطبقة العنبيّة .

وأمّا العين الشهلا. والشهلا. فانه اذا التأمت بعض الاسباب الفاعلة للكحولة مع بعض الاسباب الفاعلة للزرقة كان ما ذكرت، واللون الأشعل يدلُّ على ان الروح الباصرة اكثر صفاء منهُ مع الاشعل، وان اخذتُ اوسع القول في امثال هذه الاشيا. طال الكلام وكبر الكتاب وهو يختصر، فيجب ان ابتدى. بالقول في طبقات العين .

الباب السادس : اذكر فيه كم هي طبقات العين

اعلم ان العين مركّبة من سبع طبقات . الطبقة الاولى يقال لها الصلبيّة وهي لاصقة بالعظم . والطبقة الثانية يقال لها المشيميّة . والطبقة الثالثة يقال لها الشبكيّة . والطبقة الرابعة يقال لها العنكبوتيّة . والطبقة الخامسة يقال لها العنبيّة . والطبقة السادسة يقال لها القرنيّة . والطبقة السابعة يقال لها الملتحمة.

وقد اختلف قومٌ في عددها وذلك في اللفظ لا في المعنى، ولكنّ قوماً قالوا انها ستّ طبقات، وذلك انهم لم يروا ان يسمّوا الطبقة الشبكية طبقةً، وذلك انهم احتجّوا بان قالوا : ان الطبقة منفعتها ان تؤتى ما هي عليه مطبقة، وليس الشبكية كذلك . واحتجّوا بحجّة أخرى وذلك انهم قالوا : انا أُعدّت لتغذية العين فقط، وقومٌ زعموا انها خمس طبقات، وذكروا ان الغشاء الذي على نصف الجليديّة ليس بطبقةٍ لسببين ايضاً وذلك انهم قالوا انها جزءٌ من من الجليديّة لا من غيرها . والثاني انهم قالوا ان ما يغشى الجليديّة وما لا يغشى الكل لا يقال له طبقة. فأما الذين قالوا انها اربع طبقات فانهم لم يروا ان يسمّوا الملتحمة طبقةً لعلّتين احداهما لانها شبيهة بالرباط للعين . والثاني (والثانية) انها لا تغشى العين ولا تنطبق عليها فلا يقال لها طبقة . وأمّا الذين قالوا انها ثلاث طبقات فانهم زعموا ان العنبيّة والمشيميّة طبقة واحدة . وأما الذين قالوا ان طبقات

العين طبقتان ، نزعموا ان القرنيَّة والصلبيَّة واحدة . وأمَّا جالينوس وشيعتهُ فانهم يقولون إنَّا نعدُّها سبع طبقات ونجعل قشرات القرنيَّة الاربع ايضاً طبقات.

الباب السابع : اذكر فيه كم هي رطوبات العين واعضاؤُها وعضلاتها

أمَّا رطوبات العين فانها ثلاث وهي : الزجاجيَّة ، والجليديَّة ، والبيضيَّة . وأمَّا عضلاتها فتسع وسوف اذكرها في مواضعها ان شاء الله تعالى لان بها يكون البصر وباقي اجزاء العين .

الباب الثامن : اذكر فيه امر الرطوبة الجليدية

واذ قد تكلمتُ عن عدد طبقات العين ورطوباتها ، فنأخذ الان في بيان كل واحد منها ، وما منفعتها ، ومن اين يأتي غذاؤها ، فابتدئُ بالرطوبة الجليديَّة اذ كانت اشرف اجزاء العين لان بها يكون البصر ، وباقي اجزاء العين انما أُعدَّت لتخدم تلك الرطوبة الشريفة ، إمَّا لتدفع عنها آفةً ، وإمَّا لتؤدي اليها منفعةً . فأمَّا هيئتها فاقول : انها بيضاء صافية نيِّرة مستديرة وليست بمستحكمة الادارة بل فيها عرضٌ يسير . وأمَّا موضعها في وسط العين كنقطة توهمتها في وسط كُرَة . وأمَّا بياضها ونورها فيقبل الاستحالة من الالوان والاشكال، والدليل على ذلك ان الشيء الابيض الصافي النيّر كالزجاجة الصافية والبلورة يسرع اليها قبول الالوان . وأمَّا استدارتها قليلًا فلئلا تسرع اليها الآفات ، وذلك ان كل شيء سوى المستدير تسرع اليه الآفة لِما فيه من الزوايا . والدليل على ذلك دوام سلامة الفلك فانهُ لا تلحقهُ الآفات لِما قد عدم الزوايا . فأمَّا عرضها فلتلقى من المحسوس اجزاءً كثيرةً ، وذلك انهُ لو كانت مستحكمة الادارة او دقتها لَما لقيَ منها المحسوس إلَّا شيئًا يسيرًا . فأمَّا الشيء المسطَّح فانهُ يلقى (يتلقى) ممَّا ماسَّهُ اكثر مما يلقى (يتلقَّى) من الشيء الكروي . فأمَّا الدليل على ان موضع الجليديَّة في وسط العين كما ذكرتُ ، وذلك ان جميع ما في العين انما خُلق ليدفع عنها آفةً . أمَّا ليؤدّي اليها منفعة ، مثال ذلك ان الرطوبة الزجاجيَّة تغذّيها ، والطبقة القرنيَّة تدفع عنها الآفات الواردة عليها من خارج ، ولذلك احاطت بها الاجزاء من كل جانب

وصارت في الوسط . والدليل على ان بها يكون البصر لا بغيرها من اجزاء العين، ان الماء اذا حال بينها وبين المحسوس بطل البصر، فاذا أُزيل عنها بالقدح عاد البصر . وأمّا طبعها فباردة يابسة وهي كالجامد . وأمّا غذاؤها فمأتيّها من الرطوبة الزجاجيّة ولذلك جُعلت . وساذكر برهان ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى .

الباب التاسع : اذكر فيه الرطوبة الزجاجية وما منفعتها

واذ قد اتصل القول بالرطوبة الزجاجية، فابتدئ بما خلف الرطوبة الجليديّة فاقول : ان خلف الرطوبة الجليديّة ، الرطوبةُ الزجاجية وهي بالقرب منها ، وطبعها الى الحرارة أُمَيل قليلًا وهي كالزجاج الذائب ، ولونها ابيض يضربُ الى اللون الأدكن ، وان احتيج اليها لسببين ، احدهما ان يؤدي الى الرطوبة الجليديّة غذائها ، والسبب في تغذيتها ان كل عضو من اعضاء البدن لا بدَّ لهُ من غذاء يخلف عليه عوضاً عما يُحلّل منهُ بالحرارة الغريزيّة التي من داخل وحرارة الهواء من خارج فهو مضطرٌ لا محالة الى ما يخلف عليه عوضاً عمّا يتحلّل منهُ بالحرارة ، ولا يخلف عليه ما يتحلّل منهُ إلّا ما كان شبيهاً بما تحلّل منهُ وذلك شبيه بطبيعة العضو ، وأسرع الشيء استحالةً الى الشيء الذي يميل اليه ما كان قريباً من طبيعته ولان الرطوبة الجليديّة احتاجت لا محالة الى غذاء وكانت على ما وصفت من البياض والصفا، لم يمكن ان يكون غذاؤها من الدم بالتوسط ولو كان يجيئها الغذاء من الدم بغير متوسط كأن يعرض للانسان ان يرى في كل وقتٍ تغتذي الجليديّة بالدم ، الاشياء كلها بلون الدم فاحتاجت الى متوسط يُحيل الدم الى طبيعتها التي هي عليه الجليديّة ، وذلك المتوسط هي (هو) الرطوبة الزجاجية لانها أقرب الى البياض وأنقى من سائر الطبقات التي من داخل . ولهذا السبب قربت من الجليديّة وصارت مماسّة لها فصارت الجليديّة مغرقةً فيها الى نصفها بمنزلة كُرَةٍ توهمتها قد غرق نصفها في ماء . والسبب الثاني في بياضها ايصالها النور الى الجليديّة[1] . وأمّا غذاؤها ، اعني الزجاجية ، فانهُ يأتيها من الطبقة الشبكيّة التي تحويها . فهذا ما يجب ان اذكرهُ في الرطوبة الزجاجيّة .

---

۱) ان يوصّل النور الى الجليديّة (عن الهامش)

الباب العاشر : اذكر فيه الطبقة الشبكية ومنفعتها .

أمّا الطبقة الشبكيّة فانها مؤلفة من شيئين ، احدهما من العصبيّة المجوّفة ، والثاني من عروق وأوراد ، وطبعها معتدل وهي اقلّ حرارةً من المشيميّة وألين . وأمّا نباتها فمن طرف العصب الاجوف التي تجري فيها الروح النفساني اعني من ذاته ، وان هذا العَصَب اذا صار الى وراء الرطوبة الزجاجية وقف هناك واستدّ من الغشاء الرقيق الذي عليه عروق دقاق (دقيقة) فتلك العروق اذا انتهت اليه احاطتهُ وتقسّمت منهُ بعروق أُخرى دقاق كثيرة ومازجت ذات العصب ثمّ يشتبك به بعضها ببعض فيصير منها الطبقة الشبكية التي لا تبلُ الزجاجية والملتحمة في النصف من الجليديّة على هذا المثال . ولها منفعتان احدها (احداها) انها تغذّي الرطوبة الزجاجية بما فيها من الأوراد والعروق . والأخرى انها تؤدي القوّة الباصرة الى الجليديّة بما فيها من العصب بتوسُّط الزجاجيّة ، فلذلك صارت ماسّة لها . وأمّا غذاؤها فمن الطبقة المشيميّة .

الباب الحادي عشر : اذكر فيه امر الطبقة المشيميّة ومن اين نباتها

انّ على الدماغ غشائين يسمّيها اليونانيّون ملحسين ، احدها رقيقٌ لينٌ ومنفعتهُ تغذية الدماغ بما فيه من العروق والأوراد . والآخر غليظٌ صلبٌ على القحف ، ومنفعتهُ ان يوقي الدماغ من العظم ، وكل عصبة تخرج من الدماغ فهي مغشّاةٌ بكلا الغشائين الى ان تخرج من العظم ، وكذلك تجد العصبة المجوّفة المؤدية الى العين حسّ البصر مغشّاةً بهذين الغشائين ومنفعتها لها ان الباطن الى العين منها يغذو (يغذّي) العصبيّة الباصرة والظاهرة بتوقيها من عظم الرأس حتى اذا برزت العصبة من العظم الذي هو فيه فارقت بعضها بعضاً فصار من تلك العصبة الطبقة الشبكيّة على ما بيّنتُهُ قبل (قبلًا) فصار من ذلك الغشاء الرقيق الذي يليه، طبقةٌ يقال لها المشيميّة . وانما سُمّيت بهذا الاسم لانها تشتمل على ما تحويه وتلتحم به في الموضع الذي تلتحم فيه الشبكيّة على النصف من الجليديّة .

وأمّا طبعها فالى الحرارة والرطوبة أميَل والى اللين اكثر . ولها منفعتان ، احداها انها تغذّي الشبكيّة . والثاني (والثانية) انها توقيها من الآفات التي ترد

عليها من خلفها. واحتيج اليها ايضاً لمنفعة ثالثة وهي ان يُلطِّف الدم فيها ويرق ثم يدفع به الى الشبكيّة ثم يُلطَّف هناك ايضاً ويُرَقّق ثم يُدفع الى الزجاجيّة ثم يُلطَّف من الزجاجيّة فيرق فيندفع به الى الجليديّة . وأمّا غذاؤها فمن العروق التي فيها .

الباب الثاني عشر : اذكر فيه امر الطبقة الصلبيّة

أمّا الطبقة الصلبيّة فان نباتها وابتداءها من النشاء الصلب الذي يلي العصبة المجوّفة . وطبعها بارد يابس ولونها ابيض . ومنفعتها ان توقي العين من العظم الذي هي فيه لئلا تضر بها صلابته وخشونته، وهي كالرباط للعين من داخل مثل الطبقة الملتحمة من خارج .

وأمّا غذاؤها فهو النشاء الذي نباتها منه . فهذا ما امكن شرحه من امر الطبقات الثلاث والرطوبة الذي (التي) من وراء الجليديّة، على غاية ما قدرت عليه من الاختصار . فأبتدئ الان بعون الله عزّ وجلّ بصفة الطبقات والرطوبة التي قدّامها فاقول :

الباب الثالث عشر : اذكر فيه امر الطبقة العنكبوتيّة

اعلم ان قدّام الرطوبة الجليديّة، نصف طبقة يقال لها العنكبوتيّة لانها شبيهة بنسيج العنكبوت . ونباتها من الرطوبة الجليديّة . وقوم ذكروا انها من الشبكيّة، ولونها ابيض مصقول شديد الصقالة ولذلك اذا أُحدق (حُدّق) بانسان الى العين يرى صورة شخص انسان في العين لانه يرى وجهه في صقالها وصفائها .

وأمّا طبعها فبارد يابس وهي اقلّ يبساً من الطبقة العنبيّة . فأمّا غذاؤها فمن الرطوبة الجليديّة . ولها ثلاث منافع، احداها انها تحجز بين الرطوبة الجليديّة وبين الرطوبة البيضيّة لئلا تختلطان . والثانية ان توقي الرطوبة الجليديّة من العلل التي تعرض للبيضيّة . والثالثة انه كلما غلب على الجليديّة فضل (فضلة) غذاء دفعته الى العنكبوتيّة، فمنه (فمنها) غذاؤها .

الباب الرابع عشر : اذكر فيه حالة الرطوبة البيضيّة

أمّا الرطوبة البيضيّة فانها قدّام العنكبوتيّة وهي ذائبة شبيهة ببياض البيض الرقيق ولونها ابيض . وأمّا طبعها فبارد رطب . وأمّا غذاؤها فمن الطبقة العنبيّة . ولها اربع منافع اخدها (احداها) ان توقي الجليديّة وتسديها

وثائق تاريخية عن المجمع اللبناني

مقال الاب اغسطينوس تشاسكا (تابع)

بقلم الخوري باخوس الفغالي

المأذون في اللاهوت

والدكتور في الحق القانوني، والمحامي الروتالي

في الطبعة اللاتينية

٢٥) وكانت الطبعة العربية المذكورة متداولة في لبنان. وهي الطبعة الوحيدة التي صدرت الى الآن. ولم يتوصل مجمع البروبغندا الى الحصول عليها قبل سنة ١٨٣٤[1]. اما في روما فكان يعتبر كنسخة شرعية للمجمع المذكور سابقاً المخطوط اللاتيني الذي اتى به السمعاني[2]. وقد دُفع للطبع لاول مرة سنة ١٨٢٠ وذلك بامر المجمع المقدس الصادر في السنة السابقة. وكانت بمسائل شديدة الخطورة عُرضت على نفس المجمع ليبحث فيها، بعد انعقاد المجمع اللبناني

١) حاشية المؤلف: راجع الملحوظة الخزانية المضمومة الى تلخيص كانون الثاني ١٨٨٢ صفحة ٢٣

٢) حاشية المؤلف: راجع المقطع الحادي عشر (من هذا المقال)

Dell' edizione latina

25. Intanto che nel Libano circolava l'edizione araba suddetta, la quale è l'unica che sia stata fatta finora, e di cui la Propaganda non venne in possesso prima del 1834 (*Nota di Archivio annessa alla Ponenza di Gennaro* 1882 p. 23), in Roma si teneva per norma, come *copia autentica* del Prefato Sinodo, il manoscritto latino portatole dall'Assemani (§. 11), il quale non prima del 1820 fu messo a stampa per ordine della S. C. dato nell'anno antecedente. Molte questioni anche gravissime erano state agitate avanti la stessa S. C. dopo la celebrazione e conferma del Sinodo Libanese. Una di queste, che allo scopo di cui si tratta giova ricordare, fu proposta li 13 Settembre 1819 *Sull'appello dei Vescovi Maroniti contro il loro Patriarca*; e *risposta del medesimo con altri an-*

وتثبيته، منها المسألة الآتية التي لا تخلو اعادتها من فائدة لما نبحث فيه. وهي تتعلق باستغاثة اساقفة الموارنة على بطريركهم وبجواب البطريرك وبغيرها من من الامور العائدة الى ذلك، وقد عرضت في الثالث عشر من ايلول ١٨١٩.
وعلى السؤال الاول: «اي اعتبار ينبغي ايلاؤه للشكايات المبرزة على البطريرك الماروني وتبرئته نفسه. وما التدبير الواجب اتخاذه لمنعه من تجاوز حدود سلطته» اجاب المجمع المقدس: «ينبغي ان تكتب رسالة عامة الى البطريرك ورؤساء اساقفة واساقفة الطائفة المارونية تحثهم على العمل بموجب المجمع اللبناني المنعقد ١٧٣٦. ورسالات خاصة الى كل من القاصد الرسولي والبطريرك والاساقفة بما يعتبر موافقاً لمضمون السؤالات التالية. ويجب ان تطبع في مطابع المجمع المقدس النسخة اللاتينية للمجمع اللبناني الموجودة في خزانة المجمع المقدس.»

٢٦) اما سبب ذلك القرار فلا سبيل الى استخراجه الا من ملحوظة خزانية ملحقة بالتلخيص المذكور. وينسب كاتب الملحوظة هذه كل بلبلات الكنيسة المارونية الى عدم العمل بموجب المجمع اللبناني. ويختم كلامه هكذا: «يبدو اذن ضرورياً لاعادة السلام والنظام والخضوع المتبادل الى تلك الطائفة ان تشدد نيافاتكم الاوامر للكنسيين على اختلاف درجاتهم ليعودوا بكليتهم الى العمل بموجب مجمعهم اللبناني. لانه يظهر من حركاتهم نفسها ومن تشبثهم

---

nessi. Nella quale al 1º. dubbio «Qual ragione debba aversi tanto delle accuse dedotte contro il Patriarca dei Maroniti, quanto delle sue discolpe, e quale provvidenza adottarsi per impedire, ch'egli non trascorra i limiti della sua autorità». La S. C. rispose «Scribantur litterae Encyclicae Patriarchae, Archiepiscopis, Episcopis nationis Maronitarum super accuratissima observantia Synodi Libanensis habita (sic) anno 1736; nec non litterae particulares Delegato Apostolico, Patriarchae et Episcopis ad opportunitatem, prout in sequentibus dubiis expedire videbitur. *Et typis S. C. publicetur exemplar Latinum ejùsdem Synodi, qui extat in archivio S. C.* »

26. Qual fosse il motivo di tale disposizione non potrebbe rilevarsi, che da una Nota di Archivio che accompagnava la detta Ponenza. Nella qual Nota dopo essersi detto, doversi ripetere dall'inosservanza del Sinodo Libanese tutti i disordini della Chiesa de' Maroniti, si concludeva così: «Parebbe dunque necessario per richiamare in quella nazione la pace, l'ordine e la vicendevole subordinazione, che l'EE. VV. inculcassero e prescrivessero

انهم لا يعيرونه حالياً اقل اهتمام او على الاكثر انهم يؤولونه كما يشاؤون . وذلك مما يدعم الظن بانه بعد مضي ثمانين سنة تقريباً لم يبق لديهم منه نسخة واحدة شرعية . واذا وُجدت فانها محرَّفة بمعظمها . ويبدو ضرورياً كل الضرورة لازدهار النظام القديم واتحاد نفوس اولئك الكنائسيين المختلف بعضهم مع البعض ان يعاد طبع المجمع اللبناني المذكور وان ترسل منه نسخات مع الامر بان يُعمل بموجبه بكل دقة . ويمكن ان يكون هذا الطبع نبراساً لنيافتكم[٣] عندما يتوجب عليكم البحث في قضايا هذه الطائفة » . ويحتوي مجمل هذا التلخيص على دليل لهذه الفائدة الاخيرة لانه طُبع فيه ٥٤ صفحة تشتمل على بعض ابواب المجمع المتعلقة بها المسائل المبحوث فيها وذلك (كما قال حافظ الخزانة) ليتمكن الآباء السامي احترامهم من مطالعتها مطبوعة .

٣) حاشية المؤلف : يقال في احدى الملحوظتين الخزانيتين الواردتين في المجمل صفحة ٩٨ : « لقد تقرر طبع المجمع المذكور سابقاً في الاجتماع المنعقد في الثالث عشر من ايلول سنة ١٨١٩ . . . لانه كان معلوماً ان تلك الطائفة تتداول عدة نسخات مختلفة فيما بينها ومحرفة اقسام عديدة منها . » ولكن هذا السبب لا دليل عليه البتة . وعدا عن ذلك فلا اثر له في تلخيص سنة ١٨١٩ .

a quegli Ecclesiastici di ogni ceto, che onninamente tornassero alla primitiva osservanza del loro Sinodo Libanese. E siccome dalle medesime loro mosse e procedere si scorge chiaramente, che ora non ne fanno conto veruno o al più lo interpretano a loro capriccio, può dubitarsi fondatamente, che dopo il lasso di circa ottanta anni non siane rimasto fra loro alcun autentico esemplare, o se alcuno ve n'è, sia restato nella massima parte corrotto. Per far dunque rifiorire l'antica disciplina e riunire gli animi di quegli Ecclesiastici tanto fra loro discordi, sembra onninamente necessario di far nuovamente stampare il detto Sinodo Libanese, e trasmettere colà degli esemplari, ordinandone la precisa osservanza: tale stampa potrebbe altresì servire di lume all'EE. VV all'occasione di dover trattare affari di quella Nazione» [1]. E di questo ultimo vantaggio si aveva prova nel Sommario della stessa Ponenza, perchè vi furono stampati in 54 pagine varî capitoli del Sinodo ai quali si riferivano le questioni

(1) *In una delle due Note di Archivio riportate in Sommario p. 98 si dice, che « Nell' adunanza generale del 13 Settembre 1819 fu decretata la stampa del suddetto Sinodo...perchè si sapeva che diverse copie in molte parti alterate e fra loro discordanti circolavano presso quella nazione.» Ma di tale ragione, che altronde non ha riscontro nella relativa Ponenza del 1819, non si reca prova veruna.*

٢٧) اية نسخة مخطوطة دفع المجمع المقدس للطبع ؟ ان القرار[٤] المتعلق بذلك يقول :« المجمع ذو النسخة الوحيدة باللغة اللاتينية وهي محفوظة في خزانة المجمع المقدس » وهذا القول اعيد في رسالة الكردينال « بدتشيني » الى البطريرك بتاريخ ٢٤ من شباط سنة ١٨٢١ . وهذه النسخة بقيت محفوظة وحدها الى الايام الاخيرة لأن الملحوظة الخزانية الاولى[٥] لا تذكر الا نسخة لاتينية واحدة مقسومة الى ثلاثة مجلدات مجلدة تجليدا شرقياً بجلد اسود . يحتوي المجلدان الاولان منها على اعمال المجمع والثالث على ذيله . ويوجد الآن ثلاث نسخات . الاولى قطع ربع[٦] ومجلدة برق ابيض خطها واضح وخالص من الشطب ولا اشارة فيها الى ما يجعلها شرعية . « ان هـذا الدفتر[٧] كُتب بدون شك بعد الاثنين الآخرين . ويكفي للدلالة على ذلك ان نشير الى انه في آخر قوانين المجمع واحكامه ، وبعد قرار المجمع المقدس في دعوى

٤) حاشية المؤلف : قرار الثامن من ايلول سنة ١٨٢٠ . راجع المجمل عدد ٧ صفحة ١٠٣

٥) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٥ صفحة ٩٥ . حاشية ٣

٦) حاشية المعرّب : in quarto

٧) حاشية المؤلف : قد قال هذا الكلام الصائب سيادة ڤالرجا . راجع مجمل عدد ٤ مقطع ١٥

di cui si trattava, affinchè (scrivera l'Archivista) gli Emi Padri l'avessero *sotto gli occhi stampati.*

27. Ma quale esemplare manoscritto consegnò alle stampe la S. C.? Nel relativo decreto (²) si legge *cuius (Synodi) unicum tantum exemplar latino idiomate extat in S. Cnis archivio*, il che viene ripetuto nella lettera del Cardinale Pedicini al Patriarca, scritta ai 24 Febbraro 1821. E questo esemplare si è conservato solo sino agli ultimi tempi, giacchè nella prima nota d'Archivio (Som. n. V p. 95, nota 3) non si parla, se non di un solo manoscritto latino, diviso in tre Tomi con legatura orientale in pelle nera, de' quali i primi due contengono gli atti del Sinodo, il terzo l'appendice. Al presente n'esistono tre: uno in quarto, legato in carta pecora bianca, scritto nitidamente senza veruna cancellatura, e privo di autenticazione. «Questo codice, giustamente osserva Mons. Valerga (Som. n. IV, §. 15) è evidentemente posteriore agli altri due, ed a provarlo, basta osservare che ad calcem dei canoni e decreti

(2) *Decreto degli 8 Settembre 1820, Som. n. VII, p. 103.*

مجمع الموازنة بتاريخ ٢٣[٨] آب ١٧٤١ ، وبعد حكمه فيما يتعلق بالاصلاحات الواجب القيام بها[٩] قد وضعت نبذة عنوانها : « من ذيل مجمع جبل لبنان الموجود في الدفتر الاصلي لهذا المجمع . ثلاثة مجلدات مجموعة بواحد . التواقيع . المجلد الثاني » . سنرى حالاً ايًا هو الدفتر الاصلي المقسوم الى ثلاثة مجلدات . وينبغي ان نشير هنا الى ان قرار المجمع المقدس المشار اليه آنفاً وحكمه ما هما الا نسخة بخط نفس اليد التي كتبت كل الدفتر .

٢٨) والمخطوط الثاني هو كتاب كبير قطع ربع مجلد على الطريقة الاوربيه بجلد احمر وعلى وجهه زخارف مذهبة . وهو كالسابق لا يحتوي على كتابة المسجل والتواقيع والذيل وفيه فوق ذلك شُطب مختلفة وطويلة مع زيادات اضافها يد ثانية وما احتوى عليه ايضاً من قرار المجمع المقدس وورقة الاصلاحات ما هو الا نسخة فقط خالية من كل ما يجعلها شرعية . وقد قابل سيادة فالرجا شطب واصلاحات هذا المخطوط اللاتيني بالمشروع العربي ودوّن ذلك في ورقة منفردة

٨) حاشية المؤلف : اما في المخطوط فيقرا ٢٧ آب (وهو الصواب)

٩) حاشية المعرب : في نص المجمع

del Sinodo, dopo il decreto della S.C. *in Causa Synodus* (3) *Maronitarum* 23 (il ms ha 27) Agosto 1741, e le decisioni della medesima intorno alle correzioni da farsi, segue un estratto che porta per titolo: Ex appendice ad Synodum Montis Libani. Extat in codice originali eiusdem Synodus (4). Tomi tres in unum Signat. Tom. II. Or ora si vedrà quale sia il codice *originale*, diviso in tre tomi. Qui è da notare che tanto il decreto della S.C. succitato, quanto la decisione della medesima sono semplici copie fatte dalla stessa mano che ha scritto tutto il codice.

28. Il secondo manoscritto è un grosso volume in quarto, legato all'europea in pelle rossa, con ornamenti e fronte dorati. Esso non contiene, come il precedente, nè il rogito del Notaro e le sottoscrizioni, e nè l'appendice; inoltre ha varie e lunghe cancellature, ed aggiunte fatte di seconda mano. Anche in questo il decreto della S.C., e l'annesso foglio delle correzioni sono semplici copie senza veruna autentica. Mons. Valerga ha collazionato le cancellature ed emendazioni di questo manoscritto latino collo *schema* arabo,

(3) *Il manoscritto legge rettamente : Synodi.*

(4) *V. la nota precedente.*

ضمت الى المجمل[١٠] واستخلص :« ان هذا المخطوط هو الذي اتى به السمعاني من روما وبه كما يقول كان يقابل ما اصلح وزيد في النسخة العربية . وفعلاً ان كل الشطب الموجودة فيه تطابق تماماً الاصلاحات والمحذوفات التي انزلت في المخطوط العربي . ومع ذلك فان المخطوط العربي يتضمن من التصحيحات والشطب والفقرات المحذوفة عدداً يفوق بكثير ما يتضمنه اللاتيني »[١١].

٢٩) والمخطوط الثالث مقسوم كما قيل الى ثلاثة مجلدات قطع نصف[١٢] وهي مجلدة بجلد اسود تجليداً شرقياً . والمجلد الاول فيما يلي الورقة الحافظة والعنوان يحوي « فيما جرى قبل المجمع » ثم يتبع خمس ورقات بيضاء. ثم يُراجع العنوان مغيراً في ترتيبه بخط السمعاني ويلي :« فهرست ما تتضمن هذه التنظيمات المجمعية » . ويلي ذلك ورقة لا رقم لها كتبتها اليد الاولى وتتضمن قرار البطريرك باذاعة المجمع . ويأتي اخيراً القسمان الاول والثاني من القوانين والاحكام وهما يحتلان ٥٥٤ صفحة . وبعد ورقتين بيضاوين تأتي ورقة ثالثة مكتوب عليها :« فهرست اعمال مجمع جبل لبنان » . وينتهي المجلد بورقتين

١٠) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٣ ٨

١١) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٦ مقطع ١٥

١٢) حاشية المعرّب : in folio

notandole in un foglio a parte, che si riporta in *Sommario* (N. III A.), e ne ha conchiuso: «questo manoscritto essere precisamente quello che l'Assemanni (sic) portava seco da Roma, e sul quale, come egli narra, collazionava ciò ch'era stato corretto ed aggiunto nella copia araba. Infatti tutte le *cancellature* che si riscontrano in questo manoscritto, corrispondono esattamente alle correzioni, o soppressioni che ebbero luogo nell'arabo; sebbene nell'arabo trovisi un numero di gran lunga maggiore di correzioni, cancellature, testi soppressi etc. che non si trovano nel latino (Som. N. IV §. 15).»

29. Il terzo manoscritto è diviso, come si è detto, in tre Tomi in folio, legati in pelle nera con legatura orientale. Il primo tomo, dopo un foglio di guardia ed il titolo, contiene: *quae Synodum praecesserunt*; quindi, lasciati cinque fogli vuoti, da mano dell'Assemani si ripete il titolo ma con ordine diverso, cui succede: *Index eorum, quae Synodalibus hisce constitutionibus continentur*; poscia segue un foglio non numerato, scritto dalla prima mano, e contenente il decreto di promulgazione del Sinodo, fatta dal Patriarca.

حافظتين اكلها العث قليلاً كما اكل بعض اوراق غيرهما من النص . واما المجلد الثاني ففيه بعد ورقة حافظة ما يلي :« القسم الثاني » مع رقم الصفحة ٥٥٨ تباعاً لنمر صفحات المجلد الاول . وقد ادى ذلك بكاتب الحاشية عن الدفتر الاول المار وصفه[١٣] ان يسمي المخطوط الذي نفحصه ثلاثة مجلدات مجموعة بواحد . وينتهي الجزء الرابع في الصفحة ١٢٤٩ الحاملة تواقيع آباء المجمع ولائحة الاعيان الذين شهدوه . وفي الصفحة ١٢٥٠ كتابة رسمية عن اعمال المجمع بشهادة المسجل حبيب وقد كتبتها بكاملها نفس اليد التي وصفت كل الدفتر وهذه هي الكتابة :« انا جرجس حبيب الحاقلاني المسجل الرسمي بسلطان البطريرك وأحد مسجلي المجمع الحاضر بناء على التماس السيد اسطفان عواد السمعاني الجزيل الاحترام رقيب المجمع قد نظمت كتابة رسمية بذلك وكتبتها ووقعتها واذعتها وختمتها بختمي المألوف . جرجس حبيب » . ولا يرى بعد ذلك ختم البتة اذا يليه رأساً شهادة السمعاني بتاريخ : جبل لبنان في دير لويزه ٤ تشرين الاول سنة ١٧٣٦ معززة بختمه وتوقيعه بخط يده وفيها يوافق على ان جرجس الحاقلاني المذكور هو مسجل رسمي واحد المسجلين اللذين شهدا المجمع الا انه لم يذكر بتاتاً ما اذا كانت النسخة الحاضرة ترجمة مطابقة للمخطوط العربي او اقله انها قوبلت به بصورة شرعية وصحيحة . وبعد الورقة

١٣) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٢٧ (من هذا المقال)

Finalmente succedono la prima e la seconda parte de' canoni e Decreti, che occupano 554 pagine; e dopo due fogli vuoti, ne segue un terzo su cui è scritto: *Index Actorum Synodi Montis Libani*. Due fogli di guardia un poco tarlati, come sono alcuni altri del testo, chiudono il primo tomo. Nel Secondo, dopo un foglio di guardia, segue «Pars III» col numero di pagina 558, seguendo la paginazione del primo tomo, il che ha dato occasione all'autore della nota sul primo codice descritto (§ 27) di chiamare questo ch'esaminiamo: *Tomi tres in unum*. La quarta parte termina alla pagina 1249 colle sottoscrizioni dei Padri del Sinodo e l'elenco de' Notabili intervenuti allo stesso. Quindi a pagina 1250 v'è il *Rogitus Actorum Synodi* coll'attestato del Notaro Habib, rogato interamente dalla stessa mano che ha descritto tutto il codice: *Ego Georgius Abibus Echellensis publicus Patriarchali auctoritate Notarius, et unus ex duobus praesentis Synodi Notariis, ad instantiam Rmi Dni Stephani Evodii*

الحاملة توقيع السمعاني بخط ، بنوع يحمل الى الظن ان المجلد فُك لتضم اليه ، الورقة الاصلية المدونة فيها الاصلاحات التي قررها المجمع في اجتماعه الخاص المنعقد في ٢٧ آب سنة ١٧٤١ والقرار المتعلق بها وكلاهما معزز بختم وتوقيعَي الكردينال ف . بطرا الرئيس و«فيلبوس دي مونتي» امين السر بخط يدهما . والمجلد الثالث عدد صفحاته ١١٩ . وقد كتبه السمعاني بخط يده كما اشارت الى ذلك بصواب الملحوظة الخزانية الاولى[١٤] وهو يحتوي على ذيل المجمع ، والذيل هذا ليس من نص المجمع ، وعلى ورقة مضمومة اليه كتبتها يد غريبة وعنوانها التالي :«من ذيل المجمع اللبناني ٤١. كراسي مطارنة واساقفة الموارنة وحدودها . » وكتب ادناه بحرف اصلي : فيما يتعلق بالذيل المذكور راجع قرار المجمع الخاص الموضوع ادناه . ف. كردينال بطرا رئيس.

---

١٤) حاشية المؤلف : مجـل عدد ٥ صفحة ٩٥

Assemani Promotoris Synodalis de praedictis rogatus publicum instrumentum confeci, scripsi subscripsi publicavi, meoque solito signo signavi. Georgius Abibus.» E, senza vedersi alcun sigillo, segue immediamente sotto l'attestato dell'-Assemani, in data del Monte Libano nel Monastero di Loaize 4 Ottobre 1736, munito del sigillo e della firma autografa dello stesso, col quale fa fede che il predetto Giorgio Echellense era publico Notaro, ed uno de' due intervenuti al Sinodo, senza fare la minima menzione se il presente esemplare sia una traduzione conforme al manoscritto arabo, od almeno se sia stato collazionato collo stesso in forma legale ed autentica. Dopo il foglio in cui contiensi la firma dell'Assemani, sono cuciti, in modo da far supporre che per inserirveli sia stato scomposto il volume, il foglio originale delle correzioni decretate dalla S.C. Particolare dei 27 Agosto 1741, ed il Decreto relativo alle stesse, tutti e due muniti di sigillo, e delle firme autografe di V. Card. Petra Prefetto, e di Filippo de Monti Segretario. Il terzo tomo di 119 pagine, scritto di mano dell'Assemani, come rettamente si osserva nella prima nota d'Archivio, (Som. n. V, p. 95), contiene l'appendice del Sinodo, la quale però non fa parte dello stesso, meno un foglio inseritovi, e scritto *aliena manu* col titolo: *Ex Appendice ad Synodum Montis Libani XLI. Metropolitanorum, et Episcoporum Maronitarum sedes et limites*, nel cui calce di carattere originale è scritto: *Quoad dictam Appendicem vide Decretum Congregationis particularis infra positum. V. Card. Petra Prefetto.*

٣٠ ويظهر بوضوح من ذلك الوصف الوجيز ان هـذا المخطوط هو نفس النسخة التي ترجمها السمعاني من العربي الى اللاتيني ايرفعها الى المجمع المقدس[١٥] وهو ايضاً المجلدان الكبيران (ما عدا الذيل) المتضمنان قوانين المجمع كما عبر عن ذلك الكردينال الرئيس في الرقعة المذكورة[١٦] واخيراً انه نفس المخطوط الذي دفع للطبع سنة ١٨٢٠ .وقد قوبل هذا الدفتر بكل تدقيق[١٧] بطبعة سنة ١٨٢٠ فوجد مطابقاً لها كل المطابقة . انما هناك فروق قليلة اكثرها املائية ومطبعية . وقد اتت الطبعة مطابقة للمخطوط الى حد انها اعادت بعض اغلاطه وقد جرى ذلك اولاً : في الصفحة ٨ من الطبعة حيث كتب ١٨٢٥ بدلاً من ١٧٣٥ وهو تاريخ الموجز الثاني الموجه الى السمعاني . فنقل خطأ عن المخطوط . ثانياً في الصفحة ١٤٨ السطر السابع نقل خطأ عن المخطوط supensus بدلاً من suspensus . ثالثاً في الصفحة ٢١٧ جاء في السطر الرابع عشر persequutus كما في المخطوط بدلاً من prosequutus . رابعاً واخيراً في الصفحة ٣١٧ السطر الحادي عشر حيث كتب كما في المخطوط uun بدلاً

١٥) حاشية المؤلف : راجع مقطع ١١ (من هذا المقال)

١٦) حاشية المؤلف : راجع مقطع ١٢ (من هذا المقال)

١٧) حاشية المؤلف : ان هذا الدفتر مكتوب بحرف جلي ومفهوم وشطبه واصلاحاته قليلة جداً

30. Da questa breve descrizione chiaramente risulta, esser questo manoscritto quella *copia tradotta* dall'Assemani dall'Arabo in Latino, *per esser presentata alla S.C.* (§. 11); esser questi i *due grandi tomi* (oltre l'appendice) *contenenti i canoni* del Sinodo, come si espresse nel citato biglietto (§ 12) il Card. Prefetto; e finalmente esser questo stesso manoscritto quello che fu consegnato alle stampe nel 1820. E per vero, collazionato scrupolosamente questo codice (scritto con carattere nitido e intelligibile, con pochissime cancellature o correzioni), coll'edizione del 1820, ad eccezionedi piccole varianti, per la maggior parte ortografiche o tipografiche, si è trovato con essa pienamente conforme. Anzi l'edizione è talmente fedele, da riprodurre alcuni errori del manoscritto, come è avvenuto: 1º. a p. VII dell'edizione, ove nella data del secondo Breve all'Assemani è scritto erroneamente, come trovasi nel manoscritto, MDCCXXV, in vece di MDCCXXXV — 2º. a p. 148, linea 7, ha copiato l'errore del ms. *supensus*, per *suspensus* — 3º. a p 217.

من nunc واما الاختلافان المذكوران في اول ملحوظة خزانية[١٨] والمتعلقان بالتصحيحين الثاني عشر والثالث عشر اللذين امر بهما في الاجتماع الخاص بتاريخ ٢٧ آب سنة ١٧٤١ فلا يمكن ان نقول انهما يشكلان اختلافاً لانهما لم يكونا موجودين في المخطوط بل اشير اليهما فيه بحاشية على هامش المحل المقابل للاصلاح المنوي ادخاله وذلك كما يأتي :« راجع ورقة الاصلاحات الموضوعة في الآخر الاصلاح عدد ... » وبناء على ذلك يمكننا ان نجزم جزماً قاطعاً مؤكدين ان المجمع المقدس قد طبع نفس المخطوط الذي حمله اليه السمعاني باعتباره النسخة الشرعية للمجمع اللبناني .

٣١) ولما انتهى الطبع ارسل الكردينال « بدتشيني » امين سر البروبغندا آنذاك عشرين نسخة الى يوحنا الحلو بطريرك الموارنة وكتب اليه في الرابع والعشرين من شباط ١٨٢١ قال :« نظراً لقرار المجمع المقدس بدفع المجمع اللبناني للطبع وهو الذي عقد سنة ١٧٣٦ وليس له الا نسخة واحدة باللغة اللاتينية محفوظة في خزانة المجمع المذكور . وبناء على ما تقرر من ارسال

١٨) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٥ صفحة ٩٨

linea 14. ha *persequutus* come nel manoscritto, invece di *prosequutus* — e 4°. finalmente a p. 317, linea 11 legge col manoscritto *uun* per *nunc*. Le due variazioni poi designate nella prima nota d'Archivio (Som. n. V. p. 98) riguardanti le correzioni 12 e 13 ordinate dalla Congregazione Particolare de' 27 Agosto 1741, non si possono dir tali, perchè non esistevano nel manoscritto, ma soltano nel margine del luogo corrispondente alla correzione da introdursi in nota: *vide in folio correctionum in fine posito, correctionem N. etc...* Dopo ciò si può con tutta certezza asserire, avere la S.C. riprodotto colle stampe quello stessissimo manoscritto portalole dall'Assemani, *come copia autentica* del Sinodo Libanese.

31. Eseguita la stampa, il Card. Pedicini, allora Segretario di Propaganda, ne mandò 20 copie al Patriarca dei Maroniti Giovanni Dolci, cui scriveva ai 24 Febbraro 1821: «Avendo deciso questa S.C. di dare alle stampe il Sinodo Libanese celebrato nell'anno 1736, di cui una sola copia in lingua latina esisteva nel suo Archivio, e di mandare delli esemplari al Patriarca, e Vescovi della Nazione Maronita per le ragioni indicate nel Decreto (Som. n. VII, p. 103) posto in fronte alla stampa del detto Sinodò, mi fo un dovere di trasmettere a V. S. Illma e Rma 20 copie, affinchè, ritenutane una per se, si compiaccia

نسخات الى البطريرك واساقفة الطائفة المارونية . ووفقاً للاسباب المذكورة في القرار[١٩] الموضوع في اول طبعة المجمع المشار اليه ارى من واجبي ان ارسل الى سيادتكم المعظمة والكلية الاحترام عشرين نسخة تحتفظون منها بواحدة وتتفضلون بتوزيع الباقي على اساقفة الطائفة »[٢٠] وصلت النسخات المذكورة الى البطريرك فلم يأبه لها احد[٢١] لانه ما من احدٍ من الموارنة كان آنئذٍ يعرف اللغة اللاتينية ما عدا اثنين . ولم «يدر بخلد احد ان هـذه النسخات تختلف عن النسخة العربية»[٢٢] . ويُظهر صدقَ ذلك الحادث التالي : كان المجمع المقدس منح سنة ١٨٢٩ سيادة البطريرك الجديد يوسف الحبيشي سلطات مختلفة منها سلطة التفسيح من الدرجة الثانية من القرابة الدموية والاهلية فرفضها البطريرك سنة ١٨٢٩ . ولما سُئل عن السبب برسالة وُجهت اليه بتاريخ ٨ ايار سنة ١٨٣٠ اجاب ان هذا السلطان يحق له بقوة المجمع اللبناني كما يظهر من المخطوط العربي الاصلي ومن غيره من النسخات الخطية والمطبوعة المأخوذة عنه»[٢٣] .

٣٢) ويبدو انه بهذه المناسبة اضطرّ المجمع المقدس الى ان يكتب في

١٩) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٧ صفحة ١٠٢

٢٠) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٢ صفحة ١٠

٢١) حاشية المؤلف : المحل نفسه صفحة ١٣

٢٢) حاشية المؤلف : المحل نفسه صفحة ١٣

٢٣) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٢ صفحة ١٤

a distribuire le altre ai Vescovi della Nazione.» (Som. n. II, p. 12) Giunte le dette copie al Patriarca, niuno ne fece conto (ibid. p. 13), perchè nessuno de' Maroniti, ad eccezione di due, conosceva allora la lingua latina, e nè «venne alla mente di alcuno ch'essa fosse differente dall'esemplare arabo». (Ibid.) E quanto ciò fosse vero, apparisce dal fatto che, avendo la S.C. nel 1829 rimessa a Mons. Giuseppe Habaisci, novello Patriarca, una con altre la facoltà di dispensare nel secondo grado di consanguinità ed affinità, se la vidde restituita nel 1829. Ed interrogatone il Patriarca con lettera degli otto maggio 1830, dallo stesso si ebbe in risposta, aver egli detta facoltà in forza del Sinodo Libanese secondo. l'originale manoscritto arabo, e gli altri esemplari tanto manoscritti, quanto stampati, fatti su quello». (Som. n. II, p. 14).

32. Fu questa a quanto pare l'occasione che nello stesso anno spinse

نفس السنة الى سيادة لوزانا النائب الرسولي في حلب والقاصد الرسولي في جبل لبنان « ليقابل بكل ضبط الترجمة العربية والنص اللاتيني ويقدم تقريرًا دقيقًا بذلك للمجمع المقدس »[٢٤] . وبينما المجمع المقدس ينتظر التقرير المطلوب من القاصد الرسولي صدرت عنه كتابة الى بطريرك الموارنة بتاريخ ١٤ ك ٢ سنة ١٨٣١ جاء فيها : « ان المجمع المقدس قد اطّلع على انه يوجد لدى الموارنة نسخة عربية للمجمع اللبناني مختلفة عن النسخة اللاتينية لنفس المجمع وان المجمع المقدس لا يعرف غير النسخة اللاتينية وان على البطريرك ان يأمر اساقفة طائفته بان يمشوا بموجبها»[٢٥] . لم يجاوب البطريرك على هذه الرسالة انما كلف شخصًا متضلعًا من اللغتين ليقابل النشرة العربية بالنشرة اللاتينية ويدون الفروق القائمة بينهما[٢٦] . ولا يمكن الجزم بما كانت نتيجة المقابلة التي امر بها البطريرك . ولكنه من الثابت ان القاصد لوزانا ارسل الى المجمع المقدس بتاريخ ٢٩ نيسان سنة ١٨٣١ بلائحة تتضمن كل الفروق والاختلافات التي وجدها في الطبعة العربية[٢٧] . وقد رتبت هذه اللائحة فيما بعد وقسمت الى ثلاثة اقسام

٢٤) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٥ الملحوظة الثانية الثانية
٢٥) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٢ صفحة ١٤
٢٦) حاشية المؤلف : المحل نفسه
٢٧) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٥ الملحوظة الثانية الثانية

la S.C. a scrivere a Mons. Losana Vicario Apostolico di Aleppo, e Delegato Apostolico al Monte Libano, «acciò fatto un esatto confronto della versione araba col testo latino, le ne desse un diligente rapporto.» (*Som. n. VI seconda nota d'Archivio*). Intanto in attenzione del rapporto domandato al Delegato Apostolico la stessa S.C. ai 14 Gennaro 1831 scriveva al Patriarca Maronita che «la S.C. è venuta a sapere che si trova presso i Maroniti un esemplare rabo del Sinodo Libanese, differente dall'esemplare latino di questo stesso Sinodo, e che la S.C. non conosce che l'esemplare latino e che il Patriarca dovesse ordinare ai Vescovi della sua Nazione di camnare (sic) a norma di esso» (*Som. n. II, p. 14*). A questa lettera non replicò il Patriarca, ma invece adiede incarico a persona che conosceva le due lingue di confrontare le due edizioni araba e latina, di prender nota delle differenze che vi si trovavano. (Ibid.) Non consta quale sia stato il risultato del confronto ordinato dal Patriarca; è certo però che il Delegato Losana ai 29 Aprile 1831 mandò alla S.C. uno specchio di tutte le variazioni. (sic) e discordanze rinvenute nella

وفقاً لانواع الاختلافات الثلاثة التي لوحظت في هذه الطبعة . والفروق تعود الى فقرات ناقصة وغيرها مختلفة وغيرها زائدة . ثم طُبعت اللائحة في تلخيص كانون الثاني ١٨٣٢ عندما عقد اجتماع خاص بهذا الامر وطُرحت فيه السؤالات التالية :

١ : هل يجب قبل اتخاذ بعض التدابير بشأن الطبعة العربية الغير الصحيحة لاعمال المجمع اللبناني المنعقد سنة ١٧٣٦ ان يُؤمر القاصد الرسولي او البطريرك الماروني بان يرسل الى المجمع المقدس بنسخة اعمال المجمع المذكور التي طبعت هناك باللغة العربية ليتسنى للمجمع المقدس ان يحصل على النص الاصلي الذي هو وثيقة الاثبات في هذه الدعوى .

٢ : هل يوافق ان تُتخذ في هذه الاثنا . تدابير تمنع الطائفة المارونية من ان تعتبر ان المجمع المقدس ثبّت اعمال المجمع اللبناني المطبوعة باللغة العربية والمختلفة عن الطبعة اللاتينية التي فُحصت وثُبتت .

٣ : هل يجب اتخاذ بعض التدابير وايها لدفع البطريرك والاساقفة الموارنيين الى ان يطابقوا اعمالهم تمام المطابقة (وذلك فيما يتعلق بالمواد التي

versione araba (*Som. n. V. 2a nota d'Archivio*). Questo specchio, coordinato poi e distinto in tre parti secondo le tre classi delle differenze notate nell'edizione araba, cioè di cose omesse, di variazioni, e di testi aggiunti, fu stampato nella ponenza del Gennaro 1832, quando se ne tenne apposita Congregazione, nella quale vennero proposti i seguenti dubbi:

1) Se prima di prendere qualunque provvedimento sull'infedele edizione araba degli atti del Sinodo Libanese dell'anno 1736, si debba ordinare al Delegato Apostolico, o al Patriarca Maronita di mandare alla S.C. un esemplare dei detti atti colà stampati in Arabo, perchè presso la S.C. sia l'Originale documento, che in questa causa forma come il corpo del delitto.

2) Se intanto sia opportuno di prendere qualche provvedimento, perchè presso la Nazione Maronita non corrano come approvati dalla S.C. gli atti del Sinodo Libanese stampati in arabo, e non conformi all'edizione latina esaminata ed approvata.

3) Se intanto si dia luogo a qualche provvidenza, e quale, perchè il Patriarca, e Vescovi Maroniti relativamente alle cose trattate nel detto Sinodo

يبحث فيها المجمع المذكور) لطبعة اعمال المجمع اللبناني التي نشرتها البروبغندا والتي تثبتها وحدها الكرسي الرسولي.

٤ : هل يوافق استخدام القاصد الرسولي في هذه المناسبة وكيف يُحتاط لتفادي خطر تجديد النفور بين الاساقفة الشرقيين وبينه.

وقد أُجيب على هذه الاسئلة :

على الاول : بالايجاب. وليُكتب الى البطريرك والى النائب الرسولي لارسال نسخة هذا المجمع المطبوعة في جبل لبنان.

وعلى الثاني : بالايجاب ونظرًا للنية. والنية هي ان يُكتب الى البطريرك ويُعرض له ان المجمع المقدس اطّلع على ان الاكليروس والشعب الماروني يتداولون طبعة للمجمع اللبناني مختلفة باشياء كثيرة وجد خطيرة عن الطبعة التي طبعها المجمع المقدس. ولذلك يرغب هذا الى البطريرك ان ينبّه كل اساقفة واكليروس بطريركيته ليهملوا الطبعة المذكورة ويتركوها لانها مزوّرة وغير صحيحة وينكبوا على السير بضبط بموجب المجمع اللبناني المطبوع في رومه.

وعلى الثالث : عُني به في الجواب السابق.

---

intieramente si uniformino alla edizione degli atti pubblicatti dalla Propaganda, *che sono i soli approvati dalla Santa Sede.*

4) Se convenga servirsi in questa occasione dell'opera di Mons. Delegato Apostolico, e con quali cautele per evitare il pericolo di nuovi disgusti tra i Vescovi Orientali e quel Prelato.

Ai quali dubbi fu risposto:

Ad primum: Affirmative, et scribatur tum Patriarchae, tum vicario apostolico pro trasmissione (sic) exemplaris synodi eiusdem in Monte Libano impressae.

Ad secundum: affirmative, et ad mentem. Mens est, ut scribatur Patriarchae, eique exponatur S.C. certiorem factam esse circumferri apud clerum, populumque Maronitarum editionem synodi libanensis in multis, et gravioris momenti rebus aberrantem ab ea, quae typis S. C. excusa (sic) fuit; velle proinde S.C., ut idem Patriarcha omnes sui Patriarchatus episcopos, clerumque moneat, ut, posthabita et reiecta illa spuria, atque infideli editione sedulo in observantiam synodi libanensis Romae impressae incumbant.

Ad tertium: Provisum est in antecedenti.

وعلى الرابع : يجب ان ترسل الرسالة الى البطريرك بواسطة القاصد[٢٨] .

٣٣) يبدو واضحاً من السؤالات المطروحة ومن الاجوبة عليها ان المجمع المقدس لم يقصد المخطوط العربي الاصلي الذي وقعه آباء المجمع بل طبعته وحدها التي ينعتها بالمزورة والغير الصحيحة لاعتقاده انها لم تنقل المخطوط نقلاً مضبوطاً . ويُستخلص ذلك ايضاً من الاحداث التالية : كان سيادة اوڤرن القاصد الرسولي بناء على امر المجمع المقدس قد وجه الى البطريرك الماروني اسئلة بشأن قضية المجمع . فدفع البطريرك واساقفته معاً الى نفس القاصد عريضة تتعلق بشرعية المخطوط العربي المحفوظ في الخزانة البطريركية . وارسلوا عنها نسخة مماثلة الى المجمع المقدس . واتبعوها في التاسع والعشرين من حزيران من نفس السنة برسالة يشكون فيها ان يكون المجمع المقدس آثر الطبعة اللاتينية على النص العربي الاصلي الذي نقلته بكل امانة الطبعة العربية المتداولة فيما بينهم . وعلى اثر ذلك كتب المجمع المقدس بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٨٣٥ رسالة الى البطريرك يحثه فيها بحق لطفه وضميره على ارجاع الى خزانة البروبغندا النسخة الخطية العربية التي دُفعت سنة ١٧٤٢ الى الياس سعد مع الالتزام بردها

٢٨) حاشية المؤلف : محل عدد ٥ الملحوظة الخزانية الثانية

Ad quartum: Transmittendas esse litteras ad patriarcham per delegatum apostolicum (Som. n. V, 2a nota d'Archivio).

33 . Dai dubbi proposti e dalle relative risoluzioni evidentemente apparisce, la S.C. non aver avuto di mira il manoscritto originale arabo, sottoscritto dai Padri del Sinodo, ma solo l'edizione fattane, la quale vien dichiarata *spuria ed infedele* nella persuasione (sic), che la stessa non fosse un'esatta riproduzione del medesimo manoscritto. Ciò risulta altresì dai fatti seguenti. Nel 1834 il Delegato Apostolico Mons. Overgne avea per ordine della S.C. interpellato il Patriarca Maronita intorno alla questione del Sinodo: e questi unitamense (sic) ai suoi Vescovi avea presentato allo stesso Delegato un esposto sull'autenticità del manoscritto arabo che si conservava nell'archivio patriarcale. Una copia identica del medesimo esposto mandarono alla S.C., cui ai 29 Giugno dello stesso anno fecero seguire una lettera, nella quale si lamentavano per avere la S.C. preferita l'edizione latina al testo originale arabo, di cui l'edizione araba, che circolava presso loro, era fedele espressione. In seguito a ciò la S.C. ai 24 Novembre 1835 scrisse al Patriarca una lettera, nella quale impegnava la delicatezza e coscienza di lui a restituire

وختمت الرسالة هكذا :« ان سيادتك ترى كم يهم خزانة المجمع المقدس ان تسترجع هذا المخطوط الذي أعير بنية سليمة . ولذلك اني منتظره في رومة في اقرب وقت لتتمكن اخيرًا من مقابلة المخطوط العربي والمخطوط اللاتيني ونقضي بعد ذلك دون ما تحيّز وبعد الاطلاع على الحقيقة على هذا الجدال القائم بصدد الفروق بين الطبعة العربية الصادرة في جبل لبنان والطبعة اللاتينية الصادرة في رومة[٢٩] .

٣٤) ولم يجاوب البطريرك من فوره على هذه الرسالة . ولا ارتأى ان يرد المخطوط العربي . وذلك لسببين يذكرهما مؤلف المفكرة التاريخية[٣٠] . الاول هو خوف البطريرك من ضياع النسخة المذكورة ابان هذا السفر الطويل. والثاني هو اعتقاده ان المخطوط هذا ما أعيد الى لبنان بصفة عارية بل ليحفظ في الخزانة البطريركية . وفضلًا عن ذلك انه من السنة ١٧٤٢ الى هذا الوقت لم يطالب احد بارجاعه . ثم ان هذا البطريرك واساقفته اجابوا في شهر آذار سنة ١٨٣٦ على رسالة المجمع المقدس المذكورة وضموا الى جوابهم مفكرة وافية بشأن الطبعة العربية . وارتأى المجمع المقدس آنذاك الا يردّ جوابًا على

٢٩) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٢ صفحة ١٦
٣٠) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٢ صفحة ١٦

(sic) all'archivio di Propaganda l'esemplare manoscritto arabo, consegnato nel 1742 a D. Elia Felici coll'obbligo della restituzione, e conchiudeva: «Vede bene V.S. di quanta importanza sia che l'archivio della S.C. ricuperi questo manoscritto che in buona fede ha prestato; e quindi io l'aspetto in Roma quanto prima. Così finalmente potremo noi fare un confronto del manoscritto arabo col latino, e definirvi in appresso con imparzialità, e conosciuta verità questa controversia delle differenze tra l'edizione araba del Monte Libano, e la latina di Roma.» (*Som.* n. II, p. 16).

34. A questa lettera il Patriarca non rispose subito, nè pensò di restituire il manoscritto arabo; e ciò fece per due ragioni, come afferma l'autore dell *Memoria storica* (*Som. ibid*): per il timore cioè, che in un viaggio così lungo non venisse a smarrirsi il detto esemplare; e per la persuasione in cui era il Patriarca, che il manoscritto non fosse stato rimandato al Libano in forma di prestito, ma bensì per conservarsi nell'archivio patriarcale: molto più che dal 1742 fino a quell'epoca non n'era stata domandata la restituzione.

ذلك . انما صير في اجتماع ٩ كانون الاول العام سنة ١٨٤٥ الى فحص اعمال انتخاب سيادة يوسف الخازن بطريركاً جديداً . وبان من هذه الاعمال ان النص العربي يكلف العلمانيين بحماية المجمع مما لا يرى له اثر البتة في النص اللاتيني . وعليه اجاب الآباء الكليو النيافة بالايجاب على السؤال الثالث : « هل يجب ان يُجدد الامر بالامتثال للقرار الذي يثبت نسخة المجمع اللبناني اللاتينية » . واستناداً الى ذلك كتب الرئيس الكلي النيافة الى البطريرك الجديد بتاريخ ٦ شباط سنة ١٨٤٦ مذكراً اياه بما قد كتب الى سالفه بشأن طبعة المجمع اللاتينية التي بها وحدها اعترف المجمع المقدس . ويرغب ان يرى الموارنة يستعملونها . فاجاب البطريرك الجديد في شهر نيسان من نفس السنة مؤكداً انه لا يمكن ان تكون الطبعة اللاتينية هي الطبعة الشرعية او ان يدخل استعمالها في الطائفة . واستند في ذلك الى ما عرضه سابقاً سالفه على نفس المجمع المقدس[٢١] . وهذه المرة ايضاً اعتصم المجمع المقدس بالسكوت . ولكنه في شهر ايار سنة ١٨٥٥ كتب الى البطريرك الحالي بولس مسعد الذي

٢١) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٢ صفحة ١٧

Nel Marzo poi del 1836 lo stesso Patriarca, una co'suoi Vescovi, rispose alla prefata lettera della S.C., e vi accluse una diffusa memoria intorno alla questione dell'edizione araba, cui la S.C. stimò bene allora di non replicare. Però esaminandosi nell'adunanza generale de' 9 Decembre 1845 gli Atti della elezione di Mons. Giuseppe Gazzeno a nuovo Patriarca, e rilevandosi dai medesimi che il testo arabo concede ai laici la custodia del Sinodo, mentre nel latino non se ne fa punto menzione, al terzo dubbio: *Se nuovamente debba, ingiungersi l'osservanza, del decreto che sanziona l'esemplare latino del Sinodo Libanese*: gli Emi Padri risposero = *Affirmative*. Ed in conseguenza di ciò l'Emo Prefetto ai 6 Febbraro 1846 scrisse al nuovo Patriarca ricordandogli ciò che era stato scritto al suo predecessore intorno all'edizione latina del Sinodo, sola riconosciuta dalla S.C., la quale desiderava che se ne facesse uso dai Maroniti. Il nuovo Patriarca replicava nell'Aprile dello stesso anno, sostenendo non esser possibile che l'edizione latina fosse l'autentica, o che ne fosse introdotto l'uso nella Nazione, invocando in appoggio ciò che avea esposto il suo predecessore alla stessa S. Congregazione. (*Som. n. II, p. 17*). Anche in allora questa serbò il silenzio, ma nel Maggio del 1855, scrivendo all'attuale Patriarca Paolo Massad, succeduto nell'anno precedente al Gazzeno tra le altre cose gli diceva: «Così parimenti è volontà del S. Padre che le si

خلف الخازني في السنة السابقة. ومما قاله ما يأتي: «يريد الحبر الاعظم ايضاً ان احثك على الامتثال التام لمقررات المجمع اللبناني بشأن اعطاء التفسيحات الزواجية وبان تحصرها بهذه الدرجات فقط التي يتسمح لك فيها المجمع المذكور. والا تمنحها الا متى وجدت اسباب صوابية وقانونية وفقاً لاعلان المجمع المشار اليه سابقاً». ولم يُشر المجمع المقدس (هذا ما يقوله مؤلف المفكرة التاريخية)[٣٢] «الى طبعة المجمع اهي اللاتينية ام العربية التي شاء الحث على العمل بها».

٣٥) والى هذا الالتباس في تفهيم كلام المجمع المقدس المشار اليه استند البطريرك ليتابع استعمال الطبعة العربية. اما المجمع المقدس فقد طاب له ان يبالغ في الاستفسار عن ذلك فكتب الى نفس البطريرك في شهر آذار سنة ١٨٦٥ سائلاً اياه بصراحة اذا كان الكرسي الرسولي منحه السلطان لان يفسح من مانع الزواج في الدرجة الثانية من القرابة الدموية والاهلية. فاجاب البطريرك انه يملك هذا السلطان بقوة عادة لا يذكر بدوها وبقوة المجمع اللبناني نظراً لطبعتيه العربية واللاتينية. ورجا اخيراً الا يُحرم من هذا الانعام. فاجابه المجمع المقدس بتاريخ ٤ نيسان سنة ١٨٦٦ واعداً اياه باخضاع عريضته لحكم الآباء السامي احترامهم في اجتماع عام قريب. وبابلاغه بالتالي

٣٢) حاشية المؤلف: مجمل عدد ٢ صفحة ١٧

inculchi una esatta osservanza delle prescrizioni del Sinodo Libanese sulla concessione delle dispense matrimoniali, limitandola a quei soli gradi che Le sono permessi in detto Sinodo, e nei casi nei quali concorrono giusti motivi, e canonici, secondo le dichiariazioni del Sinodo predetto». Senza che la S.Congregazione li dicesse (così osserva l'autore della *memoria storica*, Som. n. II ibid) «di quale edizione di detto Sinodo, se cioè dell'araba, o della latina, intendeva che si inculcasse l'osservanza«.

35. Dall'ambiguità con cui furono intese le citate parole della S.C., il Patriarca se ne valse per continuare ad usare l'edizione araba. Però la stessa S.C. a meglio indagare la cosa, nel Marzo dal (sic) 1865 diresse al medesimo Patriarca la domanda esplicita: se avea cioè dalla S.S. la facoltà di dispensare dall'impedimento matrimoniale in secondo grado di consanguinità, ed affinità; cui il Patriarca rispose, avere detta facoltà dalla consuetudine immemorabile, ed in forza del Sinodo Libanese secondo la doppia edizione araba e latina; ed in fine pregava che non gli si togliesse un tale privilegio. La S.C. gli rispose ai 4 Aprile 1866 (sic), che ciò ch'egli esponeva sarebbe stato sottoposto al

النتيجة[٢٣] . وقد كلّف المجمع المقدس في السنة المذكورة سيادة ڤالرجا بطريرك اورشليم والقاصد الرسولي في سوريا بالنيابة ان يسأل البطريرك عن هذا الامر وخاصة عن المخطوط العربي للمجمع الذي اعيد من رومة بواسطة السيد الياس سعد . وذكرت لسيادة ڤالرجا في نفس الوقت علامات هذا الدفتر التي استُخلصت من الوصول المتروك في الخزانة[٢٤] . وقصد ڤالرجا البطريرك في تموز من نفس السنة وعرض عليه ما كُلّف به . واطلعه البطريرك على ملاحظاته بشأن الطبعتين العربية واللاتينية . وأراه المخطوط المبتغى . وعند ذاك طلب منه القاصد بالنيابة ان يجمع معاً كل الوثائق المتعلقة بالمجمع اللبناني ويبني عليها مفكرة بهذا الشأن . ودفعت الى القاصد المفكرة المذكورة في حزيران سنة ١٨٦٧ وهي التي تجدها في المجمل عدد ٢ . اما المخطوط فقد دفع اليه كما ذكر في تشرين الاول من السنة السابقة . وكان ذلك الرئيس الشهير في رومة سنة ١٨٦٨ فكلّفه مجمع الانتشار ان يدوّن الاختلافات المهمة القائمة بين المخطوط المشار اليه والطبعتين اللاتينية والعربية . وبتاريخ ٥ حزيران من نفس السنة[٢٥]

٢٣) حاشية المؤلف : المحل نفسه صفحة ١٩

٢٤) حاشية المؤلف : راجع المقطع ١٤ (من هذا المقال)

٢٥) حاشية المؤلف : مجمل عدد ١

---

giudizio degli Emi Padri in una prossima Congregazione generale, e che quindi gli si sarebbe fatto conoscere il risultato (*Som.* n. III, p. 19). Di fatti nel predetto anno la S.C. incaricò Mons. Valerga Patriarca di Gerusalemme, e Pro-Delegato Apostolico della Siria, d'interpellare in proposito il Patriarca, specialmente intorno al manoscritto arabo del Sinodo, rimandato da Roma per mezzo di Don Elia Felici, significandogli in pari tempo i connotati dello stesso codice, come risultavano dalla ricevuta rilasciata in Archivio (§. 14). Il Valerga nel Luglio dello stesso anno si portò presso il Patriarca, e gli espose l'incarico ricevuto; e questi, dopo avergli comunicate le sue osservazioni sulla duplice edizione araba e latina, gli mostrò il desiderato manoscritto. E fu allora che lo stesso Pro-Delegato chiese che si mettessero assieme tutti i documenti riguardanti il Sinodo Libanese, e se ne stendesse un'apposita memoria. Detta memoria gli fu rimessa nel Giugno 1867, ed è quella che si trova in *Sommario* N. II; mentre il manoscritto gli era stato consegnato, come s'è detto, nell'Ottobre dell'anno precedente. Trovandosi poi in Roma lo stesso illustre Prelato nel 1867, fu incaricato dalla Propaganda di notare

دفع برقعة الى السيد الكردينال الرئيس ومعها اولًا : المفكرة التاريخية للبطريرك مسعد . وثانياً : شغله اي مجموعة الاختلافات المهمة القائمة بين النسخة العربية الشرعية والطبعتين اللاتينية والعربية[٣٦] وورقة تتضمن الاصلاحات والزيادات الموجودة في المخطوط اللاتيني مما مرّ الكلام عنه في المقطع ٢٨[٣٢] وورقة أخرى عن الاوامر باختتام المجمع[٣٨] . وزاد على ذلك ملحوظتين خزانيتين قديمتين[٣٩] ونسخة الموجز الرسولي لاكليمنت الثامن وقد اخرج لهذه الغاية من امانة سر الموجزات وهو يتعلق بالسلطان المعطى للبطريرك الماروني ليفسح من بعض الموانع الزواجية[٤٠] وهذه هي جميع الوثائق اللازمة لاصدار حكم شامل بشأن قيمة الفروق بين النصين العربي واللاتيني التي هي موضوع كلامنا في البحث التالي .

(له صلة)

---

٣٦) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٣
٣٧) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٣ A
٣٨) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٤
٣٩) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٥
٤٠) حاشية المؤلف : مجمل عدد ٦

---

le principali varianti esistenti tra il detto manoscritto e le due edizioni araba e latina. Ed egli con foglio dei 5 giugno dello stesso anno (Som. n. I) rimetteva al Sig. Card. Prefetto 1. la *memoria storica* del Patriarca Massad, unitamente al suo lavoro, cioè, 2. la *Raccolta* delle principali varianti, che si rinvengono tra l'*autentico* arabo, e le due edizioni araba e latina (Som. n. III), non che un foglio di correzioni ed aggiunte che si trovano nel manoscritto latino ci ui (sic per: di cui) s'è parlato al §. 28 (Som. n. III, A), ed un altro foglio degli *ordini per la chiusura del Sinodo* (Som. n. III. B), 3. finalmente le sue Osservazioni in proposito (Som. n, IV). Aggiungendo a questi due antiche note d'Archivio (Som. n. V) e la copia del Breve Apostolico di Clement (sic) VIII, fatta appositamente estrarre dalla Segretaria dei Brevi, sulla facoltà concessa al Patriarca Maronita di dispensare da alcuni impedimenti matrimoniali (Som. n. VI), e si avranno tutti i documenti necessarii per dare un adequato giudizio sulla portata delle variazioni tra i due testi, arabo e latino, del quale ci andiamo ad occupare nel seguente articolo.

تاريخ الاسر المارونية

تأليف

الخوري اسطفان البشعلاني

هو معجم او موسوعة تاريخية للاسر المارونية جمعها تقع في بضعة مجلدات ، عني بوضعها مرتبة على حروف المعجم ، مؤلفها البحاثة المعروف بطول الباع في التاريخ الوطني وتحقيق اصول الاسر اللبنانية وانسابها . وصدَّرها بخلاصة تاريخ لبنان والموارنة ، وتوطئة في الاسر والانساب اللبنانية ومؤرخيها واصولها ومواطنها واحوالها الدينية والاجتماعية بصورة لم يسبق اليها . وقد رغبنا الى حضرته ان يتحفنا بشيء من فصول كتابه القيّم الذي يعدّه للطبع فاجاب سؤلنا بطيبة خاطر لانه صديق قديم لهذه المجلة وله فيها مقالات تاريخية وادبية . وهذا ما نأخذه اليوم من « توطئة » كتابه ننشره شاكرين له لطفه وسائلين الله ان يأخذ بيده ليتمكن من نشر هذا الاثر الخالد

(المشرق)

ـ الاسر والانساب

رابطة القرابة : ليس في الروابط الطبيعية اشد واقوى من رابطة القرابة فهي رابطة العاطفة والمحبة ، بل هي رابطة الدم . والدم اكثف من الماء ، وقد قيل : الدم لا يصير ماء . وهي اعز واغلى على قلب الانسان من الرابطة القومية التي تربطه بابناء وطنه . فاهله اكثر عنده من سائر مواطنيه ، واعضاء اسرته احب الناس لديه ، لانهم اشدهم قرباً اليه . فهم انصاره في الشدة والرخاء ، واعوانه في السراء والضراء . بهم يشتد ازره ، وفيهم يفاخر ويعتز . واذا اجتمعت رابطة الدم مع رابطة الدين زاد هذا الاجتماع كلًا منهما قوة وتمكيناً . ومن الخطأ القول «اخوك في الدم ولا اخوك في الدين» لما فيه من المخالفة لمبادئ الدين الصحيح بل الوطنية والاجتماع . وهو قريب من مبدأ « العنصرية »

الذي رذله الدين . فكم من رجل يحب اخاه في الدين وإن لم يكن اخاه في الدم .

الاجتماع والاسرة : ومعلوم ان الانسان مدني بالطبع ، يحب الالفة ويميل الى الاجتماع بغية التعاون على المعاش والتعاضد على دفع العوادي . فالاجتماع حاجة القلب البشري ، وهذا الميل غريزي في الحيوان لكنه قد بلغ الغاية في الانسان . حتى ان الامم الهمجية تنفر من الوحدة وتعيش قبائل وعشائر . ومنشأ الجماعات العائلة فهي منذ القديم المظهر الاول للمجتمع الانساني . والعروة الوثقى للحياة الادبية انما هي الزواج الشرعي ، فاذا انفصمت تضعضعت دعائم المجتمع وسادت الفوضى وتفاقمت الرذائل ولم يبقَ للمحبة اثر . واصبحت كلمة الولد لغواً وذهبت لذة الاخوّة وماتت العواطف النبيلة والاميال الشريفة، وزالت من النفوس عوامل العمل والجهاد ، وانفصمت الروابط العائلية بين الناس ، لان العائلة هي التي تشرّف الانسان وتجعله نافعاً للبشرية .

فالاستمساك اذاً بعرى القرابة ، والاحتفاظ بالصلات الاهلية من اهم دواعي الالفة والتعاون ، واكبر وسائل الاتحاد والتضامن مما هو اساس العمران والحضارة . ومن دواعي الاسف ان هذه الروابط اخذت تتراخى مع الايام ، وكادت تتفكك وتنحلّ بسبب التناسي مما ادى الى ضعف المحبة الاهلية . فهناك ثورة على النواميس الطبيعية مثل كل ثورة ، الامر الذي كان له نتائج سيئة وعواقب وخيمة في مجرى الحياة الاجتماعية ، لانه تبلبل لسنة الله وقلب لنظام الخالق عز وجلّ .

معرفة الانساب : وقد توصل فريق الى القول بترك هذه الروابط ، وان الانسان حريّ بان يكون ابن نفسه لا ابن جنسه ، وان الخليق به التخلي عن كل علاقة قرابة باهله واسرته ، اذ لا فائدة من الاعتماد على ذوي القربى في مذهب هؤلاء الثائرين على النواميس الطبيعية والشرائع الاجتماعية ، لانها في عرفهم تقاليد موروثة بالية . ومن ثمّ فالاهتمام بمعرفة التواريخ العائلية والعناية بجمع شتات الانساب ، كل ذلك عندهم من الامور العقيمة التي لا نفع منها

الافراد ولا للمجتمع . وبذلك تضيع الانساب التي طالما كان السلف الصالح يفاخرون بها ويحافظون عليها . ولا يبعد ان يؤدي هذا الامر الى التنكر جملةً وتناسي صلة القرابة . ولا يخفى ان تاريخ الاسر هو تاريخ الامة والوطن لانهما يتألفان من مجموع الاسر .

وقد رأينا الامم العريقة في الحضارة حتى في ايام جاهليتها حريصة على تاريخها معتنية بحفظ انسابها . وفي التوراة مثالٌ من انساب الشعوب وتفصيل للسلالات البشرية ولا سيما اسباط بني اسرائيل . واول شيء نراه في الانجيل سلسلة نسب السيد المسيح من آدم حتى المسيح نزولاً ومن المسيح حتى آدم صعوداً . وكان العرب احرص الامم على ضبط انسابهم والاحتفاظ باحسابهم وكل قبيلة من القبائل العربية تفاخر بنسبها وحسبها حتى اشتهر العرب بعصبيتهم والمحافظة على طيب عنصرهم وعلى جودة اصل خيولهم . وكثيراً ما نراهم يتباهون في خطبهم واشعارهم بالحسب والنسب والانتماء الى القبائل مما يقوم عندهم مقام الوطنية عند الامم الغربية . ومن هذا القبيل ما جاء عن مالك بن مسمع احد روسائهم يفاخر بقومه وسؤدده : انه لو غضب لغضب معه مائة الف سيف لا يسالونه في اي شيء غضب .

والقبائل للعرب كالاسباط لبني اسرائيل ، وقد كانوا احوج الى الاحتفاظ بانسابهم ليكونوا متضافرين على خصومهم ، متناصرين على مَن عاداهم ، ولان ذلك احد اسباب الالفة . ومن اقوالهم : ان تعاطف الارحام وحمية الاقارب يبعثان على التناصر ، ويمنعان من التخاذل انفةً وتوقياً من تسلط الغريب . وجعلوا معرفة الانساب من الفروض ، وقد تكون احياناً من المستحبات والنوافل ، وحثّوا على الالفة وكفّوا عن الفرقة . وقد سفَّه كثير من علمائهم رأي القائل بان علم النسب معرفته لا تنفع وجهله لا يضر . قال امامهم علي بن ابي طالب « اكرم عشيرتك فانهم جناحك الذي به تطير ، واصلك الذي به تصير ، ويدك التي بها تصول » وللعرب تآليف كثيرة في علم التاريخ والانساب .

وليس الامم المتمدنة غربية او شرقية باقل حظاً من العرب في معرفة

الانساب وحفظها ، ولهذا العلم عندهم المقام الرفيع ، وهو احد فروع علم التاريخ ، ترى فيه سلاسل انساب الملوك والعظماء والاسر ، وخصوصاً في باب التراجم . وعلى الجملة فان كل امة من الامم لها تاريخها وانسابها ، وجميعها تقدر قدر هذا العلم وتقول بضرورته للشرائع والاحكام الدينية والزمنية ولا سيما في قضايا الزواج والمواريث .

الاسر وفروعها : الاسر جمع الاسرة وهي العائلة او العيلة والعشيرة والعترة والقبيلة والطائفة والبيت . وهي تدل على مجموع الافراد الذين هم من دم واحد واصل واحد وجد واحد ، كالاولاد والاخوة واولاد العم وسائر الاقارب كثروا او قلّوا . اما الاسرة التي هي موضوع كتابنا فهي مجموع الاسر او البيوت الصغيرة المنسوبة الى اصل واحد والمعروفة باسم واحد . وتقسم الاسرة الى اصول وفروع فالاصل هو الجد الاصلي العام الذي تسمى الاسرة كلها باسمه او بلقبه او بكنيته . وكل فرد لا يتحدر من هذا الاصل ولا يرتقي بالتسلسل الى الجد الاعلى الجامع لا يكون من الاسرة التي تنتسب وتنتمي الى هذا الجد ، والّا كان دخيلًا على الاسرة ، او انه يُنتمى اليها من جهة الام او غيرها من الجهات تغلباً او تقرباً او تقوياً .

والفرع او « الجب » هو الجد لقسم من الاسرة الكبرى ، وقد اصبح كالاصل لما بعده من الفروع الصغيرة التي تتألف من البيوت والافراد . فيكون الاصل كأصل الشجرة ، والفروع الكبيرة او « الجباب » هي كالجذوع النابتة من اصل الشجرة ، والفروع الصغيرة هي كالاغصان وما فيها من الاوراق والاثمار . وقد شبهوا الاسرة ايضاً بالجسم وفيه : الرأس والبطون والافخاذ الى غير ذلك مما شرحه علماء الانساب .

المشجرات والسلاسل : وقد اعتاد الناس ان ينظموا انساب اسرهم بهيئة شجرة » يذكرون فيها تصويراً اسماء اصولهم وفروعهم او بطون اسرهم او افخاذها لما فيها من التشابه بينها وبين الشجرة او الجسم . ويسمونها ايضاً « سلسلة » لانها تتألف من حلقات يتصل بعضها ببعض كالسلسلة .

وتعرف عندهم بالعريشة فيقولون « عريشة العائلة » لانها تشبه عريشة كرم العنب . ولقد حرص كثير من اللبنانيين على هذه الشجرات او السلاسل او العرايش الى اليوم ، ودونها بعضهم فكانت خير ما ابقاه الاباء للابناء .
وعني كثيرون بطبع هذه المشجرات التي رُسمت على صور واشكال مختلفة لتحفظ في بيوت الاسر ، وتبقى اثرًا جميلًا لها ولذراريها في الوطن وفي المهجر

وكنا نتمنى ان تكون هذه المشجرات عند كل الاسر ، وان تكون مبنية على الحقائق دفعاً لما دخل على تواريخ الاسر من المغالط والاوهام .
وتفنن العرب بوضع سلاسل انساب قبائلهم على اشكال مختلفة وصور رائعة بديعة، ونشروا كثيرًا منها بالطبع . وقد اجتمع لدينا طائفة من مشجرات لبعض الاسر اللبنانية منها مطبوع ومنها مخطوط . ومنها ما يظهر بصورة جميلة ولكنها تحتاج الى تحقيق وتسديد ، لان العبرة لا للصور البديعة والاشكال الرائعة بل للحقائق الراهنة والنصوص الاكيدة . وقد اورد صاحب كتاب « اخبار الاعيان » الشيخ طنوس الشدياق الحدثي اللبناني انساب الاسر التي ذكرها من اعيان لبنان بقوله : فلان ولد له فلان الى اخره بصورة موجزة بسيطة .

الانتساب والتكني : وكان اللبناني يفاخر بنسبه واسرته ، ويعتز باصله وبلدته فيقول : انا فلان ابن فلان الفلاني من بلدة كذا ومن عائلة كذا . وربما تكنى احدهم بالامير او الشيخ الذي هو من رجاله وخاصته . وكانوا يقولون : هذا البيت من عهدة اوسمية الامير او الشيخ الفلاني ، فضلا عن انتسابهم قديمًا الى الحزب القيسي او الحزب اليمني ، ثم الجنبلاطي او اليزبكي ، ثم الاحمدي او العسَّافي ، ثم الكرمي او الداوودي .

واذا كان الرجل بين اهله في بلدته فلا يُعرف الَّا باسم ابيه او جده او فرع اسرته ، ذلك تمييزًا له عمن يدعى باسمه من اسرته نفسها . اما اذا كان خارجاً عن بلدته وسئل من اين انت ومن اية عائلة ؟ اجاب من مكان كذا من العائلة الفلانية مصرحاً باسم اسرته . ولهذا فان نزوح الافراد والاسر من مواطنهم وتغربهم عن بلادهم كثيرًا ما يجعلهم ان يصرحوا باسماء اسرهم

المعروفة في وطنهم والتي لا يحتاجون الى ذكرها والتلقب بها الا في الخارج وفي المهجر قريباً كان او بعيداً . وهذا كان من اهم الاسباب الداعية للانتماء الى الاسر الاصلية التي اشتهر الناس بها .

وهناك اسباب اخرى منها اختلاط القوم بالغربيين والاقتداء بهم في كثير من الازياء والعادات ، فقد قلدوهم بان يذكر احدهم اسمه واسم اسرته فقط . وبفضل هذا وغيره صرنا نسمع بذكر اسماء الاسر الاصلية التي كانت مهجورة مجهولة او منسيّة . ومما يجب ذكره ان الانتساب الى الاسرة دون ذكر الاب او الجد او فرع الاسرة ، مع ما فيه من الاختصار والاقتصار على ذكر اسم الاسرة الكبرى ، قد يؤدي احياناً الى الالتباس والغموض بحيث لا تتضح حقيقة الشخص الا بذكر والده وجده الى اخره . ولكل من الامرين فائدة اذ لكل مقام مقال .

الجامعات العائلية : وفي البلاد اليوم نهضة قومية لا بأس بها ، وهي ان الاسر اخذت تؤلف جمعيات او جامعات عائلية غرضها جمع شتات الافراد والفروع في الاسرة وتوحيد كلمتها واسمها بحيث ان تضامنها وتعاونها فيهما القوة والنجاح ، وعني بعض المفكرين بتأليف مشجرات وتواريخ للاسر مما لا تخفى فوائده . على ان بعض هذه الجامعات مع ما توخته من حسن القصد وشرف الغاية لم تؤسس على مبدأ صحيح بل على وحدة الاسم المشترك بين اسر تتفق اسماً وتختلف اصلاً ونسباً . وذلك لانها لا تتحدر من جد واحد ، فلا قرابة تجمع بينها ولا رابطة نسب . وقد يكون بعضها مشكوك كثيراً في صحة انتمائه الى الجد الجامع للفروع ، او بالحري مغلوط لانه مبني على الوهم او لغرض سياسي . واذن لا فائدة من هذه الجامعات اذا كانت على هذه الصورة سوى تعدّد الاحزاب والفِرَق مما نحن في غنى عنه . والاولى ان تؤلف الجامعات العائلية المؤسسة على وحدة الاصل والاسم ، فتهتم بتحقيق تاريخها وانسابها ، وتعنى بمصالح اسرتها المادية والادبية . ويكفي ان يحتفظ كل فرع منها بلقبه الخاص بشرط ان يعرف علاقته واتصاله بالاصل الجامع وسائر فروع الاسرة .

التحريف والتبديل : وهناك امور يجب التنبه لها وهي تحريف اسماء الاسر وتبديلها وتغييرها لاسباب غير صحيحة وبعيدة عن الحقيقة والصواب . فقد جرت العادة ان تضاف الى اسم الاسرة لفظة « أل » كأن يقال الحدّاد والصائغ والخيّاط والحمصي والحموي والاهدني والحصروني . فان « ال » لازمة لها لانها وُضعت في اصلها وَضع الصفات لتحقيق معانيها فيمن أطلقت عليه اولًا ، ثم غلبت على اصحابها غَلَبة الاعلام ولَزمت اسرهم من بعدهم ، بخلاف ما وُضع منها وضع العَلَم كفاضل (انظر الضياء للشيخ ابراهيم اليازجي ٨ : ٤٩٨) .

الا ان بعضهم يحذفون « ال » من اسماء الاسر ويقولون : حدّاد وخيّاط وحمصي واهدني الخ ، ويغيرون هذه الاسماء المشهورة بالحذف على خلاف الاصول. وهاك مثلا اسم بيت البشعلاني ، وهي اسرة مؤلف هذا الكتاب ، فانهم حذفوا منه اولًا لفظة « ال » فصار بشعلاني. وعمد غيرهم الى الابدال فقالوا : المشعلاني . ثم اتى الاخرون بالتحريف ابدالًا وحذفًا وقالوا مشعلاني . وهكذا اصبحت هذه الاسرة بفضل هذا التحريف اربع اسر : البشعلاني وبشعلاني والمشعلاني ومشعلاني ؛ مع انها اسرة واحدة مشهورة في التاريخ من قديم الزمان تنسب الى قرية بشعله في اعالي بلاد البترون . وقد ذكر البطريرك اسطفان الدويهي المشهور في كتابه « تاريخ الازمنة » اخبار جدها ابي رزق البشعلاني واخيه ابي صعب وسلالتهما يوم اقامتهم في مدينة طرابلس منذ ثلاثة قرون ، ثم رحلوا الى كسروان ومنها الى صليما المتن ، فضلا عما كتبه عنهم كثيرون من الشرقيين والافرنج . ولم يكتفِ المحرّفون بما فعلوه بل زادوه اوهامًا تبريرًا لعملهم بان نسبوا هذه الاسرة الى اماكن لا وجود لها .

ومنهم من كان ينتسب الى جد معين فنسبه بعض مدّعي التاريخ الى اسرة من الاسر الكبرى بحجة ان جده هو فرع من فروعها والعكس بالعكس، وذلك دون دليل سوى وحدة الاسم او بناء على رواية وهمية . ومنهم من يحذف من كنية اسرته لفظة « ابو » فيقول : بيت رزق عن بيت ابي رزق مثلا ، والحال ان هذه الكنية لا يصح اطلاقها الا على سلالة رزق فقط ، لانه اذا

كان لابي رزق الجد الجامع اولاد غير رزق فلا يدخل منهم بهذا الاسم الا رزق بخلاف كلمة ابي رزق فانها تشمل سلالة رزق وسلائل اخوته — وهكذا يحذف كثيرون لفظة «ابو» من اسماء اسرهم العريقة التي كان اكثرها يبدأ بهذه اللفظة .

المآخذ والمصادر : واغرب من هذا كيفية اخذ الاخبار عن الاسر عند بعضهم ، وهي ان يلتقطها دون تروٍّ ولا تحقيق ، او يتلقاها عن غير ثقة ، او يغير ويبدل فيها على حسب اهوائه او لغاية في النفس قصد المفاخرة بجودة الاصل وطيب العنصر ، فيعزو الى اسرته ما هو لغيرها من الصفات والاخبار . ومنهم من اذا سألته عن تاريخ اسرته وعما كان يقوله ابوه وجده واهله بشأن اصلها فيجيب : ان البطرك بولس مسعد كان يقول عنا كذا وكذا ، او ان الاستاذ عيسى المعلوف وجد تاريخ اسرتنا كذا وكذا . ان البطريرك مسعد كان يروي كثيرًا من اخبار الاسر ولكننا لا ندري اذا كان ما قيل عن لسانه قد رواه ثقة . اما الاستاذ معلوف فربما له معرفة بتاريخ الاسر اكثر من غيره لتجرده لهذا الامر وتنقيبه عن تاريخ الاسر ، ولكن اعتماده في الدرجة الاولى كان على الاخبار المروية بالخصوص عن العارفين من ابناء الاسر ، لان صاحب البيت ادرى بالذي فيه . فالاولى عند تضارب الاراء واختلاف الروايات الرجوع الى روايات الثقات في الاسر بعد معارضتها مع بعضها وتمحيصها ونقدها نقدًا صحيحًا مجردًا عن كل غاية وغرض .

الاسماء في الاسر : ومن العادات الجارية في الاسر العريقة المحافظة على الاسماء المألوفة وهي ان يسمي الاب بكره او غيره من اولاده باسم ابيه . فحنا بن منصور يسمي ابنه باسم ابيه منصور ، ومنصور هذا يسمي ولده باسم ابيه حنا . ومثله ابو ناصيف الياس وابو انطون فارس بحيث انه اذا ذكر اسم انطون تبادر الى الذهن انه ابن فارس وابو فارس جريًا على العادة المألوفة . وهكذا تبقى الاسماء التقليدية محفوظة في الاسرة على هذا الشكل اجيالًا وقرونًا . وقد ورد في الانجيل ان اليهوديات لما ارادت ان تسمي ولدها يوحنا

قالوا لها « ليس احد في قبيلتك يدعى بهذا الاسم » مما يدل على هذا التقليد المتبع في الاسر قديماً وحديثاً .

وهناك اسماء خاصة متغلبة في بعض الاسر او محصورة في بعض القرى قلما توجد في غيرها ، بحيث يستدل الباحث ان المسمى بها من الاسرة الفلانية او القرية الفلانية ، واذا وجدت في غيرها كانت غالباً مكتسبة . اما الاسماء المنتشرة بين اسر مارونية لبنانية كشيبان ونبهان وشهدان ، فانها كثيراً ما تدل على وحدة الاسر اصلاً ومحتداً . وقد يتخذها بعضهم شاهداً على ان هذه الاسر عربية الاصل ، الا ان تعدد هذه الاسماء في تلك الاسرة لا يكون وحده دليلا على صحة هذا المذهب الافتراضي ، لان هذه التسمية اتصلت الى الاسر المذكورة على الارجح من اختلاطها بالاسر والاوساط العربية قديماً او حديثاً ، كما ان تعدد الاسماء الافرنجية اليوم بين الاسر اللبنانية لا يكون دليلا على انها من اصل افرنجي بل ان السبب في هذا هو الاختلاط والتقليد الذي هو عريق في الآدميين ولا سيما فينا .

ومعلوم ان هناك اسماء مشتركة بين الناس على اختلاف اديانهم كيوسف وابراهيم ومنصور ، كما ان هناك اسماء خاصة بكل فرقة من الفرق الدينية مثل حاييم وراوبين لليهود وبطرس وطانيوس وحنا للمسيحيين ومحمد وعلي للمسلمين ، فلكل طائفة لها اسماء خاصة عدا الاسماء العامة . الا انه مع هذا قد يتسمى بعض هذه الفرق بما هو خاص بغيره من الاسماء ، فان متنصرة العرب ومستعربي السريان كانوا يتكنون بكنى المسلمين في عهد حضارتهم مع احتفاظهم باسمائهم الخاصة كحنين وبختيشوع واسحاق فيطلق عليهم ابو المعالي وابو البركات (انظر الخزانة الشرقية لحبيب الزيات في المشرق) وكان الامراء اللمعيون يكنون كراخيهم المشايخ بني كساب النصارى في صليما « ابو علي بشير » « وابو حسين يوسف » وكان الامراء الشهابيون يكنون اسرة الشيخ فارس الشدياق في حدث بيروت « بيت ابو حسين يوسف » ولا يزال بين اسماء مشايخ بني حبيش والخازن والدحداح اسماء اسلامية عربية مثل محمود وطالب ،

اتخذها بعضهم دليلًا على ان هذه الاسر عربية اصلًا اسلامية دينًا مما يخالف الواقع . اما بقاء اسماء محمدية بين الشهابيين واللمعيين الذين تنصروا فهو لان الشهابيين كانوا مسلمين واللمعيين كانوا دروزًا .

وقد رأى بعض المتحمسين للوطنية ان تصير مشاركة الطوائف في الاسماء توحيدًا للكلمة وتقريبًا للقلوب فسمى الاستاذ مارون عبود الماروني ولده محمدًا وسمى صديق له مسلم ولده مارون . لكن ذلك لم يزد الحب والتساهل حبًا وتساهلًا ولم ينقص التعصب والبغض تعصبًا وبغضًا . وقد كان العرب المسلمون في عهد الخلفاء العادلين يخالطون النصارى ويؤاخونهم ، لا يمنعهم اختلاف الاسماء وتفرّق الاديان من الالفة والمسالمة ، فعاش النصارى في الدول الاسلامية آمنين كما يعيش المسلمون اليوم في المستعمرات والمهاجر تحت حكم الدول النصرانية بتمام الراحة والحرية خلافًا لبعض الدول المتعصبة .

على ان اختلاط اللبنانيين بالاجانب حمل كثيرًا منهم على تقليد الغير في عاداتهم وازيائهم ولغتهم ، وتناسى بعضهم تقليدات اسرهم في امور كثيرة . على اننا مع هذا لم نعدم في الوطن والمهجر وجود كثير من ابناء الاسر اللبنانية الاصيلة ممن يصونون العهود ويحافظون على كل عادة شريفة وتقليد كريم من عادات وتقليدات الاباء والجدود ، فانهم مع اقتباسهم الكثير من اسباب الرقي والحضارة يحافظون جهدهم على المستحب من ادابهم وعاداتهم الشرقية ، كما ان نبهاء المغتربين منهم يحرصون على دينهم ولغتهم وتاريخهم وانسابهم ، ويحنون الى وطنهم مشاركين اهلهم واسرهم على البعد والقرب في السراء والضراء .

٢ – تاريخ الاسر المارونية

الغموض والاوهام : لا يخفى على العارف البصير ما في تاريخ الاسر اللبنانية من الغموض والالتباس ، وما دخل على اصولها وانسابها من الخرافات والاوهام . فليس هنالك مصادر موثوق بها ، ولا يمكن الركون الى الاخبار

المروية والتقاليد المنقولة وحدها . وليس من تواريخ عامة او خاصة يرجع اليها في هذا الشأن ، ولا اثار خطيَّة تكشف القناع عن حقيقة تاريخ كل اسرة ، ما خلا بعض الاسر الشريفة التي جمع بعض المؤرخين اخبارها من مصادر مختلفة او ورد ذكرها في التواريخ العامة . وما سوى ذلك فمعظمه روايات متضاربة ومخطوطات خاصة لا ينال الباحث غرضه منها ، ان لم يكن له من سعة الاطلاع ووفرة المحفوظ ونافذ الفهم ودقة النقد ما يتمكن به من التمييز بين الصحيح والباطل والتفريق بين الغث والسمين .

ضياع التاريخ : وان ما نُكبت به القبائل الشرقية ، وما اصيب به لبنان وعشائره ، ولا سيما المارونية ، من النكبات المتوالية ، كان من اكبر الاسباب في ضياع تاريخها ، وتشتت اخبار اسرها . واخر المصائب توالي النكبات على الموارنة بعد رحيل الصليبيين من هذه البلاد (سنة ١٢٩٨ م) وخراب كسروان (١٣٠٧ م) ونزوح النصارى الى الشمال ، ثم رجوع بعضهم الى كسروان في ولاية الامراء العسَّافيين ، وتنقلهم تدريجًا الى المتن والشوف والجنوب على عهد الامراء المعنيين . فهذه الرحلات والتنقلات المتعددة اضعفت تلك العصبية القديمة ، وفككت روابط الاسر وفرقت حلقاتها ، فضاع كثير من الاصول والانساب .

الالقاب والكنى : وكان من جرَّاء ذلك ان تبلبلت الالقاب والكنى في الاسر ، فلقب بعضهم باسم القرية التي نزحوا منها ، كبيت الاهدني والحصروني والبشعلاني والحدثي والحدثوني والحدشيتي والطرابلسي والكفوري وامثاله . وسمي غيرهم باسم وظيفتهم ومهنتهم كبيت الحداد والخياط والفران والشي والشدياق والخوري والقاضي . ولقب بعضهم بما لقب به جدهم لحادث او لواقعة او صفة اطلقت عليه كبيت باز وغانم وديب والاسمر والاصفر والشمالي . واطلق على اخرين اسم جدهم النازل البلد مثل بيت رزق وباخوس واسطفان وعون . وعلى الجملة فان هذه الالقاب الحديثة كانت ايضًا سببًا لضياع كثير من الانساب والاصول في لبنان . ولم يبقَ سوى ما توارثه القوم

وتناقلوه عن جدودهم ، وما تناولوه عن بعض النقلة من الاحاديث ، مما نكاد نشك في صحته لتشابه الروايات ومشاركة الالقاب في اسر عديدة ، بحيث اختلط الصحيح بالباطل والحقيقة بالوهم مما يستلزم نقداً وتمحيصاً لهذه الروايات المتناقضة .

التباس الاسماء : وهنالك تشابه الاسماء واتفاق الالقاب ، فالاسماء : رزق وكرم والخوري وامثالها تطلق على اسر كثيرة متباعدة النسب ، لا قرابة تجمع بينها ولا رابطة سوى وحدة الاسم . وهناك قرابة الخؤولة وقرابة الدخيل على الاسرة والمنتمي اليها بحيث يضيع النسب بهذه القرابة ويفقد اسم الاسرة الحقيقية ، اذ يتغلب على الشخص اسم اسرة والدته او خاله الذي رباه . وان يتخذ الدخيل والنزيل على الاسرة لقبها تقرباً اليها وتقوياً بها فيطمس ذكر اسرته مع الايام . وقد تلقب الاسرة باسم الام او الزوجة كبيت خضرا وبيت زهرة ، فضلا عن الالقاب التي اطلقت على بعض الاسر سواء كانت بحسب واقع الحال او تقليداً مثل بيت القاضي والحكيم . فكل هذا يقتضي الاستقراء وطول البحث والتنقيب .

الرواية والتقاليد : ولعل الناقد يأخذ علينا اننا لم نتوصل في تاريخ اسرنا الى مدى بعيد ، وان اخبار معظم هذه الاسر وتواريخها مرجعها التقاليد والروايات التي تقرب من الاساطير . ولكن لنا اسوة بكثير من الامم التي قلما يخلو تاريخها القديم من الخرافات والاساطير ، بل هناك اسر عديدة لا تاريخ لها من قبل مئة او مئتي سنة . واسر لا تعرف نسبها قبل ثلاثمائة سنة ، وقليلون جداً الذين يعدون حلقات سلسلة اسرتهم الى اربعمائة سنة ، وهذا نادر لا يوجد الا عند الاسر العريقة الحريصة على تاريخها وانسابها . اذن لا لوم علينا اذا قلنا ان ليس لدينا من اخبار الاسر المارونية من قبل القرن الخامس عشر او السادس عشر غير التقاليد المروية التي نذكرها ونحن في ريب من امرها . لان الباحث المحقق اذا بلغ هذا الحد من التاريخ فقد المراجع الراهنة والمصادر الاكيدة في تحقيق النسب ، وانقطعت حلقات السلسلة التي

تربط الحلقة بالجدود الماضين الذين لا نعرف من تاريخهم سوى اخبار لا يمكننا الاطمئنان الى صحتها .

ثقات الرواة : على ان فريقاً من جدودنا كثيراً ما كانوا يتحدثون عن ماضي احوالهم وحوادثهم المشهورة بصورة اكيدة جازمة ، لكنهم لم يدونوها فضاع منها الشيء الكثير . وعرفنا جماعة من الشيوخ المعمرة ، وفيهم فريق من نوابغ عصرهم ومن حفظة الاخبار الثقات يسردون الوقائع والحوادث واحوال الاسر واصولها وفروعها ومشاهيرها بدقة وضبط ، وهذه الروايات الصحيحة هي التي نعتمد ونحرص عليها ونستعين بها في تدوين اخبار الاسر وانسابها واحوالها .

عهد التدوين : هذا وقد كان من حسن الحظ ان بعض المفكرين في ذلك العصر كانوا يدونون الحوادث والاخبار بصورة موجزة وعبارة ساذجة على هوامش الكتب الدينية وغيرها لقلة خبرتهم بقواعد التاريخ . وقد وُجدت هنالك شذرات منثورة واخبار متفرقة وتعاليق وحواشي مدونة في اوائل هذه المخطوطات واواخرها لا تخلو من فائدة تاريخية مما استفاد به المؤرخون في مباحثهم وتآليفهم . ولم نعدم وجود مفكرين من علماء الموارنة قد بحثوا ونقبوا عن تاريخ امتهم ، لكنهم انصرفوا الى تحقيق اصلها وجمع اخبارها العامة . واعظمهم البطريرك اسطفان الدويهي ابو التاريخ الماروني بل اللبناني فقد كان همهُ تحقيق اصل طائفته وصحة معتقدها ونشر مفاخرها والدفاع عن حوزتها . وهكذا فعل علماء الموارنة وابناؤهم ، اذ نسجوا على منواله ولم يتهيأ لهم وضع تاريخ يضم اصل واخبار كل اسرة من اسرهم . والسبب هو ما ذكرنا من تشتت الشمل وتعدد المظالم والتنقل والهجرات المتتابعة بسبب الفتن والاضطهاد والجور . زد على ذلك الفقر والبلاء والضيق مما حلَّ بهذه الامة فشغلها عن وضع تاريخها ومعرفة اصلها وفصلها ، وقد اصبح همها الوحيد الاحتفاظ بدينها واستقلالها الداخلي في هذا الجبل الضيق . والمرء لا يبحث عن تاريخه الّا اذا خلا من الهم وزالت عنه الشدائد

هذا وهنالك اخبار ومعلومات تاريخية عن الاسر المارونية في عصورها القديمة ، لكنها ضاعت كما ضاع كثير من تاريخ هذه الامة في اول نشأتها ، منها اثار اثنين من علمائها القدماء المشهورين وهما : تيوفيل الرهاوي المتوفى ٧٨٥ م وقيس الماروني الذي عاش بين القرنين التاسع والعاشر . وقد ذكرهما ابن العبري في تاريخه السرياني (ص١٢٦) الذي نقله الى العربية العالم الخورسقف اسحاق ارملة ، وفي كتابه تاريخ الدول (٢٢) والمسعودي في تاريخه (١٥٤) كما فقدت اخبار كثير من البطاركة المارونيين الاولين ، وضاعت اثارهم لطول العهد وتقلبات الايام . على إن فيما كتبه الدويهي والدحادحة وغيرهم من علمائنا عما عرفوه او نقلوه من اخبار الطائفة المارونية واثارها واحوالها الاجتماعية والدينية ، نبذات وشذرات هي على قلتها وايجازها لاتخلو من فائدة لها قيمتها في تاريخ الافراد والجماعات .

التواريخ الخاصة : من البديهي ان اول ما يفكر فيه الانسان نفسه ثم اسرته ثم امته ، فيريد ان يعرف قبل كل شيء اصله ومنشأ اسرته وتاريخ طائفته وامته ووطنه ، ويمتد نظره الى ابعد من ذلك الوقوف على انباء البعيد والقريب عنه . وقد عثر الباحثون على نبذات وشذرات منثورة تكاد كلماتها تطمس لطول العهد ، تحتوي على اخبار بيت او اسرة وضعها احد افرادها او غيره ، فهذه وان تكن تواريخ خاصة ، فلا بد منها لتأليف تاريخ الاسر العام الذي يتألف من التواريخ الخاصة ، ويكوّن مجموعة تاريخية للاسر . حتى اذا كانت مرتبة على حروف المعجم دعيت قاموساً او موسوعة او دائرة معارف تاريخية للاسر ، وهي التي عليها يدور البحث الان والسعي لتحقيقها .

ومن التواريخ الخاصة « تاريخ العينطوريني » الذي لا يزال مخطوطاً وقد انشأه الشيخ انطونيوس ابي خطار العينطوريني (١٨١٧ م) وهو اول من نشر تاريخاً عن اصل الاسر الشريفة بلبنان ، فضلاً عما فيه من اخبار الحوادث اللبنانية . وتاريخ الاعيان للشيخ طنوس الشدياق الحدثي وهو مطبوع حوالي ١٨٥٩م وتاريخ بيت الخازن المخطوط انشأه الشيخ شيبان الخازن في اوائل

القرن الماضي وفيه الغث والسمين . وقد وضع البطريرك بولس مسعد تاريخاً موجزاً لبيت الخازن نشر بالطبع . ومن التواريخ الخاصة كتاب « دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف » طبعه مؤلفه المؤرخ البحاثة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف سنة ١٩٠٨ وفيه معلومات موجزة عن كثير من الاسر ، وله كتاب « في تاريخ زحلة » وكتاب « في تاريخ الاسرة اليازجية » وغيرهامن الكتب التاريخية الخاصة والعامة . ومن التواريخ الخاصة المطبوعة « المقاطعة الكسروانية » للخوري منصور الحتوني . وتاريخ « البقعة الشبابية » للخوري مخايل غبريل ، « وتقويم بكفيا الكبرى » للشيخ أدمون بليبل . « وتاريخ دوما » للخوري قسطنطين الباشا . « وتاريخ بسكنتا » للخورسقف بطرس حبيقه . وتاريخ دلبتا للخوري بطرس روفايل . ولكاتب هذه السطور كتاب مطوّل في « تاريخ بشعله وصليما » نشره بالطبع منذ بضع سنوات الى غير ذلك من التواريخ الخاصة باسرة او بلدة او مقاطعة . هذا فضلاً عما نشرته بعض المجلات والجرائد من تواريخ وابحاث عن الاسر اللبنانية على اختلافها ، والقليل الذي ورد في كتاب « دائرة المعارف » للعلّامة بطرس البستاني

التواريخ العامة : اما تواريخ الاسر اللبنانية العامة التي هي موضوع كلامنا فلا نعلم ان قد ظهر منها كتاب حتى الان . ويظهر ان بعض المفكرين حاولوا سد هذه الثلمة ، ولعل الدويهي حاول ذلك فلم يتوفق ، كما توفق في محاولته سد الحاجة الى تاريخ عن لبنان والموارنة . وقد انتشر كتابه هذا مخطوطاً ، الى ان نشرته المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٩٠ وتولى نشره يومئذ المعلم رشيد الخوري الشرتوني . واليوم جدد نشره على الطريقة العلمية حضرة الاب توتل احد فضلاء الاباء اليسوعيين وعلمائهم في مجلة « المشرق » فكان عمله اجل خدمة للتاريخ اللبناني . على ان الذين حاولوا بعد ذلك وضع تاريخ عام للاسر لم يوفقوا لانجازه حتى اليوم . والذي علمناه بهذا الشأن هو ما قد شاع وذاع ان افراداً من اللبنانيين كان لديهم مجموعات مخطوطة موضوعة او منقولة تحتوي تواريخ كثيرة او قليلة عن اصل الاسر ولا سيما المارونية .

وهذه التواريخ او المجموعات كما قيل هي ستة: ١ً : تاريخ القس (المطران) جرجس مارون الاهدني ، ٢ً : تاريخ القس يوسف اسكندر القرطباوي ، ٣ً : تاريخ البطريرك ميخائيل فاضل ، ٤ً : تاريخ البطريرك بولس مسعد ، ٥ً : تاريخ الخوري الزناتي الحصاراتي ، ٦ً : تاريخ خوري بلّا العنداري . وهذه التواريخ التي شاع ذكرها ونقل عنها الكثيرون تاريخ اسرهم ، لا تزال صحة اخبارها والمنقول عنهـا تحت البحث والريب مما سوف نفصله في باب « مؤرخي الاسر » ان شاء الله تعالى .

(له صلة)

العادات والتقاليد

اصلها – تأثيرها – اقسامها – تطورها – اصلاحها

بقلم لحد خاطر

العادات والتقاليد كلمتان يشدّ احداهما الى الاخرى رابط معنوي يكاد يجعلها في حكم الكلمة الواحدة ، بحيث يصح القول ان كل عادة تقليد وكل تقليد عادة .

ولعلّ في هذا ما يبرر اتخاذهما عنواناً لموضوع واحد تعالجان فيه معاً معالجة كثيراً ما يتسامح فيها بنسبة ما يقال عن هذه الى ما يقال عن تلك ، وفي تعريف كل منهما ، وما تدلان عليه من معنيين متقاربين متداخلين بيانٌ لا زيادة فيه لمستزيد .

ما هي العادة ؟

فالعادة لفظة مشتقة من العود . يقال عاد فلان الى كذا اي صار اليه ، ورجع ، وارتد بعد ترك .

وقد يراد بالعود مطلق الصيرورة ، فيقال عاده اي انتابه وبدأه ثانياً وصيّره عادةً .

والعادة هي الديدن والدأب ، سُميت كذلك لان صاحبها يعاودها اي يرجع اليها مرةً بعد اخرى .

ومنهم من عرفها باستمرار الناس على حكم المعقول ، وعادوا اليه تكراراً ، ويراد بها هنا ما استقرّ في النفوس من الامور المتكررة المقبولة عند الطبائع السليمة .

ويقول العامة من اللبنانيين : العادة طبيعة خامسة ؛ ذلك لان الطبائع في

عرف الاقدمين اربع : « الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة » وقد نسبوا اليها التحكم في الاجسام تحكماً لا غنى عنه ، لان فيه قوامها، وجعلوا العادة خامسها بمنى اشتمالها على مثل ذلك التحكم .

اما الافرنج فيقولون : « العادة طبيعة اخرى » والكلمة اساساً لارسطو، وهي على ما فيها من مباينة للكلمة الاولى في الظاهر ، تكاد تلتقي واياها معنوياً على صعيد واحد ، لان الطبيعة هي الكون وما وضع له من نظم لا يحيدُ عنها ، فاذا قيل : « ان العادة طبيعة اخرى » كان المعنى انها كون آخر يتحكم في الاجسام ، وهو ما جاء في العبارة الاولى نفسه سواء بسواء .

العادة في امثال العامة :

ومن امثال العامة في العادة ، وهي فلسفتهم الشعبية الخاصة المعربة عن اسلوبهم في النظر الى الامور ، قولهم : «عاده في البدن لا يغيرها الا الكفن — كل شي عاده حتى العباده — العاده بتقطع خرزة البير — كل بلاد ولها زيّ وكل شجرة ولها فيّ — من غيّر عادته بتقل سعادته — كل عمرك يا زبيبه في تفاك عود — كل عمره هـا الخدّ معوّدْ على ها اللطمه — ألّلي معوّد على خبزاتك كلما شافك بيهز زناره — يا معوّد لا تبالي ... — عوّد جسمك على ثوبين ، ولا تعوّد بطنك على رغيفين ... » وما الى ذلك من اقوال شعبية تدل على تحكّم العادة تحكماً يصعب الافلات منه

العادة في اقوال الشعراء :

وللشعراء في العادة ابيات متناقلة نذكر منها :

ان للعـادة سرّاً	طيّـه ضرٌّ ونفعُ
فبهـا للبعض خفضٌ	وبهـا للبعض رفعُ
وهي بالتكرار خُلقٌ	زانه بالفضل وَضعُ
فلذا الامثالُ قالتْ :	«عادة الانسان طبعُ»

وقال آخر :

عوّد لسانك قولَ الصدق تحظَ به	ان اللسانَ لما عوّدتَ معتادُ
موكّلٌ بتقاضي ما سننتَ له	في الخير والشر فانظر كيفَ ترتادُ

وقال غيره :

عادة الانسان سلطانٌ عـلا · طلقُ الحكمِ على الطبع اعتلى
وقـواه كجنودٍ بسلٍ · خدمته وبه نـال العلى

وقال الفرزدق :

وانتَ امرؤٌ عُوّدتَ للمجد عادة · وهـل فاعلٌ الا بما يتعوّد

وقال المتنبي :

لكلِ امرئٍ من دهره ما تعوّدا · وعادةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العدا

تعريف التقليد

اما التقليد فمن قلّد المرأةَ قلادةً اي جعلهـا في عنقها ، وهي متابعة الانسان غيره فيما يقول وما يفعل من غير نظر وتأمل في الدليل ، كأن هذا التابع جعل قول الاخرين وفعلهم قلادةً في عنقه وأحكم ربطها فيها احكاماً بليغاً حتى تكاد لا تفارقهُ .

وفي تعريف آخر حُدّد التقليد بكونه كل ما يقلد فيه المرء مَن تقدّموه جيلاً بعد جيل ، في شؤونٍ اتصلت اليه منهم بالمثل او الحديث خلوّاً من اية شريعة مكتوبة او قانون مسطور .

والتقليد عند النصارى واليهود هو ما تسلّموه وتداولوه من عقائدهم وشعائر دينهم ، خلفاً عن سلف ، جيلاً بعد جيل ، مما لم يدوّن في كتبهم المنزلة .

وفي تداول التقليد سواء أكان قولاً ام فعلاً عودٌ اليه ، ومن هنا نشأ ما يربط العادة بالتقليد ويسهل على الباحث بحثهما معاً بدون خلاف .

والتقليد عند العامة هو تشبه الاصاغر بالاكابر على غير مقدرة واهلية ، ويضربون على ذلك مثلاً الغراب الذي راح يقلد مشية الحجل ، فـلم يتقنها ونسي مشيته الخاصة فساءت حاله ، وهم يرمون في ذلك الى توقع مثل هذا المصير لكل ضعيفٍ يحاول التشبه بقوي ، في حين لا شيء لديه من وسائله ومقدّراته

وقد نظم احد الشعراء قصة محاولة الغراب تلك في ابيات شعرية ذهبت في شهرتها مذهب المثل وهي هذه :

ان الغرابَ وكان يمشي مشيةً | فيما مضى من سالفِ الاجيالِ
حسد القطاةَ ورامَ يمشي مشيها | فاصابهُ ضربٌ من العقالِ
فاضلَّ مشيتهُ واخطأ مشيها | فلذاك سمّوه ابا مرقالِ

الملكات والاخلاق :

ويتفرّع من العادات والتقاليد الملكات والاخلاق ، فكلُّ عادة يطول الاستمرار عليها تسمى « ملكة » ، لانها تمتلك الارادة بما يحدثه تكرارها في الدماغ من اثر لا يسهل محوه .

والملكة صفة راسخة في النفس تكسبها هيئة خاصة بسبب فعل من الافعال ، ويقال لتلك الهيئة حالة نفسية ما دامت عرضة للزوال ، فاذا تكررت ومارستها النفس حتى ترتسخ فيها اصبحت ملكةً ، وبكلمة اخرى اصبحت عادة وخلقاً . والخلق من معانيه العادة والسجية والطبع ، وهو في عرف العلماء ملكة تصدر بها الافعال بسهولة اي دون اي اجهاد او اعمال رويّة .

ويراد بعلم الاخلاق علمُ حسنِ السلوك

تأثير العادات والتقاليد :

وللعادات والتقاليد تأثير كبير وفاعلية ممتازة في حياة الامم والافراد ، لانها تقوّي في المرء شعوره بما يربطه بوطنهِ وقومهِ وبيئتهِ من علاقات ، وتنبّه احساسهُ الى واجبهِ في التعاون مع اخوانه على ما فيه خيره ومصلحته ، وتدفع المجتمع الى التنظيم والتناسق في الحركة والاتجاه والاوضاع ليمشي الجميع على نمطٍ واحد في التفكير والعمل ، ويسيروا الى اهدافهم على شكل ثابت لا يطرأ عليه تبديل اقتداء باسلافهم ، مما يربط ماضيهم بمستقبلهم ويجعلهم على الاتعاظ بما مرَّ بهم ، ليقتبسوا منه ما يحتاجون اليه في غدهم تحسيناً لحالهم ، واصلاحاً لمعيشتهم ، وعلى ذلك اذا ترقت العادات وجَمُلت كانت من اضمن الذرائع للرقي والتقدم .

اقسام العادة :

والعادة اقسام يتميز بعضها عن بعض بما يقوم بينها من تباين في المصدر والاثر والغاية ، ومن علماء النفس من بالغوا في تعداد هذه الاقسام ، والمأثور قسمتها الى :

١ً – بسيطة ومركبة
٢ً – ايجابية وسلبية
٣ً – جسمية ونفسية
٤ً – فردية ودينية واجتماعية
٥ً – مزاجية واكتسابية

العادات البسيطة والمركبة :

تكون العادة بسيطة فيما اذا حصلت بحركة واحدة لا يرافقها غيرها ، فاذا تعددت الحركات وتباينت دراكاً اصبحت مركبة . مثال ذلك : اعتياد سائق السيارة سوقها فان عمله يستدعي عدة حركات تتم معاً ، من مثل تحريكه المقود بيده ، وضغطه على اللجام برجله ، ونظره الى الطريق بعينه ، وتحدثه الى الركاب بلسانه ، فان كل حركة من هذه الحركات تعد عند التحليل عادة بسيطة او مفردة ، فاذا ضمت كلها معاً وجمع بعضها الى بعض اصبحت مركبة وهي المقصودة هنا . واكثر العادات هي من هذا النوع المركب لان المرء يكاد لا يأتي واحدة منها الا وقد اشترك فيها غير واحدة من قواه العقلية والجسمية بحركات كثيرة ، وعلى وجوه متباينة ، تجعلها مصداقاً للتركيب والتأليف .

يمثل على ذلك دورة الجندي على قدميه ، فان حركته على بساطتها تبدو عند التحليل مركبة من عدة حركات ، تعاونت القوى العقلية والجسمية على اتمامها . ومن اخص القوى الجسمية الرجلان ، فان كلًّا منهما عمل على حدة في اول الامر ، وبعد ذلك اشتركا معاً ، ويقاس على هذا غيره من اعمالنا ، وهو كثير لا يمكن حصره .

العادات الايجابية والسلبية :

تدعى عادة ايجابية تلك التي تستدعي منا عملاً ذاتياً يصدر عن قوانا الداخلية ، نحو ما نباشره كل يوم من اعمالنا المنزلية والمهنية والفنية ، وهو كثير نكتفي بالاشارة الى بعضه على سبيل المثال :

من ذلك اعتيادنا الاغتسال عند صبيحة كل يوم ، وارتداء الملابس ، وتناول طعام الافطار ، والتحول الى مباشرة اعمالنا ايًا كان نوعها .

اما السلبية فتلك التي لا تستدعي جهدًا ذاتياً ولا حركة شخصية داخلية، ولكنها تتمّ ببعض تأثرات خارجة ، مثاله : ان نتعود العيش في المناطق الحارة او الباردة ، او نألف نوعاً خاصاً من الاطعمة الحرّيفة او السامة ، او ندمن تناول الكحول حتى القوية منها كالوسكي والفودكا ، او المنبهات كالتبغ والكوكايين ، او نطيل الاقامة في بيئة اجتماعية خاصة كالمستشفيات ومصانع العقاقير الطبية ، ونعتاد تحمل ما فيها من دواعي المضايقة والازعاج .

العادات الجسية والنفسية :

العادة الجسية هي ما كانت متعلقة بالجسم : كالطعام ، والشراب ، واللباس ، والنوم ، والتدخين ، وما لكل انسان من اسلوب خاص في السير والجلوس والنهوض والتحدث ، وما يرافق ذلك من اشارات وحركات .

والعادة النفسية ما كانت متصلة بقوى النفس : كالصدق ، والكذب ، والامانة ، والخيانة ، والحب ، والبغض ، وغير ذلك من العادات الصادرة عن القوى العقلية بالتكرار والتمرن ، وهي تقتضي من اجهاد العقل ما تقتضيه من حركات الجسم ، كتحصيل مختلف انواع العلوم والفنون ومزاولتها .

وللعقائد الدينية علاقتها ايضاً بالنفس ولها اثرها المحسوس في اعمال المرء الباطنة والظاهرة الروحية والمادية الخاصة به وحده ، او العائدة الى علاقاته مع غيره .

وهذان النوعان من العادة يستطاع توحيدهما على اعتبار ان الحركات الجسية وجدت في الانسان خاضعة للقوى النفسية ، وان الله وهبنا الارادة الحرة لجاماً

نكبح به جماح اعمالنا ، ونعوّد انفسنا الخضوع للعقل الواجب ان يكون رائدًا لنا في كل امورنا .

العادة الفردية والدينية والاجتماعية :

وتدعى العادة فردية فيما اذا اختصت بفردٍ وكانت دليل امياله ومظهر طباعه ، وهذه تختلف باختلاف حالة كل انسان وبيئته وطرق اكتسابه ومكانته في دنياه ، مثال ذلك : ما يروى من غرائب العادات في بعض المشاهير من الرجال . منه ما قيل عن هايدن المؤلف الالماني انه لم يكن يقدر على الكتابة الا اذا دخل غرفته ولبس احسن ثيابه وكانت ريشته جميلة وغرفته متقنة النظام تسودها النظافة ، وعن فوكيير المصور الفرنسي انه لم يكن يقوى على اتقان التصوير الا اذا تقلّد اسلحته وتمنطق بسيفه على عادة الاشراف في ايامه ، وعن المشرع الشهير كوجاس انه لم يكن يحسن الكتابة الا اذا تمدّد منبطحاً على بطنه وانتثرت كتبه واوراقه ما حوله .

والعادة الدينية هي ما تبحث بما له علاقة بالدين وشؤونه على اختلافها ، اخص ذلك ما تعلق باحتفالات الاعياد وتذكارات المراسم الدينية عند كل طائفة مع ما فيها من رموز ومعانٍ .

والعادة الاجتماعية هي ما استعملها المجتمع في امة او اقليم او في المعمور عامة ، مما اتفق عليه الناس وألفوه اما بدافع المصلحة او العقيدة الانسانية او ظروف الزمان والمكان ، واكثر ما يجري ذلك بطريقة المتابعة لمن تقدمونا واورثونا عاداتهم فتلقفناها عنهم في الغالب دون فحص او تروٍّ . مثال ذلك : ما عند كل امة من عادات وتقاليد يسلّم افرادها بانها من اختصاصاتهم ، ولو كانوا لا يستعملونها هم بانفسهم ، من هذا النوع ما عندنا نحن معشر اللبنانيين من عادات اطلاق النار عراضة في الاعياد والاعراس والمآتم ، وما الفناه من الطرق في رقص «الدبكة» ، و«شيل القيمة» ، واستقبال الضيوف في اية ساعة جاؤوا ، والالحاح عليهم بمشاركتنا في الاكل والشرب والاكثار منهما ولو تضرروا ، الى ما هنالك من قراءة القصص ، وحكاية الحكايات في السهرات ،

ورواية اخبار الجن والعفاريت ، وما يرافقها غالباً من اقاصيص .

ومن العادات الاجتماعية ما يتبدل بتبدل الظروف والمحيط والحالة ، مثاله ذلك : ان نلبس الملابس الصوفية والاكسية المبطنة الثقيلة ، ونتناول المشروبات الكحولية المدفئة في المناطق الشديدة البرد ، ونرتدي الغلالات البيضاء الرقيقة ، ونشرب المثلجات والمبردات في المناطق الشديدة الحرّ .

ومنها ما اعتاده سكان المناطق الاوروبية التي يتوافر نزول الثلج فيها من جعل سطوح منازلهم على اشكال هرمية ، ليسهل انزلاق الثلج عنها ، فلا تتأذى ، بينا نحن سكان المناطق الحارة نصنعها على اشكال مسطحة افقية ، لان الثلج في بعضها قليل محمول ، وفي بعضها الاخر معدوم فلا خوف منه عليها .

اما ما نراه في لبنان من سطوح القرميد المسنّمة فكله حديث مقتبس عن الاوروبيين ، من باب التقليد والمباهاة اكثر مما هو من باب الاضطرار والحاجة .

يلتحق ايضاً بهذا القسم اعتياد الناس في القديم اشياء لم يكن لهم سواها لقوام حياتهم ، وقد الفوها فسهلت عليهم وتحولنا نحن ابناءهم عنها الى ما يفضلها من مستنبطات العصر ، فاصبح من الشاق علينا بل من المحال العود الى ما كان لهم .

كان مثلاً جدودنا في القديم يلبسون الطربوش المغربي والدامر او الكبران والسراويل الجوخية او الخامية المصبوغة بالنيل ، ويحتم علينا العصر الجديد ارتداء غير هذه الملابس .

وكانوا يسافرون ويتنقلون على ارجلهم او على ظهور الدواب ، اذ لم يكن لهم ما عندنا اليوم من مركبات وسيارات وطرق معبّدة مفروشة بالزفت .

وكانوا يستصبحون بانوار اللقش وزيت الزيتون والشمع ، اذ لم يكن لهم ما جاءتنا به الاختراعات الجديدة من الزيوت النفطية وقناديل اللوكس ثم الكهرباء . وما لها من نعم عديدة كادت تجعل ما كان يحلم به مؤلف الف ليلة وليلة حقائق حسية ملموسة . ومن الطبيعي ان ابناء اليوم لن يعودوا الى ما كان عليه جدودهم ، الا اذا وجدوا في مثل حالتهم ، ولذلك قالوا : «للضرورة احكام ! » .

اثر العقائد والآراء في العادات الاجتماعية :

اما تباين العادات والاعمال بتباين العقائد والآراء فمثاله : ان الذين يعتقدون بالتقمص والتناسخ والعود الى الحياة قلما يأبهون للموت . ويقال ان نابليون سعى في نشر هذه العقيدة بين جيشه في حملته على روسية ليحمله على المفاداة واللامبالاة في مجابهة الموت ، وان اعتقاد قدماء المصريين بالخلود هو الذي حملهم على تشييد الاهرام قبوراً لملوكهم ، وعلى استنباط التحنيط الذي حفظ لنا حتى اليوم مومياءاتهم وابقى لنا في دفائنهم ، تلك الكنوز الاثرية نموذجاً لما كانوا عليه من رقي وحضارة .

وان فكرة الاقدمين في بقاء الاقوى ودوس كل ضعيف هي التي ادت الى انتشار الاسترقاق والتسخير واستثمار الانسان للانسان ونبذ الفقير والعامل ووأد البنات والتضحية بالاطفال ودفن المرأة حية مع زوجها ، الى غير ذلك مما هو في عادات الاقدمين من هذا الطراز ، وقد قضى عليه ما طرأ على الافكار والآراء على توالي الايام من تطورات جديدة .

العادات المزاجية والاكتسابية :

ما كانت العادات لتحسب مزاجية بالحصر الا من جهة تأثرها بما ركب في المرء من مزاج ، وفطر عليه من طبع وخلق وسليقة ، فان فريقاً من علماء النفس والاطباء والفلاسفة يذهبون الى ان عادات المرء يستمد نوعها وجوهرها مما يتألف منه جسمه من عضلات وغدد واعصاب ، ويجري في شرايينه واوعيته الدموية من كريات حمراء او بيضاء ، تتكيف بها حركاته وعواطفه واعماله . وهذا ما يسمونه المزاج ، وغالباً ما يرث المرء مزاجه عن سلالته ، ولا سيما والديه ابيه وامه ، وبعد ان يبصر النور ينمو فيه ذلك المزاج ويقوى بما يتناوله من غذاء وطعام ويتوافر حوله من اسباب للحركة والقوة ومقومات الحياة ، فاذا ترعرع ظهر فيه ميل خاص واستعداد فطري لهذه العادة او تلك ، ومفعولات هذين الميل والاستعداد هو مما اردنا تسميته بالعادات المزاجية .

ويتمثل العامة من اللبنانيين ، تأييداً لمذهبهم في هذه العادات ، بولدين احدهما

ابن ملك والآخر ابن غجري من القوم المعروفين عندنا « بالنَوَر » المشهور امرهم في لبنان ، ضاعا وفي اثناء ضياعهما لاذا بكنف رجل تبناهما واكب على تثقيفهما معاً على نمط واحد ، حتى اذا شبَّا تباينت اخلاقهما فظهرت في الاول الصفات الخاصة بالملوك ، من حب الضرب بالسيف ، وركوب الجياد ، وميل الى الكرم والجود ، والسيطرة على الاتراب ، والتحكم فيهم ، والفصل في ما يقع بينهم من منازعات .

اما الآخر ابن الغجري فقد قاده مزاجه الى المهارة في الرقص والغناء ، وعمل المناخل وسرقة الدجاج ، مما كان يزاوله ابوه وامه من قبله ، وذلك دون ان يتعرف احد منهما الى ذويه او ان يتصل به اي شيء عن اصله وفصله .

وبهذا يقول العامة من اللبنانيين في امثالهم : «الاصل عون — دور الدوره ولو دارت وخُذ الاصيله ولو بارت — عليك بالاصيله ولو على الحصيره — الاصل بيعين ولو من جب تين . »

وكثيراً ما سمعتهم يتمثلون في هذا المعنى بقصة جرو ذئب اصطاده راعٍ وضمه الى غنمه فحنت عليه شاة وغذته بحليبها ، حتى اذا كبر استيقظت فيه غريزة الشر والشراسة فبقر بطنها وافترسها فقال فيه الراعي :

بقرتَ شويهتي وفجعتَ قلبي وانت لشاتنا ولدٌ ربيب
غُذيتَ بدرّها وربيتَ فينا فمن انباكَ أن اباكَ ذيبُ
اذا كان الطباعُ طباعَ سوءٍ فلا لبنٌ يفيدُ ولا حليبُ

ومثلهم هذا لا ينطبق تماماً على العادات المزاجية ، لانه بالشكل الذي اوردناه ، يشير الى الغريزة ، والغريزة تفترق عن المزاج بكونهـا لا تخضع للاعتياد ، والمزاج يخضع له .

اخصُّ الامزجة :

والامزجة في الناس كثيرة تتبدل بتبدل مظاهر هياكلهم الجسدية وانواع بنيتهم واخصها اربعة : الدموي واللمفاوي والعصبي والصفراوي .

فيغلب في الاول التقلب في الرأي ، والتسرع في الحكم ، مع شيء من الصلاح وجودة القلب .

واكثر ما يكون الثاني خامل الهمة ، قليل التأثر ، يلازم اعماله في الغالب السأم والاهمال .

ويعرف الثالث بالذكاء ، والنشاط ، وسرعة الخاطر ، ودقة الاحساس . واشهر ما يقال في هذا الصنف انه سريع الغضب سريع الرضى .

اما الرابع فينسب اليه حسن الرأي ، والدأب على العمل ، وطول الصبر والاناة . ويقال ان اكثر الذين لمعوا على مسرح الحياة واحصوا بين النوابغ العباقرة كانوا من هذا الصنف .

اهم السلالات :

وتقسم السلالات ايضاً اربعة اقسام

الاولى البيضاء او القوقاسية وهي تمتاز بجمال الوجه والسحنة ، وسعة الجبين ، وتوازن العينين ، وطول القامة ، ونعومة الشعر ، ورباطة الجأش ، وحدة التصور ، والقابلية للرقي ، وحذق العلوم ، والثبات في الاعمال .

والثانية الصفراء او المغولية وهي تعرف بصفرة اللون او سمرته ، وبعلو الوجنتين ، وبروز الفك ، وصغر العينين ، وقصر الانف والقامة ، وخفة شعر اللحية . ويغلب فيها التحفظ ، والحيلة ، وصلابة الارادة ، وقساوة القلب ، والبراعة في التقليد .

والثالثة السوداء او الزنجية المتصف اصحابها بسواد البشرة ، وجعودة الشعر ، وكبر الانف ، وغلاظة الشفتين ، وصفرة الوجنتين ، وطول الايدي ، وعرض القدمين . ومن ميزاتها الامانة ، وكمون الحقد ، ومفاجأة من يسيء اليها بانتقام غير منتظر ، وقلة ما فيها من وسائل الرقي والتقدم .

والرابعة الحمراء النحاسية ومنها الهنود الاميركيون وعددهم لا يزيد على عشرة الاف ، يغلب فيهم الحذر ، والنفور السريع ، والصبر العجيب على احتمال المكاره والالام .

دور الفراسة في الاستدلال على الاميال والاخلاق :

ومن الناس من ينزلون الفراسة منزلة الامزجة والسلالات في الاستدلال على الاميال والاخلاق ، وقد وضع بعض العلماء كتباً مطولة في هذا العلم ، تلمع

الى ما تدل عليه الملامح وتقاسيم الوجه من الاستعدادات والرغائب

ويسند هؤلاء مذهبهم الى ما جاء في اقوال الحكماء من عبارات ذهبت مذهب المثل منها قولهم : « الوجه مرآة القلب — الظاهر دليل الباطن — العين نافذة النفس — سيماؤهم في وجوههم »

على ان المعول عليه في هذا الموضوع هو ان الظواهر كثيراً ما تخدع . وقد قيل عن داخل المرء انه صندوق مقفل لا مفتاح له الا التجربة . اجل قد تدلّ الملامح على بعض الاميال ، ولكن وراء ذلك العقل والارادة فانهما المحركان الاساسيان للاعمال ، وكل ما يتم بمعزل عنهما هو شيء بارد تافه لا قيمة له ولا شأن في عالم المعنويات .

كيف نكتسب العادات والتقاليد ؟ :

وتكتسب العادات والتقاليد تدريجاً منذ الصغر بان تنتقل عن طريق الحواس الى المخيلة حيث تنطبع بصورها واوضاعها في صفحة الذهن ثم يأتي التكرار فيزيدها مكنة ورسوخاً .

والاكتساب وجوه كثيرة اخصها « القدوة » وهذه قد تكون حسنة ، فيما اذا كان الموضوع المقتدى به صالحاً مفيداً ، يقود الى عمل الخير ، ومجانبة الشر ، ورعاية الضمير والواجب ، وتكون سيئة فيما اذا كان ذلك الموضوع ضاراً ردياً ، يقود الى الشر ، والحاق الاذى بالناس ، والاستخفاف بالواجب .

ومنها « العشرة ، والبيئة ، والتعامل ، والقراءة » وهذه قد تكون مفيدة وضارة ، ولا يفوت اللبيب كيف ينبغي عليه ان يميز بين الامرين فيما اذا سعى الى ذلك تحت رقابة العقل ، اكتساباً للعادات الفاضلة والتقاليد الراقية .

ومن وجوه الاكتساب « التربية » باطوارها الثلاثة : البيتية ، والمدرسية ، والاجتماعية ، فانها في جميع ذلك اساس للعادات والتقاليد ، وعامل اولي لترقية المبادىء ، وتهذيب الاخلاق ، وتوسيع المعارف والمعلومات .

اما الاولى فهي بمثابة الركن من البناء ، فان حسنت كانت بشيرة بالهناء ، وان ساءت كانت نذيرة بالبؤس والشقاء ، والولد فيما يكون كالمرآة ينعكس فيه

كل ما يراه ولا سيما من مربيه . والمربون الاولون هم الوالدون ، ولا خلاف في ان للام الاثر الاعظم في التربية البيتية ، لان الولد ينشأ بين يديها ويترعرع في كنفها تحت ناظريها .

وتأتي بعدها التربية المدرسية وفيها يطبق العلم على العمل ، برعاية الاساتذة الذين يحلون محل الوالدين في تثقيف النشء ، واصلاح ما قد يكون نال تربيته البيتية من مفاسد تخل بجمال الفضيلة ، وتمس بصحة المبادىء وسمو الاخلاق . وقد قالوا : « لولا المربي ما عرفت ربي — واملأوا المدارس تفرغ السجون — والامم التي لها ارقى المدارس هي ارقى الامم» .

وليس للتربية الاجتماعية مربون خصوصيون ولكنها تتم بالمخالطة ، والتعامل ، والتأثر بالمحيط والبيئة ؛ ويسميها اللبنانيون « مدرسة الدهر » ومن امثالهم في ذلك : « ابنك لا تعلّمه ، الدهر بيعلّمه » . اجل ان الدهر هو المعلم الاكبر لا تكمل لامرىء تربية ولا تأديب الا اذا عاركه ودرس عليه ، لانه ، وهو فرد في مجموع ، مضطر حكماً الى دخول هذه المدرسة ، التي هي العالم ، ومشاركة طلبتها ، وهم الناس على اختلاف طبقاتهم ، في تحصيل شتى المعلومات في كتاب لم تطبعه مطبعة ولم تخطه يد ، وهو كتاب عبر الازمان وطوارق الحدثان .

ركن العادات والتقاليد :

وللعادات والتقاليد ركن تستند اليه في الحكم على ما لها من حسن او رداءة ومن فائدة او ضرر ، وما اشبه هذا الركن بميزان تعاير به العادات والتقاليد وتزاز ليعرف ثقيلها من تافهها ، بل هو المحك الذي تنتقد به او تضرب عليه ليظهر صحيحها من زائفها .

ومن الناس من يجعل ركن هذه العادات والتقاليد « الذوق » الذي يميل بداهة الى كل جميل ، ولكن «الذوق» يختلف في الناس اختلافهم في البيئة ، والعافية ، والاحساس ، والتربية ، والمذهب ، فلا يصح اتخاذه سنداً للحكم .

ومنهم من يجعل هذا الركن « حكم الجمهور » وهو زعم باطل لان هذا اي « حكم الجمهور » لا يسهل التوصل الى معرفته ، واذا سهل فقد يضل

كحكم الفرد ، وفضلا عن ذلك ، فان حكم الجمهور في استحسان شي. لا يمكن ان يكون علة حسنه ، بل هو معلوله والمعلول لا يصح ان يكون ركناً .

والقول السديد في هذا الشأن هو ان « الواجب الادبي » قد جعل بكثير من الصواب اصح ركن للعادات والتقاليد ، لانه في الكون ذلك النظام السرمدي الشامل المعقول الذي يأمر بالخير والمعروف ، وينهى عن الشر والمنكر ، بل هو ذلك الوازع الداخلي الذي يزن القيم بميزان العدل ، ويدعو الى الصلاح والفضيلة ، عملاً بناموس محفور على حنايا الصدور ، لا يقوى احد على محو حرف من حروفه ، ولا على تعديل اية كلمة من سلك كلماته .

فعلى كل امة ان تستند الى هذا « الركن » المكين في الحكم على عاداتها وتقاليدها ، لتنزهها عن الشوائب والمعائب ، وتبعدها عن الاسفاف والسخف والخرافة والبدعة ، ويجعلها اخامة متضخة بعطر الاخاء والمحبة والعدالة ، وهي العوامل التي يشيد عليها صرح الاخلاق ، ويرقي المحيط ، ويتسع المجال للاستفادة من ذخائر الكون ومكنوناته .

تطور العادات والتقاليد :

ومن لاحظ العادات والتقاليد في سياق الاجيال ، رآها خاضعة لسنة التطور والتبدل ، تبعاً لمقتضيات العصور والحوادث .

فمنها ما ينحط من ذاته ويضعف تدريجاً الى ان يزول ويحل غيره محله .

ومنها ما تطغى عليه ظروف قاهرة ، تضطر المجتمع الى تركه ، واكثر ما يقع ذلك في الجلاءات والمهاجرات اثر الحروب ، والثورات والجوائح الطبيعية ، التي لا تقوى يد الانسان على صدها او تخفيف تبعاتها .

ومن ثم يكتسب من تكون تلك حالهم عادات وتقاليد جديدة تكون طوراً لخيرهم ، وتارة لضررهم ، واكثر ما يكون التطور الضار ، فيما اذا جاء عن طريق مستعمر ، يحاول استعباد البلاد بمحو عاداتها وتقاليدها ، واحلال غيرها محلها .

ففي مثل هذه الحال يتحتم على الشعب المستضعف، الذي يحاول الاقوياء التهامه بمثل هذه الذرائع، ان يستمسك بعاداته وتقاليده، لتظل دعامة لكيانه، واساساً لاستقلاله وسلطانه.

ان التطور في العادات والتقاليد امر لا بدّ منه، ولكن الفطنة توجب علينا بالّا نتسامح بوقوعه الا بتؤدة وحذر مع المراعاة لظروف الزمان والمكان والمحيط، وما يترتب على التسامح به من نتائج وتبعات.

ان تبديل العادات صعب لكنه ليس بالمستحيل، فيما اذا استهدف بقوة ارادة وطول اناة، وكان ما يدور حوله على تلاؤم مع الحضارة الناشئة، وملابسات المعيشة، والنهضة التقدمية والعلمية.

دور الزعامة في تطور العادات والتقاليد:

وقد كان للزعامة دورها المؤثر في تطور العادات والتقاليد، فهي التي بنفوذها تساعد على تنقيتها من الشوائب، ووضعها في شكل موافق لخير الجمهور، هذا فيما اذا كانت منزّهة القصد، ذات رأي حقيق بالاتباع، وكان القائمون بها ممن لهم كلمة نافذة، ورغبة محضة للخير، وقد عرفوا بالوجدان الصحيح، والضمير الحي والعقل الراجح، واتصفوا بالرصانة والحكمة وحسن البصر في الامور، واهتموا بوقف زعامتهم على خدمة الوطن ونشر افضل ما تنتجه الحضارة العالمية بين ابنائه.

والزعامة اللبنانية الموروثة في خدمة العادات والتقاليد تاريخ حسن، حافل بذكريات ومآثر كثيرة، قام بها زعماؤنا في الامس، اصلاحاً لبعض ما كان يعتور عاداتنا وتقاليدنا من شوائب ومساوئ.

وها نحن نذكر من ذلك على سبيل المثال:

اولاً: ما أمر به الامير بشير الكبير عند وفاة اخيه الامير حسن من ترك بعض العادات المأتمية الكثيرة التكاليف، التي كانت دارجة في جنازات الكبراء، والاعتياض عنها بما هو اسهل منالاً واقل كلفة وعناء.

ثانياً: ما فعله المطران طوبيا عون مطران ابرشية بيروت، من سنة

١٨٤٤ الى ١٨٧١ بايجابه على نساء ابرشيته، في اثناء دورة راعوية قام بها سنة ١٨٤٧ ، ان يتركن لباس الرأس المعروف بالطنطور ، تخفيفاً لما كان يسببه لهن من ازعاج ولازواجهن من نفقات .

جمعية لاصلاح العادات والتقاليد :

ولقد تضاءلت الزعامة اليوم وتبدل حالها ولم يبق لها مثل نفوذها من قبل، ليرجى منها الاهتمام باصلاح ما اختل من تقاليدنا وعاداتنا ، فيخلق بنا والحال ما ذكر ان نعنى بتأليف جمعية ينخرط في سلكها نخبة من مفكري الطوائف واصحاب الشأن تسد مسد الزعامة المستضعفة المتوارية، في درس تلك العادات والتقاليد ، والاشارة باستبقاء ما يحسن منها ، والاعراض عما يقبح وذلك بقرارات تتخذها بالاكثرية ، بعد مناقشات قانونية ، وتستعين بالحكومة ورجال الدين على انفاذها ،لان هذين المرجعين هما الان اكثر هيئات البلاد وزعاماتها استطالة وقوة .

ولكن من اهداف هذه الجمعية ايضاً تقريب العادات والتقاليد بعضها من بعض ، فيجعل مثلاً نظام واحد عند جميع الطوائف ، للاجتماعات العيلية ، وتقاليد الولادات ، وحفلات التنصير ، والتطهير ، والخطبة ، والاعراس ، والمآتم ، وينتقى زي واحد للبس تجمع عليه كل الطوائف ، فلا نظل نحمل في الشارع ما يدل على عنعناتنا المذهبية ، ونفتح قاعات بيوتنا لاستقبال الاصحاب من اي طائفة كانوا ، فان ذلك مما يشد بيننا اواصر الاخاء والتفاهم ، ويعود على مجموعنا ومدنيتنا بما يجمع الشمل ويوحد الاهداف والمنازع .

توحيد العادات والتقاليد :

اما ترى كيف ان عاداتنا وتقاليدنا ما زالت حتى اليوم فوضى ، تختلف باختلاف الدرجات والمناطق والمذاهب، مما يحمل الغريب على النظر الينا بلاحظة الدهش، والظن بان بلادنا مسرح تمثل عليه نموذجات لمختلف الاجناس والقوميات؟ نجد هاهنا فئة تعيش بيننا على اساليب محض اوربية، في اطعمتها وملابسها ومعاملاتها وطرائق تفكيرها .

وهناك فئة اخرى نصف اوربية ونصف لبنانية ، يريد بعضها الافلات من عاداته وتقاليده العريقة في القدم ، ولكن بعضها الاخر يمسك بتلابيبها ويؤخر سيرها ويلجئها الى البقاء على حالها الى ما لا يعلمه الا الله .

وهنالك فئة ثالثة ما زالت تعيش كما كان يعيش جدودنا من منتي عام ، لا يريدون عما هم فيه تحوّلاً ، ولا يرضون عن اساليبهم العتيقة بديلاً .

ومما يؤسف له ان هذه الحالة كادت تؤدي الى انقطاع الصلات الوطنية ، بين هذه الفئات ، لانها بينا اجتازت احداها مراحل بعيدة في مضمار الحضارة والرقي ، وقفت الاخرى جامدة حيث كانت ، وهو مما يباعد بين ابناء الوطن الواحد ، بل يكاد يفرقهم ايدي سبا .

فاذا رُبطت هذه العادات والتقاليد بعضها ببعض ، زادنا ربطها وحدة وقوةً ، ولا يخفى ان التباين في عادات البشر يبعث بهم على الجفاء والمقاطعة والمدابرة ، وان التماثل والتشابه فيها يهيب بهم الى المؤانسة والممازجة في العواطف ، والاتحاد في القلوب والرغائب ، فالمرء من طبعه ينفر ممن يخالفه في مظاهره ، ويرغب في موالاة من يشابهه فيها ، ويوافقه عليها ، وبقدر ازدياد المشابهة بين فريقين يزداد الولاء بينهما استحكاماً ، وبقدر ازدياد المخالفة تزداد النفرة استفحالاً .

ترى الى مَ يبقى هذا التباين باللباس في اسواقنا واجتماعاتنا — القنباز الى جانب ، والسراويل الاوربية الى جانب آخر — القبعة الاوربية من جهة ، والعقال والكوفية من جهة اخرى .

اجل ليس ما يمنع ان تكون للبنانيين عامة مظاهر واحدة في اللباس يتمشون عليها جميعاً ، طالما ليس في هذا التوحيد ما يخالف العقائد المذهبية ، وانما هو تقليد اجتماعي وضع اكثره اولياء الامر ، منذ القديم ، وكانوا يميزون فيه بعض الطوائف على بعض ، ليقيموا بينها الفواصل والفوارق ، زيادةً في تباعدها وتخاذلها ، ولئلا تتحد ضدهم ، وتقوى عليهم ، فكان مثلاً بعض الحكام يأمرون بان يلبس ابناء المذهب الفلاني غير ما يلبسه ابناء المذهب

الاخر ، وذلك لما عرفوه من ان التفريق بين ابناء الرعية في اللباس يباعد بين قلوبهم ، راجين استغلال ذلك فيما هو من مصلحتهم الخاصة ، لا من مصلحة سواهم .

تلقين العادات والتقاليد الحسنة في المدارس :

وهناك طريقة اخرى لاصلاح العادات والتقاليد ، هي ان يُلقنها النشء في المدارس ، ويؤدي عنها امتحاناً ، وذلك يستدعي وضع كتب مدرسية لمختلف درجات التعليم ، يبحث فيه الموضوع على شكل جديد ، يوافق روح المجتمع العالمي العصري ويلائم نزعتنا الشرقية وبيئتنا اللبنانية ويتناسب من الوجهة الاجتماعية مع مقدسات كل طائفة ، فيقترب اللبنانيون بذلك بعضهم من بعض وتتشابه احوالهم وتتمازج عواطفهم ويصبحون امة موحدة المشارب ، والاذواق ، والمناحي ، تجمعها طرًّا تلك السمة اللبنانية العزيزة ، التي نمتاز بها ونحملها بفخر ، ونبذل النفس والنفيس للحفاظ عليها .

الطيران وعلم الآثار

البحث عن الحضارات البائدة

بقلم الاب انطوان پوادبار اليسوعي

ظهرت الطائرة منذ الوهلة الاولى من استخدامها انها من خير الادوات فائدة للجغرافية التي تبحث منذ زهاء ثلاثين عاماً عن وسائل جديدة لاكمال معداتها. وكانت فائدة الطائرة من ناحية الجغرافية الطبيعية او درس طبقات الارض التي تتزحزح من مواطنها ليحل غيرها على التبادل محلّها ومن الناحية الجيولوجية والجغرافيتين الانسانية والاقتصادية كلتيهما. وقد بدت انها باستطاعتها ان تؤدي خدمات جلّى.

فهي مرصد متحرك سريع التنقل توسّع مدى الرؤية وتحدّدها وتوجهها بحسب ما يفتقر اليه المراقب والمصور وتخوّلهما التقاط مشهد البلاد التي تحلق فوقها التقاطاً واقعياً يجنب العين والعقل مواطن الزلل اذ تُظهر تشابك خطوطها ونتوءآت تركيبها وكيفية دحوها وشكل سلاسل جبالها وشبكة مجاري مياهها وتسامق غاباتها وشتى ضروب زراعتها وكيفية توزيع مساكن قبائلها ووسائل مواصلاتها وخطوط تبادلاتها الرئيسية وبكلمة واحدة انها تريها وجه الارض الحقيقي وكيفية تكوين كل حياتها الاقتصادية السابق.

وامام هذه الساخرة بالابعاد ما من مسافة يعتدّ بها وليس من عقبة تقف في وجه جناحيها. ولقد استعصى مرتقى جبل اڤرست الشاهق على اشهر المتسلقين ان يتوقاوه وهم من الذين لم تخر لهم عزيمة عن بلوغ قمته. على حين ان الطائرة التابعة للمصلحة الفنية الاختصاصية الجريئة والبعيدة النظر في وقت واحد قد سجلت انتصارها الرائع في هذا الباب. ففي اليوم الثالث من نيسان سنة ١٩٣٣ حلّق الكولونيل ل. ف. ص. بلاكر (L. V. S. Blacker) فوق

هذه القمة الجبارة وكاد يلامسها : اي حلّق فوق هذا الطود الذي لم تطأه رجل انسان وجلب معه من عمله هذا الباهر فلماً سينائياً مؤثراً .

وبعد ان ابلت الطائرة البلاء الحسن وكانت السبيل المحقق للآتي التي تتطلب الاقدام طلب اليها الفكر ان تساهم في حل رموز التاريخ القديم على الارض فتقدم مساعدتها للجغرافية التاريخية او هـذا العلم الذي هو عون علم الآثار ومحصله في آن واحد .

وعلى هذه الرقوق حيث ازدهرت قديماً حضارات راقية فان الارض لشبيهة برق سطرت عليه كتابات اثرية تحت نص كتب حديثاً فلا تزال تحتفظ بابعد الوثائق القيمة قدماً اذ نرى بابهام اثر الكتابات المكدسة بعضها فوق بعض .

وفي سبيل اكتشاف سر هذه الرقوق التي طمست كتاباتها القديمة وكتب فوقها من جديد ، قد استنفد العلماء المتخصصون بقراءة الكتابات الاثرية جميل صبرهم وذكائهم . فتوصلوا باستخدام المكبّرة وشبجينة التصوير الشمسي والتظهيرات الكيمائية والاشعة وراء البنفسجية الى ان يقرأوا سطراً فسطراً وكلمة فكلمة نصوصاً مطموسة . واذا اتفق لهم تارة ان ذهبت اتعابهم بدون جدوى فانهم قد فازوا طوراً بافضل مكافآت على جهودهم .

ان كتاب الارض لمثقّل بخطوط الحضارات المختلفة التي تتابعت في البلدان نفسها . — وما اكثر تكديس هذه الكتابات بعضها فوق بعض — فبواسطة اية ادوات يستطاع تمييز الخطوط المرسومة تحت غيرها منذ عهود خالية وهي خطوط احدث منها عهداً ؟

وباستخدام اية مادة كيمائية يستطاع ارجاع الرسوم المطموسة لتعود الى بروزها بروزاً يسمح بقراءة الصفحات الممحوّة ؟

ولقد كان لا بد من بحث هذه المسألة التي دُرست وحُلّت ومع ذلك لم يكن طبعاً بالاستطاعة ان تسفر عن نتائج قيّمة الا في المكان الذي لم يطمس فيه الحاضر الماضي طمساً كاملاً تحت استواء التراب الذي جعل جميع التنقيبات بدون جدوى تقريباً . اما الصحراء التي شهدت الحضارات البائدة فان طائرة

الاستكشاف والتصوير الجوي الشمسي قد اسفرا فيها عن نتائج باعثة على الاعجاب .

طريقة البحث الجوي في الصحراء

لقد بسطنا نتائج اعمالنا الاولى سنة ١٩٣٤ في كتاب نشر بمساعدة وزارة الطيران[1] وندوة الاثار والاداب وكان المؤلف الاول من سلسلة مؤلفات عددها ثلاثة كتب[2] لما تنته .

وكما تغنم المهارة في الصيد سانحة الحظ كذلك خدمت الظروف العالم الجغرافي فكان عليه ان يستفيد منها ويتلخص الملحوظات التي عرضت له وهي لا تقل عن نواميس المراقبة الجوية التي استخدمها الطيارون العسكريون في حرب ١٩١٤— ١٩١٨[3] الا وهي العناصر الاولى لطريقة المراقبة والتصوير الشمسي الجوي في منطقة الفلاة الصحراوية وقد خولت ضبط هذه المراقبة التحليقات العديدة التي قاموا بها عن قصد في اوضاع جوية مختلفة ضبطاً نهائياً .

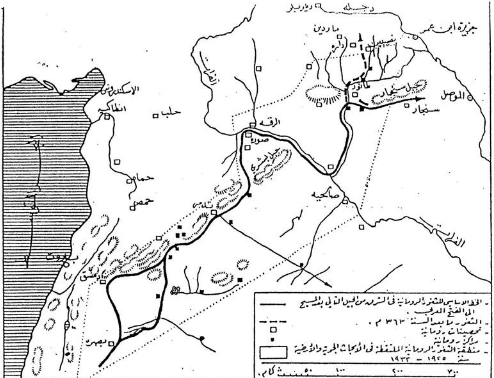
ولنشر باقتضاب الى مراحل هذه الاعمال التي كان لا بد من استمرارها طوال سبع سنوات (١٩٢٥—١٩٣٢) فنقدم عنها جدولا موجزاً وعما اسفرت عنه من نتائج . ولقد بدأت ابحاثنا الجوية في المنطقة القائمة بين دجلة والفرات

(1) A. Poidebard, *La trace de Rome dans le désert de Syrie. Le Limes de Trajan à la Conquête arabe. Recherches aériennes (1925 - 1932). Introduction de Franz Cumont.* Ouvrage publié avec le concours de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres et du Ministère de l'air. Paris, Librairie Orientaliste Paul Geuthner 1934. Un volume et un atlas.

(2) A. Poidebard, *Un grand port disparu, Tyr. Recherches aériennes et sous-marines 1934 - 1936.* Paris. P. Geuthner 1949. Un volume et un atlas.

R. Mouterde et A. Poidebard, *Le Limes de Chalcis. Organisation de la steppe en Haute Syrie Romaine. Documents aériens et épigraphiques.* Paris. Paul Geuthner, 1945. Un volume et un atlas.

(3) Dans *La Trace de Rome*, p. 14 s. on trouvera résumée la genèse de la méthode aérienne et la part qui revient spécialement aux aviations militaires de la guerre 1914 - 1918.



دجلة
ديار بكر
جزيرة ابن عمر
ماردين
نصيبين
دارا
ثانور
جبل سنجار
الموصل
سنجار
الفرات
الاسكندرونة
انطاكية
حلب
الرقة
صورة
جبل بشري
حماه
حمص
صالحية
تدمر
بيروت
دمشق
بصرة
الفرات
- الخط الاساسي للثغور الرومانية في الشرق من الجيل الثاني بعد المسيح الى الفتح العربي .
- الثغور ما بعد السنة ٣٦٣ م .
- تحصينات رومانية
- مراكز رومانية
- منطقة الثغور الرومانية الملتقطة في الابحاث الجوية والارضية سنة ١٩٢٥ - ١٩٣٢
٠ ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ كلم .

وكان هدفها الفوز بالوثائق الاثرية والتاريخية التي دونت على خريطة بلاد غير مأهولة اليوم ولكنها كانت مكتظة السكان في السابق ولم تنقلب الى صحراء الا عقب غزوات المغول .

وتحقق للطائر رائد البحث الجغرافي مذ اولى تحليقاته ان في متناوله اداة بحث من الطراز المعلم .

وفي الواقع لقد ساعدت الطائرة على بلوغ المناطق التي كانت مأهولة قديماً واصبحت الان بعيدة عن المسالك المطروقة وباتت لا يستطاع الوصول اليها بوسائل النقل العادية كما ساعدته على التحليق فوقها والحط فيها عند الحاجة الى القيام بدرس وتنقيبات سريعين .

وبوسعه ايضاً من دون ان يحط على الارض اي وهو قائم على متن مرصده المتحرك ان يحل اثار التنظيم القديم على الخريطة البارزة المنبسطة تحت جناحي طائرته، وذلك بغنمه الاوقات المناسبة واستخدامه اشد الانوار موائمة فيرى من علُ الاثار التي تكاد لا ترى ونحن على الارض ويستخدم المقياس الذي يريده.

والطائر يكشف من علُ احدى المدن القديمة المستوية ارضها كما يكشف خطوط موقع حصين بائد اندرست معالمه وشبكة طرقات مطموسة تتشعب نحو مراكز الماء. وموضع احدى الاقنية المتردم الذي لا يُشعر به بعد ان تمهد ترابه وذلك في المنطقة التي لو قطعها على ظهر جواد او متن سيارة لما استطاع ان يميز فيها شيئاً .

ولقد كان هذا الفتح الاول مدعاة لفتوحات اخرى ابعث على الدهشة . اجل ان الارض لتنفطر امام المراقب الذي غدا اشد انتباهاً وامام عدسة آلة تصويره الشمسي التي احكم توجيها لتفشي اليه سر الاثار اندفينة برمتها .

واوشكت جميع آثار الحضارات القديمة بين الدجلة والفرات كما وفي صحراء سوريا، ان تكون مطمورة بعد استواء الارض وذلك من جراء اعمال التهديم المتتالية التي خلفتها الغزوات وراءها .

والارض التي اسفتها الرياح منذ الف سنة قد غطت العذاة[1] بطبقة موحدة الشكل الظاهري فلم يبن على سطحها الّا النزر القليل من الاثار .

وقلماً تجاوز سمك هذه الطبقة الصالحة للنبات الثلاثين والاربعين سنتمترًا وذلك بعد ان تآكلتها الرياح وان نتت الاثار المطمورة تحتها عن بعض الاخاديد اما المسافر الذي يجتازها فتلتبس في نظره التموجات الخفيفة مع حركة العذاة ليظل كيفما تقلبت الحال عاجزًا عن تمييز شكلها .

ولترتفع الطائرة ولتخطّ دوائر تحليقها كجوارح الطير فوق السهل الرتيب[2] ففي ساعات الصباح وما بعدها وبمساعدة النور المنحني الذي يلامس خطوط الشمس غير المرئية عند شروقها ومغيبها تتضح له هذه الخطوط بجلاء وتنتظم المجموعة التي لا تتميز منها وتتخذ شكلا مقروءا .

وها هوذا محيط احدى المدن مع اسوارها وابراجها وخنادقها (pl. III-IV) وها هناك منجم روماني بتخطيطاته الخاصة به الشبيهة بعضها ببعض من تخوم جرمانيا حتى حدود الصحراء الشرقية (pl. II) .

وثمت اختبارات وتحقيقات واكتشافات اخرى ، ففي مطلع امطار الخريف تسترد العذاة الصهباء فجأة نضارتها ويجد راعيا الابل والشاء اللذان يسوقان امامهما ماشيتهما أنّى اتجها العشب الجاف الذي تقضمه بشهية انعامهما بعد الصيام ، اما الطيار الجاثم فوق مرصده فقد ميّز والتقطت اداة تصويره الشمسي الوانًا مختلفة كما مكنته طبيعة الارض سواء من حيث رسومها وسواء من حيث تحديدها ، نعم لقد ميّز لون العشب النضير النابت فوق ارض تختفي الاثار في جوفها وانه يبدو قاتمًا بسبب قلة رسوب الارض وبسبب انحلال كلس الاسوار القديمة الذي اعاق نموّه اما حيث يتجعد وجه الارض بسبب قيام طبقتها فوق سد او خندق قديمين فتبدو نضارة النبات مائلة الى الحلوكة ويظهر العشب نفسه اعظم نموًّا لان انحناء الارض ولو لبضعة سنتمترات كان كافيًا لتغذية عشب

1) العذاة : في اللغة معناها التربة الكريمة النبت البعيدة عن الأحساء والتروز وقد استخدمناها لترجمة لفظة (steppe) الفرنسية .

2) الرتيب ما كان على نمط واحد وقد استخدمناها كالمصريين لترجمة لفظة (monotone)

اشد اكتظاظاً . اما اذا حلّ اول حرّ الربيع فيفضي تأثير الشمس الفظيع الى تجفيف النبات في بضعة ايام وبعيد الصحراء الى سابق عهدها .

وهذا ما يعتري شكل العذاة . فهنا يصفرّ العشب بسرعة ، وهناك ينتفض بضعة ايام قبل ان ييبس . وعلى هذه الصورة يشير اخضلاله بدقة هندسية الى مواضع الاثار المدفونة والى تخطيط الطرقات والخنادق والاقنية .

وثمّ ظاهرة اخرى ابعث للغرابة الا وهي: ان صفيحة التصوير الشمسي التي تحسّ اكثر من العين بادق التفاصيل وبتنوع الالوان الارضية المألوفة لتبحث ايضاً بدقة اعظم العذاة وتكشف فيها آثاراً لا تراها ابداً المراقبة من على الارض (pl. I):

ولتحط الطائرة على الارض وليأخذ الطيار فأس التنقيب ومقياس المهندس فلا يسفر تفحصه الارض وسبرها الّا عن النتائج التي فاز بها وهو فوق متن مرصده الجوي .

وتكفينا هذه الادلة لادراك مبادئ الطريقة التي حققناها بما فزنا به من نتائج باهرة في صحراء سورية وعذاة الجزيرة العليا

ولا يتسع المجال في مثل هذا المقام لخوض جميع تفاصيل هذا الفن الذي لم يبلغ درجة استحكامه الا شيئاً فشيئاً . وبعد ان تدرّج في تطوراته وتحولاته حتى وصل الى مرحلة كماله الاخيرة .

والآن ، فما هو خير ارتفاع مناسبة للقيام بهذه الابحاث ؟ واية فائدة نستطيع ان نجنيها من التحليق وراء ستار من الغيوم ؟ وماذا في مقدورنا ان ننتظر من العمل الجوي الذي يحتقر — احياناً طريقة التصوير القديمة — ليباشر المصور بواسطة نور اصطناعي بحثه في حالة كون الشمس الساطعة قبالة وجهه .

وفي مثل هذه الاوضاع المغايرة للمألوف كيف نفسر هذا العمل (المارق) « اذا كان في الاستطاعة ان تطلق عليه هذه الصفة » انه يفضي الى اعطائنا « كليشهات » متقنة كل الاتقان على حين ان التقاط المشاهد وفق القاعدة لا يسفر الّا عن صور مترجرجة غير بارزة وذلك اذا كانت الشمس وراء ظهر المصوّر ؟

وما هو التأثير الذي يحدثه غبار الرمل المتناثر كالضباب في اشعة الشمس؟

وعلى اثر اية اشعة جديدة نرى نفسنا؟ واي تأثير خفي اخذت ظاهراته بالتكوين؟

وقصارى الكلام ما هو العلم الذي نحول بواسطته «الكليشهات» الى المقياس المختار وهي قد التقطت من ارتفاعات مختلفة منها ما هو شديد الانحناء ومنها ما هو قليله؟

ان كثيراً من هذه الاسئلة يراها الاختصاصيون في هذا الفن مبسوطة في المؤلف المشار اليه وفي مجموعة الرسوم المضافة اليه.

موضوع الابحاث الجوية

تشوق سواد الجمهور دقة الطريقة التي انتهجها اقل مما تشوقه النتائج التي فاز بها بواسطتها.

ولقد اخذنا على عاتقنا درس المسألة التالية: اقامت الامبراطورية الرومانية تخومها وثغورها[1] (son Limes)[2] في الشرق كما اقامتها في افريقيا وبريطانيا وعلى الرين والدانوب ولم تكن تشبه في شيء تخوم الدول الحالية التي تفصلها عن بعض. وانما كان خط الثغور الرومانية منطقة تحمى بواسطتها الامبراطورية من البرابرة وطريقاً محمياً يوافق تنقلات الجيوش السريعة وكان مؤلفاً عادة من مجموعة طرقات محصنة: اولاً طرقات موازية لتخوم البلاد وغالباً ما كانت مقصورة قليلاً الى الوراء.. ومن ثم طرقات موغلة بخط مستقيم في الطرقات الاولى وذلك في بلدان البرابرة والحليفة او المفتوحة لتؤلف سفحاً امام الحصون يقي الاراضي الرومانية

١) كانت العرب تسمّي الحدود التي بين الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية «الثغور» وكانت ممتدة من ملطية الى اعلى الفرات والى طرطوس: وقد اخذنا هذه الكلمة لترجمة (Limes) الرومانية.

(2) Le terme « *Limes* » est un mot d'origine latine spécialement employé pour désigner la limite extérieure, la frontière du territoire d'Empire.

وهذا ما كان يفهمونه من لفظة « ثغور » (Limes) بيد ان الرومانيين قد عرفوا ان يشيدوها بمهارة باعثة الاعجاب ويوفقوا بينها وبين خصائص البلدان الجغرافية ومزايا الشعوب المعادية الحربية التي لا بد لهم من الانفصال عنها او التي كان عليهم ان يدافعوا ضدها عن انفسهم .

فما هو الحل العملي الذي اعتمده اختصاصيوهم على تخوم امبراطوريتهم الشرقية ؟ انه لم يتفق قط ان اشتملت هذه المسألة على مثل هذا القدر من العناصر التي يجب التوفيق بينها .

وليس من مكان آخر وجدت فيه هذه المسألة حلاً لها يدلّ على عبقرية الاختصاصيين بفن التحصين ومبلغ تحكمهم به كما فعلوا على رغم صعوبة هذا الامر من الوجهة العملية اذ كان من الواجب عليهم التوفيق بين المقتضيات الجغرافية والحاجات الاقتصادية والسياسية والضرورات العسكرية « انظر الى الخريطة الثالثة »

ولم يكن يقوم في منطقة الحدود من الوجهة الجغرافية غير حاجزين طبيعيين ففي الجنوب كان فرع سلسلة جبال لبنان ولبنان الشرقي « Anti-Liban » الساحلي وفي الشمال مجرى نهر الخابور وسلسلة جبال سنجار التي كان خط الثغور الرئيسي يتصل بها كما كان يتصل بها ايضاً الطريق المركزي الكبير من تلك الشبكة . وكان ثمّ سلسلة من المراكز الحصينة على طول الطريق من بصره عاصمة الولاية العربية الى حميدة (دياربكر) القلعة المركزية في سلسلة جبال ارمينية مع نقاط متوسطة للوقوف : هي دمشق وتدمر ودوره وسيرسيزيوم وثانور وسنجارا .

وهذا القطر الكبير الذي يتحكم به الشكل الجغرافي الطبيعي كان من مزاياه ان يقطع الناحية الصحراوية ويمرّ تماماً بالمنطقة المطرة فيها بحيث كان بالاستطاعة تنظيم مواقع الماء بسهولة تلك المياه الضرورية للحاميات .

وقد كان لمجموعة هذه الخطوط التي من حسن الطالع قد انجز تحقيقها تماماً من الوجهة الفنية مزايا اخرى سواء من حيث الناحية الاقتصادية او السياسية

فانها كانت تقطع عرضاً منطقة انتقال الرعاة في الصحراء.

وكانت تنتقل دائماً من جانبي الحدود كاليوم شعوب بدوية كبيرة وذلك وفق فصول السنة تسوق قطعانها العظيمة امامها لتجد تارةً ارتياحاً الى العذاة متى كان الفصل ممطراً وطوراً لترحل بعيداً الى النجود حول المنطقة الصحراوية. اما عندما كان فصل الجفاف يطرد اولئك البدو الى المناطق الرطبة المناخ فكان لا بدَّ من مراقبتهم في مدّهم وجزرهم الفصلي فلذلك كان خط الثغور يقطع ممرات سلاسل الجبال ومناهل الماء ليصبح من السهل القيام باشراف فعلي على اولئك الجيران النزّاعين الى الشغب والقتال وللحفاظ بواسطة انشاء هذا الخط على طمأنينة اراضي الامبراطورية كما انه كان سهلاً ايضاً بانتهاج سياسة لبقة ان تستمد منهم النجدات وتضم الى جانب القوات الرومانية في سبيل الدفاع عن الحدود .

ولما كانت المبادلات التجارية مع الامبراطوريات المجاورة تسلك طرقات الصحراء الطبيعية التي كان يسلكها البدو في تنقلاتهم الفصلية كان من مزاياها هذا الخط ايضاً انه يسيطر على طرقات القوافل القادمة من سوق بلاد العرب الداخلية ومن مدن البرتيين والساسانيين التجارية في بلاد ما بين النهرين السفلى والفرس تلك القوافل التي كانت تصحب بضائع اسيا الوسطى والقصوى نحو موانئ البحر المتوسط السورية ومدن سلسلة جبال ارمينية او نحو سورية العليا .

اجل انه لنجاح اقتصادي وسياسي ولكن خط الثغور لم يكن انشاؤه باقل دقة وضبطاً من ذلك بالنظر الى حاجات الحدود الشرقية العسكرية .

وربما كان على الرومانيين ان يصدوا غزوات فرسان البرتيين والساسانيين السريعة التي قد يعزّزها العرب البدو من فرسان وهجانة .

وحيال هذه القضية العسكرية الستراتيجية كان لا بد للجيش الروماني من اتخاذ وسائله للردّ فوراً عليها فلذلك عزّز قوات فرسانه الخاصة واكثر مراكزه التي ارتآها تحول دون تسرب الانصار الخطر وتحطم هجوم بعض الغزوات الكبيرة .

هذه هي خطة البحث التي عملنا في استكشافاتنا الجوية طول ثماني سنوات (١٩٢٥ — ١٩٣٢) باتباع منهج وبعزيمة لا تعرف الملل على تحديد تفاصيلها فلم تكذبنا النتائج وانما جاءت تزيد عما كنا نأمله . وفي الواقع لقد اكتشفنا على الارض من هذا الخط الخيالي ، وذلك من علٍ ، مجموعة الخطوط الحقيقية بكل تنظيمها .

وهذه السلسلة التي لم نكن نعرف عنها الا شذرات قليلة في الماضي لا لحمة بينها واقعية اصبحنا الان نمسك حلقات ارتباطها واحدة واحدة : اي اننا عرفنا الخط الرئيسي مع نقاط ارتكازه والخطوط الثانوية التي تجعله مزدوجاً والمتاريس التي تعززه وخطوطه المعترضة التي توطد مجموعه .

وخولنا تفحص الابنية على الارض والمخيمات الباقية والمراكز والقصور وابراج المراقبة ان نؤرخ لبعض عناصر اسلوب هذه الحصون . وبفضل هذه المراقبة قد عيّنت الجغرافية في التاريخ : حركة الحدود بتقدمها وانكفائها وقدمت لتاريخ حدود الامبراطورية الشرقية العسكرية مساعدة قيّمة .

ولئن اقتصرنا على الخطوط الرئيسية فلا مندوحة لنا عن الاقتناع بالاشارة في مثل هذا المقام الى ان مراقباتنا الجغرافية قد تناولت جبهة تمتد على طول الف كيلو متر واستطعنا ان نعيد رسم تأليفها مفصلاً من جديد وذلك على عمق يتراوح من مئة الى مئتي كيلومتر على طول المنطقة المحصّنة . .

ولقد كان بالاستطاعة ان نعيد رسم جميع تنظيمها العسكري والاقتصادي ونعطي بذلك ميزات فن الاحتلال الروماني . واذا ما بدأنا من الجنوب من عند طرف الولاية العربية فهناك ملتقى طرقات بصره الهام مع مجموعة طرقات تربط اهمها بوسطره بتدمر عن طريق دمشق او مباشرة بجبل سايس .

وهذا المثلث لذو اهمية ستراتيجية من الدرجة الاولى اذ يؤلف مجموعة ضخمة ترتبط بمعقلي بوسطره ودمشق وتضغط ضغطاً قوياً مناطق حوران وحرًا والصفا البركانية .

وبالاتجاه صعداً نحو الشمال الشرقي ثمت خط جديد مزدوج يستند الى معقل جبل بشري الكبير للدفاع عن كوع دقيق الموقع وتنبغي المحافظة عليه .

واذا ما ادرنا الوجه نحو الصحراء حيث تنحدر طرق القوافل وتتوغل عبر البلدان المجاورة المشكوك في صداقتها غالباً فان خط الدفاع الرئيسي تحميه المواقع الرومانية التي تقبض كل القبض على مراكز المياه .

وهذه المواقع القائمة اينما كانت في نواح تسيطر على غيرها يمتدّ منها النظر الى بعيد مما يخولها الأتصال بغيرها بواسطة النيران او الاشارات المرئية .

ومن دون ان تفتقر القيادة الرومانية الى استخدام عدد عظيم من الرجال كانت تقبض على الصحراء بهذه الصورة . وبفضل هذا التنظيم الذي ينم عن مهارة بوضع الخطط العسكرية العليا كان بمقدورها ان تؤمن حماية القوافل على مسافة بعيدة من متشردي الغزاة وتحافظ على اتصالها بالقبائل المسلحة هذه القبائل المسالمة بطبعها ولكنها تفتقر الى الشعور بشدة المراقبة الفعلية عليها كما انها كانت تقوى على مراقبة كل حشد فرسان مشبوه فتشل هجماتهم وذلك بفصلهم عن مواضع الماء .

وكان مجموع هذه الثغور يكتمل بين الدجلة والفرات ، اما سهول ما بين النهرين السفلى فكانت اضعف نقطة في هذا الخط المفتوح .

وكانت تسد الطريق على زحف الفرسان البرتيين والفرس المتدفقين من الشرق مجموعة طرق كاملة تستند الى المواقع الحصينة كيرسيزيوم وتانور وسنجارا

هذا هو هيكل الثغور الشرقية للامبراطورية الرومانية قد أرجع الى خطوطه الكبرى كما يعاد الرسم الى خطوطه الاولى .

وكذلك اتخذ كتابنا اثر روما في صحراء سورية هذا الطابع الى ابعد حدّ اما التحليل فيبين ، اكثر مما يعرض ، وفرة المعلومات التي كشفنا عنها بالطريقة الجدية : فقراءة النص وانعام النظر وحدهما فيه وفيما اشتمل عليه الكتاب من صور تبدو من خلالها صعوبة المسائل التي حُلّت وكثرة الاكتشافات المتنوعة التي كان بالاستطاعة تحقيقها .

وفي سبيل ايفاء الكلام حقه اكثر من ذلك، ما من مندوحة عن الاشارة اولًا الى دراسة الطرقات التي تدلل نماذجها المختلفة على ذكاء اولئك الاساتذة

الرومانيين بتخطيطها : فهي طرقات مرصوفة من البلاط المنحوت ولم تتحرك من مواضعها منذ ثمانية عشر قرناً ، وطرقات ارضية بحواشٍ تمسكها وحبالٌ في وسطها تخط امام العجلات لحين[1] او ثلاثة بخطوط متوازية فكانها للحيلولة دون كل ازدحام ، وثمت طرقات للقوافل اكثر بساطة في صنعها وكل ذلك حيث استطاع مهندسو الطرقات الوصول الى الممرات الصعبة .

ففي اي مكان اتجهت جسور ومعابر انهار جعلوها صالحة للمرور وابراج للحراسة ولاعطاء الاشارات وقبل المسالك الخطرة تبليط مستدير الشكل قطره من ٦ الى ١٠ امتار ترشد رجال القوافل الى النقاط المعينة بالضبط التي يستطيع الحراس البعيدون ان يروا منها نيرانهم الليلية .

وينبغي ان لا يغيب عن الانتباه الابحاث التي قمنا بها لدرس تنظيم مواقع الماء . فمن بصره الى الفرات : ترى هنا ابارًا محفورة مزدانة ومفروشة ببلاط منظم وهناك حياضاً واسعة وجباباً عظيمة وهنالك اعمالاً لجمع مياه الينابيع البعيدة وجرها .

واتخذت القيادة الرومانية كل الاحتياطات لتأمين حاجات الحاميات كشرب سريات الفرسان المرابطين في الصحراء وتموين القوافل بالماء وريّ المنظمات الزراعية القائمة تحت حماية اهم المراكز وذلك كما يبدو من الرسم الذي استطعنا ان نعيد هيكله في ابحاثنا مما يستثير شعورنا بالقوة والمرونة وبخصائص حضارة عظمى

في عام ١٩٣٤ ظهرت خريطة الثغور الرومانية في صحراء سورية (بالاستناد الى المراقبات الجوية والتحقيقات الارضية ١٩٢٥ — ١٩٣٢) واكملها كتابان الجزء الاول منهما تلخص نصوصه جميع المعلومات التي كان بالاستطاعة الفوز بها ، والثاني يشتمل على اللوحات والصور الجوية والتصميات .

واقيمت الحجة الاختبارية على ان المراقبة والتصوير الجوي يصلحان ليكونا

---

١) اللحب واللاحب ، الطريق الواضح

قاعدة البحث عن الحضارات القديمة بعد ان اصبحت الطائرة اداة بحث الجغرافية التاريخية الحقيقية .

ويعترف المؤلف بتواضع بانه لم يكن يستطيع البرهنة على نظريته من دون مؤازرة جميع الذين ساعدوه فيها مساعدة واعية حازمة: اي لو لا مساعدة ندوة الاثار والاداب ووزارة الطيران ومصلحة الجيش الجغرافية والطيران الفرنسي في الشرق وفصائل هجّانة الصحراء.. ويتجه باعترافه بالجميل الى الرعيل من الرفاق في بدء الاعمال الصعبة .

وبعد ان تحققت طريقة البحث رغبت ندوة الاثار والاداب في استخدامها لدرس كيفية تنظيم الغذاة في سورية العليا الرومانية للاستزادة في تعميق الدرس

واخذ الطيار الذي تآزر مع حضرة الاب رينه موترد ، اختصاصي الشرق الروماني المعروف على عاتقه ان ينقل كل ذلك التنظيم الاقتصادي وشبكة الطرقات ومواقع الماء ومناطق الحراثة وترتيب المراعي في المنطقة الصحراوية على الخريطة .

وفي سنة ١٩٤٥ ظهر كتاب تغور كالسيس (Limes de Chalcis) الذي يدرس كل سورية العليا التي قوامها حول انطاكية عاصمة الشرق الرومانية وسجل نتائج ابحاثه فيها .

واستمرت اعمال الاستكشافات من الجو وفي الارض من سنة ١٩٣٥ الى ١٩٤٩

وبوشر عام ١٩٣٤ بمساعدة البحرية الفرنسية درس موانئ الساحل الفينيقي القديمة وظهرت دراسة مرفأ صور سنة ١٩٣٩ ، وفي عام ١٩٤٦ بدأت دراسة مرفأ صيدا من الجو ومن تحت البحر مع دوائر الاشغال العامة للجمهورية اللبنانية .

وظهرت الطريقة الجديدة شديدة الجدوى لبحث الاثار التي تحت الماء على قدر جدواها في البحث عن الاثار الدفينة في الارض ، واننا لنأمل ان نقيم عليها الحجة في مقال اخر ننشره في المشرق .

«قانون العقوبات اللبناني وحماية القاصرين»

بقلم مبارك عون
« محامي اتحاد حماية الاحداث في لبنان »

مقدمة

لقد كثر التحدث عن قضية الحدث بعد الحربين العالميتين ، الاولى والثانية ، لما رافقها وتبعها من اسباب اقتصادية واجتماعية ، كان من نتيجتها المحتمة انحلال الرباط الزوجي وانحطاط الأسرة وايصال الحدث الى حالة لم تعد تمكنه من النمو جسداً وعقلاً ونفساً ، في جو طبيعي . فشعر الرأي العام العالمي والمحلي بخطورة مشكلة الولد وجاءت المؤسسات العالمية والهيئات المحلية تعالجها بحكمة وتنهم ساعية الى ايجاد نظام شامل للقضاء على كل ما يعوق الحدث من ان يصبح عنصراً صالحاً في تكوين المجتمع .

وكان ان اوجد الشارع في سائر البلدان المتقدمة قوانين اراد من ورائها ان يقضي على اسباب التسول والتشرد والانحراف في الاخلاق المؤدي الى الاجرام ، فاتبع سياسة اجتماعية رشيدة لرفع مستوى الأسرة والقضاء على الطلاق وانحطاط الاخلاق ، ثم تعداها الى ايجاد العلاج ، فبنى معاهد الاصلاح للذين شذوا عن الصراط المستقيم ، وشجع انشاء المدارس المهنية ، الصناعية والزراعية ، لابعاد الحدث عن البطالة والطريق .

ولقد تكاتفت سائر الهيئات والمنظمات المحلية بعضها مع بعض فتعدى عملها الدائرة الوطنية فنشأت هيئات عالمية ، واوجدت شرعة لحماية الطفولة والحداثة واخذت تحث الجميع ، حكومات وافراداً ، على الاعتناء بقضية

الحدث . وتكاثرت النشرات والمجلات والكتب ، وجميعها تعنى بشؤون الطفولة والحداثة سواء أكان ذلك من الجهة الصحية او الاخلاقية او الاجتماعية.

وقد تيسر لنا ان نكون على اتصال مع بعض هذه الهيئات كـ« الاتحاد العالمي لحماية الطفولة »[1] في جنيف ، و« عصبة هاورد للاصلاح الجزائي »[2] ، في لندن ، كما انه سبق وكلفنا بجمع بعض المعلومات العائدة الى قضية الحدث في بلادنا ، وذلك بناء على اسئلة وجهت الى السلطات المحلية من قبل « هيئة الامم المتحدة » وبعده من قبل « منظمة الاونسكو » . وقد كان بغية هتين المنظمتين الاطلاع على الانظمة المعمول بها في سائر البلدان ، ثم العمل على تعريف الصالح منها للجميع ، حتى يتمكنوا من الاسترشاد بها .

الا اننا بعد ان انحنينا على درس الناحية القانونية من نظامنا وعملنا في « اتحاد حماية الاحداث في لبنان » ، ومثلنا باسم هذا الاتحاد لدى محاكم الاحداث وسائر الدوائر الرسمية ، تبين لنا انه يوجد فرق شاسع بين التشريع وبين الواقع بحيث انه قد يخفى على من لا يطلع على قضية الحدث عندنا الا من خلال نصوص القوانين ، ان يتخذ فكرة خاطئة عنها . ولذا فقد شعرنا بضرورة الإتيان على جميع ما يعوقنا في تطبيق القانون الموضوع لمصلحة الحدث، ولدى تشعب هذه المشكلة ، فقد حصرنا البحث في تحليل النقاط الواردة في قانون العقوبات وقانون اصول المحاكمات الجزائية ، وليس دأبنا في ذلك ، بعد اعترافنا بما عملته السلطات في هذا الحقل منذ سنة ١٩٤٤ ، الا مساعدتها لاتمام مهمتها .

ملاحظات عامة :

ولكن لا بد ، قبل الانتقال الى النصوص ، من ذكر بعض الوقائع : من منا لم يلاحظ هذا العدد الوافر من القاصرين المهملين الذين يتسولون

(1) *Union Internationale de la Protection de l'Enfance*, 16, rue du Mont-Blanc, Genève.

(2) Howard League. *For Penal Reform*. Parliament Mansions, Abbey, Orchard Street, London S. W. 1.

ويتشردون في شوارع المدينة طوال النهار ، ثم يأوون ليلا الى منحرفات او مقاه او سينمات او محلات مشبوهة ، يتلقنون فيها طرق الفساد ؟

من منا لم يسمع بتلك العصابات المؤلفة من قاصرين تاذتهم ظروف عديدة ، اقتصادية واجتماعية ، الى ارتكاب الاخطاء ، واتخاذ السرقة مهنة لهم ، شأن تلك العصابة المعروفة « بعصابة شم النسيم » ، المختصة بسرقة الشوادر ، ثم نصبها في محل ما ، والتنعم في ظلالها بما درت عليهم سائر مغامراتهم ؟

لقد سمعنا بكل ذلك كما سمعنا شيئاً عن تسييب الاولاد ، واهمال الواجبات العيلية ، والاعتداء على عرض القاصرين ، وحضهم على الفجور والدعارة ، ودفعهم الى التسول والتشرد ، فالى الاجرام .

فتساءلنا عما اذا كان هنالك نظام ما يحمي هؤلاء القاصرين ؟ فوجدنا قانون العقوبات يشير الى هذه الامور جميعها ، وينص بنوع خاص على مسؤولية الاولياء والاوصياء واسقاطهم من الولاية او الوصاية ، ولكن تبين لنا ان الشارع لم يشر الى التدابير الفعالة الواجب اتخاذها لمصلحة القاصرين الا اذا كانوا من المجرمين ، وترك جانباً جميع الذين هم جديرون بالعناية والحماية ، فكان قانوننا قانون علاج لا قانون وقاية كما هو الحال في سائر البلدان المتقدمة . وكذلك فقد تبين لنا ان النصوص المتعلقة بالقاصرين الخاطئين لا يمكن تطبيقها بسهولة .

وهذا ما سنسعى لاثباته ادناه :

تحليل النصوص القانونية :

في تسييب الولد : (المادة ٤٩٨ ق . ع . : قانون العقوبات)

« من طرح او سيّب ولداً دون السابعة من عمره او اي شخص آخر لا يملك حماية نفسه بسبب حالة جسدية او نفسية عوقب بالحبس من ثلاثة اشهر الى سنة ،

« اذا طرح الولد او العاجز او سيّب في مكان قفر كان العقاب من سنة الى ثلاث سنوات . »

ولا بد من الاشارة الى امرين :

فمن جهة ، لا يشمل النص السابق الا الاولاد الذين هم دون السابعة من العمر مع انه كان اجدر بالشارع الّا يميّز بينهم وبين القاصرين على وجه الاطلاق .

ومن جهة ثانية ، فالقانون اذ يقتص من المجرم لا يشير الى الطريقة العملية التي بها يؤمن مستقبل الولد المسيَّب . فاذا سجن المجرم وشددت العقوبة بحقه لا سيما اذا كان احد اصول الولد ، او احد الاشخاص المولين حراسته او مراقبته او معالجته او تربيته ، (المادة ٥٠٠ ق . ع .) فاية خدمة نكون ادينا للولد المسيَّب واين نضعه لابعاده عن محيطه ؟

أفي احد المياتم ، والكل يعلم انها ملأى ، ولا تقبل الا من كان يتيم الاب ؟ ام في معهد اصلاح ، والولد لم يقدم على ارتكاب اي خطأ .

ام في مدرسة صناعية ، والمدارس الصناعية قليلة العدد ، صعبة الولوج الا للحائزين على بعض المعلومات الاولية المؤهلة لاتباع الدروس ؟

ام في مدرسة ابتدائية ، والمدارس الابتدائية غير اجبارية ، وغير متوجب عليها مراقبة الولد خارج جدرانها ؟

فهذا السؤال يطرح علينا كل يوم دون ان نتمكن من حلّه .

وليست القضية اقل صعوبة اذا نظرنا الى نقطة ثانية من قانون العقوبات ، الى اهمال الواجبات العيلية :

٢) اهمال الواجبات العيلية : (المادة ٥٠١ ق . ع .)

« ان الاب والام اللذين يتركان في حالة احتياج ولدهما الشرعي او غير الشرعي او ولداً تبنياه سواء رفضا تنفيذ موجب الاعالة الذي يقع على عاتقهما او اهملا الحصول على الوسائل التي تمكنهما من قضائه يعاقبان بالحبس مع التشغيل ثلاثة اشهر على الاكثر وبغرامة لا تتجاوز المئة ليرة » .

فالمشكلة هنا ايضاً هي هي ، مشكلة صعبة الحل : ما سوف يكون مصير الولد المهمل ؟ واذا كانت الظروف الاقتصادية او الصحية لم تمكن الوالدين من الاعتناء به ، فماذا تكون النتيجة عملياً وما هو التدبير الذي ينبغي ان يتخذ لمصلحته ؟

٣) الاعتداء على العرض : (المادة ٥٠٦ فقرة ١ ، ق . ع .)

« اذا جامع قاصراً بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمره احد اصوله شرعياً كان او غير شرعي او احد اصهاره لجهة الاصول وكل شخص يمارس عليه سلطة شرعية او فعلية او احد خدم اولئك الاشخاص عوقب بالاشغال الشاقة الموقتة » .

فاذا كان المجرم الوالد او الوالدة ، فما هو التدبير الواجب اتخاذه لمصلحة المجنى عليه ؟ لقد عرضت علينا قضية كان الجاني فيها الوالد ، والمجنى عليهما ، ابنتاه الصغيرتان ، غير المتجاوزتين ، الاولى ، العاشرة ، والثانية ، الثالثة عشرة من العمر . كما اننا درسنا قضية شخص في السابعة عشرة من عمره ، جنى على شقيقته القاصرة ولما تتجاوز السابعة من عمرها .

وكان من الطبيعي ان نسعى لابعاد هؤلاء القاصرين المجنى عليهم عن محيطهم البيتي ، فراجعنا القانون دون جدوى ، اذ تبيّن لنا انه لا يحق للمحكمة ان تسلمهم لغير ذويهم الّا في حالة الاسقاط من الولاية او الوصاية . وهذا ما سنأتي على ذكره بعد قليل ، فنشير الى الصعوبات التي تعترضنا كلما سعينا لاتخاذ تدبير يؤمن مستقبل القاصر .

٤) في الحض على الفجور : (المواد ٥٢٣ الى ٥٣٠ ، ق . ع .) :

تشمل النصوص المذكورة اعلاه جميع الاشخاص الذين اعتادوا حض شخص او اكثر ، ذكراً كان او انثى لما يبلغ الحادية والعشرين من عمره على الفجور او الفساد او على تسهيلهما له او مساعدته على اتيانهما . .

واذا كان المجرمون ممن وُصفوا في المادة ٥٠٦ ق . ع . ، اي كانوا احد الاصول او احد الاصهار لجهة الاصول او احد الاشخاص الذين يمارسون على

القاصر سلطة شرعية او فعلية ، تشدد العقوبات المطبّقة بحقهم كما هو مبيّن في المادة ٢٥٧ ق. ع.

ولكن اذا اقتصصنا من المجرمين فأيّة خدمة نكون اديّنا للقاصرين ؟ .

د) في دعارة القاصرين : (المادتان ٥٣٥ و ٥٣٦ ق. ع.) .

«كل قاصرة لم تتم الثامنة عشرة من عمرها اعتادت تعاطي الدعارة تطبق عليها تدابير الاصلاح الواردة في المواد الـ ٢٣٩ الى الـ ٢٤٦ ق. ع. بحق مرتكبي الجنحة من القاصرين ما خلا الوضع في معهد تأديبي» .

«لا يُقضى بوضع القاصرين في مؤسسة خاصة او في مدرسة إصلاح ما لم يوجد معهد او جناح مخصص بالفتيات التائبات يمكن قبول القاصرة فيه» .

فهذا النص يتطلّب التعليقات الآتية :

اولاً : ان المواد ٢٣٩ الى ٢٤٤ الغيت بكاملها بموجب قانون ٥ شباط سنة ١٩٤٨ واستبدلت بالمادة ٢٣٨ المعدّلة بقانوني ٥ شباط سنة ١٩٤٨ و ٢٤ أيار سنة ١٩٤٩ . وقد نصّت هذه المادة ٢٣٨ — وسنعود الى تحليلها ادناه — على التدابير المتخذة بحق القاصرات بعد تعاطيهنّ الدعارة . وتدور هذه التدابير جميعها حول الوضع في معهد اصلاح خاص بالبنات التائبات .

ثانياً : اذا كانت الخاطئات مسيحيات ، ارسلن الى دير «الراعي الصالح» واذا كنّ من المحمديات وجدنا انفسنا امام صعوبة كبرى ناشئة عن عدم وجود معهد مماثل اذ ان المادة ١٢٣ (الفقرتان ٢ و ٣) من قانون العقوبات اوجبت ان تكون المؤسسات المعدّة للخاطئات من الطائفة التي تنتمي اليها تلك القاصرات .

فاما ، اذن ، ان توضع القاصرة في سجن النساء وليس فيه جناح خاص كالذي نص عليه القانون ، فتكون عرضة فيه للمعاشرات الرديئة ، واما تعاد الى اهلها فتشذ مجدداً ، وفي كلتا الحالتين نكون خالفنا القانون

ثالثاً : لقد وردت في قانون العقوبات نصوص متعلقة بالاغتصاب (المادة ٥٠٣

وما يليها) الّا انها لم تشر الى التدابير الواجب اتخاذها بحق المغتصبين

٦) الاحداث المتشردون والمتسولون : (المادة ٦١٦ ق. ع.) .

«كل حدث دون الثامنة عشرة من عمره ترك من مدة اسبوع منزل والديه او وصيه او الامكنة التي وضعه فيها من هو خاضع لسلطتهم وشرد بدون عمل يكون عرضة لتدابير الاصلاح المبيّنة في المادتين ٢٤٢ و ٢٤٣ » (وبعد الغائها في المادة ٢٣٨) .

· اما المادتان ٦١٦ و ٦١٧ فانهما تنصان على العقوبات المنزلة بالاشخاص الذين يكونون تركوا القاصر مشرّدًا او دفعوه الى التسوّل جرًّا لمنفعة شخصية ، سواء اكانوا اهله او اشخاصاً غرباء عنه .

قلنا ان التدابير المتخذة لمصلحة هؤلاء القاصرين انما نصّت عليها المادة ٢٣٨ المعدّلة بقانونَي ٥ شباط سنة ١٩٤٨ و ٢٤ ايار سنة ١٩٤٩ . الّا اننا لم نشر الى الصعوبات التي تعترضنا في تطبيقها .

جاء في هذه المادة انه اذا كان القاصر دون الثانية عشرة من عمره فتتخذ بحقه التدابير المنصوص عليها في المادة ١١٩ ق. ع. اي انه يسلّم الى ابويه ، او الى احد اصوله ، او احد افراد عيلته ، او لغير ذويه .

ولكن فما العمل اذا كان ابواه الدافعين ؟ وقد درسنا مرارًا قضايا تسول تبين لنا من خلال التحقيقات الاجتماعية المجراة ان الوالد والوالدة يرتزقان مما يدر عليهما تسول ولدهما .

ثم اذا فكرنا بتسليم القاصر الى احد اصوله او الى احد افراد عيلته ، وقد يكون هذا في حالة ضيق وعوز ، فمن يتحمل نفقات المعيشة ؟

ثم ماذا عنى الشارع بقوله : « تسليم القاصر الى غير ذويه ؟ » فاذا اشار الى المؤسسات وجدنا ان شروط الدخول اليها صعبة ، هذا اذا وجدت ، واذا اشار الى اشخاص معروفين بميلهم الفطري لمساعدة القاصر تبين لنا انهم قليلو العدد ان لم نقل غير موجودين . فقد يكون الشارع استعان بنصوص مماثلة

معمول بها في بلاد الغرب ، في انكلترا وفرنسا والبلدان الشمالية مثلاً ، الا ان السلطات هناك تدفع اجراً يومياً معيناً عن كل حدث مُسلَم لغير ذويه .

ومن جهة ثانية ، فان المادة ٢٣٨ المذكورة تنص على انه اذا كان عمر القاصر يتراوح بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، فانه تطبق بحقه تدابير التأديب المنصوص عنها في المادة ١٢٠ ق. ع. اي انه يرسل الى معهد اصلاح او الى معهد تأديب . ولكن قد يكون اندفاع القاصر للتشرد او التسول في بعض الاحيان ، ناتجاً عن اضطراب عصبي نفساني ينبغي معالجته طبياً او نفسانياً ، بحيث يكون جو المعهد الاصلاحي غير ملائم قطعياً لطبعه ومزاجه كما قد يكون هذا الانحراف ناتجاً عن عناد يمكن ان يزول اذا ما عالجته المساعدة الاجتماعية بحكمة وروية .

وقد كان اجدر بالشارع ان يترك هذا الامر الى القاضي فينظر اليه بحكمته مستنداً الى تحقيق تقوم به المساعدة الاجتماعية ، وتظهر فيه اسباب الانحراف، وتقترح فيه التدبير الذي تراه موافقاً لمستقبل الولد .

اما الطريقة المتبعة للقبض على هؤلاء المتسولين فالمقام يضيق بنا لوصفها . الّا اننا نكتفي بالقول بانهم يقادون الى محجر صحي يكملون فيه دراسة فنّ التسوّل والفساد الى ان يعادوا الى ذويهم لقاء ضمانات مالية ضئيلة ويحالوا الى محاكم الاحداث فيصعب عليها ، كما بيّناه اعلاه ، اتخاذ تدبير عملي فعّال يضمن لهم مستقبلهم .

٧) تسوّل وتشرّد الغرباء : (المادة ٦٢١ ق. ع.) .

« كل غريب حكم عليه بمقتضى الموادّ الواردة في هذا الفصل (اي بمقتضى المادة ٦١٦ وما يليها) يمكن ان يُقضى في الحكم بطرده من البلاد اللبنانية » .

ولكن الى اين نطرد الفلسطينيين ؟

وما يعوق السوريين لأن يعودوا ثانية ؟

هكذا يتبين انه، في غالب الاحيان، يكون ذوو القاصر مسؤولين عما صدر عنه من تصرفات شاذة، فنتساءل اذن عما اذا كان من شأن الاسقاط من الولاية او الوصاية أن يؤمن مستقبل الولد :

٨) الاسقاط من الولاية او من الوصاية : (المواد ٩٠ الى ٩٣ ق. ع.) .

ا – تعريفه : « الاسقاط من الولاية او من الوصاية يوجب الحرمان من جميع الحقوق على الولد او اليتيم وعلى املاكه » . (المادة ٩٠ ق. ع. الفقرة الاولى)

« يكون الاسقاط كاملاً او جزئياً ويكون عاماً او محصوراً بولد او يتيم او بعدة اولاد او ايتام » . (المادة ٩٠ ق. ع. الفقرة ٢) .

ب – شروطه : يمكن حرمان الاب او الام او الوصي من الولاية او الوصاية اذا حكم عليهم بعقوبة جنائية وتبين انهم غير جديرين بممارسة سلطتهم على الولد او اليتيم » . (المادة ٩١ ق. ع.)

يتعرض هؤلاء الاشخاص للتدبير نفسه :

١ً : اذا حكم عليهم بعقوبة جنائية او جنحية من اجل جناية اقترفوها بحق الولد او الفرع او اليتيم او بالاشتراك معه .

٢ً اذا اقترف القاصر الذي في عهدتهم جناية او جنحة تسببت عن تهاونهم في تهذيبه او عن اعتيادهم اهمال مراقبته » . (المادة ٩٢ ق. ع.)

ج – مدته : « يكون اسقاط الولاية او الوصاية لمدى الحياة او لاجل يراوح بين ثلاث سنوات وخمس عشرة سنة » .

« ولا يمكن في اي حال ان يُقضى به لمدة ادنى لما حكم به على الاب او الام او الوصي من عقوبة او تدبير احترازي مانعين للحرية » .
(المادة ٩٣ ق. ع.)

د – التدبير العملي : « تنتقل ممارسة الولاية او الوصاية الى وصي وفاقاً لاحكام الاحوال الشخصية » . (المادة ٩٠ الفقرة ٣ ق. ع.)

اما الصعوبة ، ففي التطبيق ، ولا سيّما في الاحوال التي يصعب فيها تسليم القاصر المنحرف الى احد الاصول او الاقارب وكان محتماً علينا ارساله الى مؤسسة ما . ولن نعطي على ذلك الّا مثلًا واحداً :

وصلتنا اخيرًا قضية قاصرة دفعها والداها الى معاطاة الدعارة السرّية . وقد اظهر التحقيق الاجتماعي انه اذا حُكم على الابوين بالاسقاط من الولاية بقيت قضية القاصرة هي هي : عدم تمكّن ارسالها الى دير الراعي الصالح لأنها غير مسيحية ، وعدم ملائمة وضعها في سجن النساء ، لا سيّما وان القانون يشير الى جناح خاصّ بالبنات الثائبات وان هذا الجناح غير موجود ..

وهنا نصل الى معالجة قضية الحدث الذي لم يعد في حالة خطر معنوي فحسب ، بل اصبح « مجرماً » على حد تعبير القانون :

٩) القاصرون « المجرمون » :

يقسم قانون العقوبات القصّر الى اربع فئات :

ا – القصّر الذين هم دون السابعة .

ب – القصّر الذين هم دون الثانية عشرة .

ج – القصّر الذين هم دون الخامسة عشرة .

د – القصّر الذين هم دون الثامنة عشرة .

ا – القاصر دون السابعة :

« لا يلاحق جزائياً من لم يكن قد اتمّ السابعة من عمره حين اقتراف الفعل » . (المادة ٢٣٧ ق . ع .)

ب – القاصر دون الثانية عشرة :

« لا عقاب على القاصر الذي لم يتم الثانية عشرة من عمره حين اقتراف الفعل » . (المادة ٢٣٧ ق . ع .) .

« الا انه تفرض عليه تدابير الحماية المنصوص عليها في المادة ١١٩ بموجب حكم يصدر عن محكمة الاحداث الى ان يتم الثانية عشرة من عمره ، واذا فرد على تدابير الحماية فيحكم بوضعه في دار الاصلاح لمدة سنة على الاقل الى ان يتم الثامنة عشرة من عمره على الاكثر » .
(المادة ٢٣٨ الفقرتان ١ و ٢ المعدلتان بقانون ٥ شباط سنة ١٩٤٨) .

اما تدابير الحماية المنصوص عليها في المادة ١١٩ فهي كما اشرنا اليه اعلاه :

– تسليم القاصر الى أبويه .
– تسليمه الى احد اصوله او احد افراد عيلته .
– تسليمه الى غير ذويه .

اما الصعوبات ففي التطبيق ايضاً :

ففيما يتعلق بتسليم القاصر الى ابويه ، ينبغي ان نشير الى ان القاصر ينتمي في غالب الاحيان الى اسر متفككة الرباط بسبب الفقر والطلاق وغيرهما حتى انه يتعذر علينا وضع القاصر مجدداً في الجو الذي تنشق فيه روح الرذيلة .

وفيما يتعلق بتسليمه الى احد اصوله او احد افراد عيلته ، فالصعوبة هي هي ، اذ لا نجد اناساً يريدون ان يأخذوا على عاتقهم تربية قاصرٍ خاطئٍ قد يسعى ابواه بشتى الوسائل ان يسترجعاه .

هذا فضلاً عن ان الصعوبات الاقتصادية ليس من شأنها تشجيع الناس على ادخال عنصر ، ولو قريب ، الى داخل البيت ، وتحمل مصاريف قد يستنكف او يعجز الابوان عن دفعها .

وكذا القول عن « غير ذويه » ، وقد اظهرنا اعلاه كيف ان الشارع استعان بما هو مألوف في سائر البلدان دون ان يكون اهتم بطرق التنفيذ .

ومن جهة ثانية فالمؤسسات الطائفية تعج بالمسلمين لها وترفض كل الرفض اولاداً مثلوا امام المحاكم باعتبارهم خطرين على غيرهم .

فالحل الوحيد اذن هو تسليم الولد الى ابويه ، اي عملياً ، اعادته الى الجو الذي قاده الى الفساد .

وكل ذلك ناتج عن عدم توفر المؤسسات ، وعن صلابة في القانون تسربل يدي المنحنين على قضية الحدث . وقد كان الحل الاوفق ان يترك للقاضي حق اتخاذ التدبير الذي يراه موافقاً بعد اخذ رأي مندوبي « اتحاد حماية الاحداث في لبنان » .

قد يقال بانه « اذا تمرد القاصر على تدابير الحماية ، فرضت عليه تدابير الاصلاح». ولكن ما هي السلطة التي لها الحق بان تثير القضية مجدداً لدى القاضي؟

فليس لدى قاضي الاحداث ولا لدى النيابة العامة الاشخاص المهيأون لمراقبة الحدث بعد تسليمه الى وليه . وقد يأخذ « اتحاد حماية الاحداث في لبنان » على عاتقه تعقب هؤلاء القاصرين ، انما ليس لديه العدد الكافي من المندوبين . اذن فلا مجال لابدال تدابير الحماية بتدابير الاصلاح الا في حالة واحدة : عندما يمثل القاصر ثانية او ثالثة امام قاضي الاحداث ولما يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، اذ برجوعه الى الخطأ يكون تمرّد على التدابير التي اتخذت بحقه سابقاً .

هذا مع العلم بان التسليم الى الابوين او الى احد الاصول او الى غير ذوي القاصر لا يمكن ان يكون فعالًا الا اذا اقترن « بالحرية المراقبة » . فعلى المندوب ان يتحرى الحدث ، ويتتبع خطاه يوماً بعد يوم ، ويسهر على مصالحه ، حتى اذا تمرد او مال عن الخطة التي فرضت عليه ، حق للمندوب اثارة قضيته مجدداً ، بناء على تقرير يقدمه لقاضي الاحداث . فهذا معمول به في فرنسا وانكلترا وغيرهما من البلدان المتقدمة في هذا الحقل . وقد يكون الشارع عرف ذلك عندما قال في الفقرة الثانية من المادة ١٢٢ :

« على الشخص الذي يسلم اليه القاصر ان يتعهد باتباع ارشادات المندوب لحماية الاحداث » .

الا انه لم يشر الى الطرق التي يمكن المندوب ان يلجأ اليها في حال تمرد الاهل او القاصر .

وقد اكتفى بالقول بانه « يمكن القاضي ان يطلب الى اهل الولد تأدية كفالة احتياطية لمدة التدبير الذي يقضي به » ، وان الاهل « يتعرضون لغرامة تتراوح بين عشر ليرات وخمسين ليرة اذا اقترف القاصر جريمة اخرى وهو في عهدتهم » (المادة ١٢١ الفقرتان ٢ و ٣) . وكذلك الاصول الذين سُلّم القاصر اليهم ، وايس في ذلك ما يدفعهم الى قبوله ، (المادة ١٢٢ ، الفقرة الثالثة منها.) الا ان هـذه الوسائل بقيت دون فائدة اذ الاقتصاص من الاهل لا يساعد القاصر على التقدم في طريق الصلاح .

ج — القاصر دون الخامسة عشرة :

« ومن اتم الثانية عشرة من عمره ولما يتم الخامسة عشرة وكان جرمه من نوع الجناية او الجنحة تفرض عليه تدابير التاديب المنصوص عليها في المادة ١٢٠ حتى بلوغه الثامنة عشرة من عمره » .

« واذا كان جرمه من نوع القباحة او يستحق عقوبة الغرامة فقط فتفرض عليه في المخالفتين الاولى والثانية تدابير الحماية وفي المخالفة الثالثة تدابير التأديب حتى بلوغه الثامنة عشرة من عمره . »

المادة ٢٣٨ ، الفقرة الثالثة ، المعدلة بقانون ٢٦ ايار ١٩٤٩

اما تدابير التأديب المنصوص عليها في المادة ١٢٠ ق. ع. فهي :

- الوضع في اصلاحية
- الوضع في معهد تأديبي .

الوضع في اصلاحية :

يوجد معهد اصلاح حكومي للاحداث يديره اشخاص مأخوذون من سلك التعليم الابتدائي ، كنا وددنا ان يكونوا مهيأين لهذا العمل الشاق ، كما كنا وددنا ان تكون المهن منظمة بشكل يؤمن للحدث ، لدى مغادرته المعهد ، وجود عمل دون مشقة .

كما انه يوجد معهد اصلاح للفتيات المسيحيات، تديره بما لديها من غيرة وخبرة، راهبات الراعي الصالح. الا اننا نأمل ان تكون مساعدات الحكومة لتلك المؤسسة كافية، حتى تتمكن الراهبات من توسيع اعمالهن، فتخلق مدرسة منزلية تدرس البنات فيها شؤون المنزل والخياطة والتفصيل حتى اذا غادرت المعهد كان بامكانها الارتزاق من المهنة التي تكون قد درستها.

هذا وقد بينا اعلاه كيف اننا نفتقر الى معهد اصلاح للفتيات المحمديات بحيث نجد انفسنا مرارًا تجاه امرين كلاهما مخالف للقانون: اعادة القاصرة الى اهلها او سوقها الى سجن النساء.

الوضع في معهد تأديبي:

في فكرة الشارع، كان ينبغي ان يكون ذاك المعهد لاولئك الاحداث الذين قد يخشى منهم على غيرهم، نظرًا لاسبقياتهم. فالنظام فيه اشد قساوة مما هو عليه في معهد الاصلاح. الا ان الاحداث يتعلمون فيه شأن اخوانهم في معهد الاصلاح، «احدى الحرف التي احتواها على ان يراعى في ذلك عمرهم وحالتهم البدنية والعقلية ويتكاملون تعليمهم المدني والديني.»

(المادة ١٢٥ ق. ع.)

فنظرًا لعدم وجود هذا المعهد نجد انفسنا امام امرين كلاهما مخالف للقانون: فاما ان يرسل المحكومون لدار التأديب الى معهد الاصلاح مع ما في ذلك من خطر على غيرهم فيه، واما ان يساقوا الى بعض قاعات السجون، فيتمون فيها خبرتهم في فن السرقة والرذيلة.

***

ومن جهة ثانية، فان الفقرة الثالثة من المادة ٢٣٨ تُقيد حرية القاضي بشكل لا يؤمن مصلحة القاصر. ففي بعض الاحيان، يظهر التحقيق الاجتماعي انه يفضل تسليم القاصر الماثل امام المحكمة لابويه، ولا سيما اذا ثبت مثلًا ان الخطأ انما وقع عرضًا وان البيئة المنزلية صالحة لتربية القاصر. غير ان هذه الملاحظات لا تفيد القاضي اذ يبقى مقيدًا بنص المادة ٢٣٨ المذكورة.

د – القاصر دون الثامنة عشرة :

(المادة ٢٣٨ ق. ع. المعدلة بقانون ٥ شباط سنة ١٩٤٨ ، الفقرة الخامسة وما يليها)

نكتفي بالدلالة الى هذه المادة اذ ان القاصر بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمره لا يعود خاضعاً لتدابير الحماية او التأديب ، بل تجري محاكمته وفقاً للاصول العادية وامام المحاكم الجزائية التي تكتفي بانزال العقوبة او بابدالها بغيرها اخف منها .

« فاذ كانت جريمته من الجنايات المستحقة عقوبة الاعدام او الاشغال الشاقة المؤبدة او الاعتقال المؤبد فانه يوضع في الحبس اصلاحاً لنفسه مع التشغيل من خمس سنوات الى عشره (الفقرة السادسة من المادة المذكورة .)

هذا مع الاشارة الى ان قانون العقوبات المنشور سنة ١٩٤٤ ، كان قد اعتبر الحدث قاصراً حتى الثامنة عشرة من عمره ، الى ان جاء قانون ٥ شباط سنة ١٩٤٨ وعدل المادة ١١٨ ق. ع. معتبراً سن البلوغ في الخامسة عشرة .

ولسوف نعود الى درس هذه النقطة في مقام آخر ، الا اننا نشير منذ الان الى ان تدابير الاصلاح واجب اتخاذها بحق القاصرات خاصة بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة . فيكون قانون ٥ شباط سنة ١٩٤٨ اعادنا اذن الى الوراء .

١٠) محكمة الاحداث : (قانون اصول المحاكمات الجزائية تاريخ ١٨ ايلول سنة ١٩٤٨ ، المادة ٢٣٧ الى ٢٥٠ ، وقانون التنظيم القضائي الصادر بتاريخ ١٠ ايار ١٩٥٠ المادة ٣ منه .)

لن نأتي على ذكر جميع ما ورد في هذا القبيل ، بل نتوقف على نقطة واحدة استلفتت نظرنا لكونها مخالفة لمصلحة القاصر ، هي مسألة التوقيف الاحتياطي السابق للمحاكمة :

« لا يحق لمحكمة الاحداث ان تقرر بقاء القاصر الذي اتم الثانية عشرة من عمره قيد

التوقيف الا اذا استحال اتخاذ تدبير آخر . وفي هذه الحالة يجب وضع القاصر في محل توقيف خاص بالاحداث . »

« ولا يحق لقاضي التحقيق توقيف هذا القاصر الا في القضايا الجنائية وبمقتضى قرار مفصل الاسباب »

المادة ٢٦٥ ق . ع . اصول المحاكمات الجزائية ،

يستفاد من هذه المادة امران :

اولاً : عدم توقيف القاصر الا في القضايا الجنائية معناه اعادته مجدداً فور اخذ افادته وافادة الشهود الى البيئة التي نشأ فيها وتعود فيها الاقدام على اقتراف الجرائم اذ انه بين اكتمال التحقيق من قبل الشرطة ، واحالة القضية الى محكمة الاحداث واجراء التحقيق من قبل المساعدة الاجتماعية ، ومثول الحدث لدى المحكمة ، يوجد فترة من الزمن اقلها شهر او شهران يتمكن القاصر في خلالها من الانقياد مجدداً الى اخطاء قد نكون ابعدناه عنها لو كنا وضعناه في محل توقيف خاص .

ولكن نصل هنا الى الامر الثاني :

ثانياً : لا يوجد محل توقيف خاص بالاحداث

وكثيراً ما نرى القاصر الموقوف قبل اجراء المحاكمة يقضي نهاره وليله في سجن الرمل بجوار من هم اخبر منه في طرق الاحتيال والرذيلة ، فيتمرّن على يدهم ويخرج وفي نفسه ميل زائد الى الاجرام .

هكذا يتبين لنا ، في ختام هذا البحث ، ان مصلحة القاصرين المنحرفين غير مؤمنة في بلادنا ، اذ نعتبر ان النصوص الواردة في قانون العقوبات وقانون اصول المحاكمات الجزائية ، لم تستنتج من فكرة عامة شاملة مستوحاة من الطرق الحديثة المعمول بها في سائر البلدان المتقدمة . وذلك لاننا لم نشأ ان ننظر الى هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة من جميع نواحيها .

اما اليوم ، وقد شاء لبنان ان يساهم مساهمة فعالة في تقرير شرعة حقوق الانسان ، فمن واجبه المقدس ان يتبع سياسة اجتماعية مستوحاة من هذه الشرعة ، هذا اذا اراد ان يكون في مصاف الدول الراقية .

فعندما ننظر الى هـذا العدد الوافر من القاصرين المتسولين والمشردين والسائرين الى الاخطاء ، ينبغي ان ندرك خطورة مشكلتهم وان نكون مستعدين لان نراهم في المستقبل القريب ، عناصر هدامة ، تعوق لبنان للسير على طريق الرقي .

وعندما يتيسَّرُ لنا ان نزور محلات التوقيف « الخاصة بالقاصرين » ، داخل السجون اللبنانية ، او نلقي نظرة على تلك المآوي المعدة لقبول المتسولين والمشرّدين ، نتساءل عما اذا كنا حقاً في القرن العشرين .

مشكلة القاصرين المنحرفين مشكلة اكثر اهمية مما يتصوره البعض . واذا اردنا ان نجد لها حلًّا فلا بد من ان نأخذ بالملاحظات التالية :

١ً — ينبغي ان ننشئ دائرة خاصة تناط بها جميع الامور المتعلقة بالقاصرين المنحرفين ، على ان تكون هذه الدائرة على اتصال دائم مع وزارة العدلية ووزارة التربية الوطنية ووزارة الشؤون الاجتماعية والصحة والاسعاف العام ، وان تتعاون تعاوناً وثيقاً مع سائر الجمعيات الاهلية فتمد بالمال من هي بحاجة ماسة اليه كما هو الحال في بريطانيا وفرنسا مثلًا .

٢ — قبل انشاء جامعة وطنية ، ينبغي ان نعمم التعليم الابتدائي ونجعله اجبارياً مجانياً ، ثم نتبعه بتعليم مهني صناعي وزراعي .

٣ — ينبغي ان نجعل نصوص قانون العقوبات سهلة التطبيق وذلك باعادة النظر فيها ، وانشاء معاهد اصلاح متعددة ، وتسليمها الى اناس مهيَّأين مدربين لذلك العمل ، وان ننشئ محل توقيف خاص بالقاصرين خارج جدران السجن .

* * *

وانا لننهي هذا البحث بما جاء في شرعة حقوق الولد ، التي نشرها

سنة ١٩٢٣ الاتحاد الدولي لاسعاف الاولاد ، والتي تبنّاهــا الاتحاد الدولي لحماية الطفولة ، لما فيها من عبرة :

١ — ينبغي ان نمكّن الولد من ان ينمو بصورة طبيعية ، ماديًا ومعنويًا .

٢ — ينبغي ان نطعم الولد اذا جاع ، وان نعتني به اذا مرض ، وان نشجعه اذا تأخر ، وان نرجعه اذا انحرف ، وان نلتقطه ونساعده اذا اصبح يتيمًا او متروكًا .

٣ — الولد هو اولى الناس بالمساعدة في وقت الضيق .

٤ — علينا ان نمكّنه من ان يكسب عيشه وان نحميه ضد كل استغلال .

٥ — علينا ان نفهمه انه ينبغي ان يضع احسن مزاياه في خدمة اخوانه

رئاسة بطرس في شعر رومانس

بقلم الاب نيقولاوس قادري ق. ب.

ان القديس رومانس المرنم ليس بلاهوتي وانما هو شاعر. وبالرغم من ان اناشيده كلها تدور حول مواضيع دينية واحتفالات ليترجية فقد سيطرت عليها مسحة الشعر الصافي وجرأة الخيال الطليق وروعة المسرحية النفسية.

وهذه الاناشيد لا ينفسح فيها المجال الكامل لابراز الحقائق اللاهوتية بكل دقائقها وصورها وتحديداتها. ولو كانت فقط مظهراً للتعاليم المسيحية لكانت هذه القصائد من الشعر التعليمي الديني لا قيمة ادبية لها وما كان رومانس تبوأ هذه الزعامة الادبية في حلبة الشعراء اقرانه فقد دعاه النقاد والعلماء « ملك الشعراء الدينيين في كل العصور وإمام المرنمين الكنائسيين[١] ».

فقصائد رومانس هي مجموعة من شعر غنائي ومسرحي وملحمي وهي غنية بالتحليل النفسي الذي قلّ من ضارعه فيه في هذا الميدان من الشعراء على مر العصور والاجيال.

لقد احسن ذلك الكاتب الافرنسي بقوله عن رومانس: « انه شاعر وليس بلاهوتي[٢] ». وان أصغر براءة من الملك المشترع يوستينيانوس تحوي حقائق لاهوتية اكثر مما تحمله قصيدة من قصائد رومانس الشاعر الديني.

انه شاعر وليس بلاهوتي. غير ان رومانس يبقى في انطلاقاته الشعرية من رماة الافكار يزرع الخصب في العقول وينثر النور في ظلمات الشك والارتياب وهو، علاوة على ذلك، شاهد امين لبيئة عاش فيها وتأثر بتفكيرها واتاها فحمّل

(١ Edmond Bouvy : *Poètes et Mélodes*. Nimes 1886, p. 347.

(٢ C. Chevalier S. J. : *Mariologie de Romanos dans R.S. Relig.* T. 28, 1938, p. 48.

الشاعر اذن قصائده بعض التعاليم الشعبية والحقائق الدينية التي كانت منتشرة في عصره وبين اهل محيطه ومعاشريه . اجل ! كان رومانس يجتهد ان يكون بوق الكنيسة وفم الشعب وكان الشعب « يحب شاعره[1] » لانه كان يعمل على ايصال الحقائق الى مسامع ابناء المسيح عن طريق الانشاد والموسيقى فينقلها لهم وللاجيال السحيقة على اجنحة الخيال ومركبة الشعور يقودها الفكر السديد في انطلاقاتها البعيدة ووثباتها الطليقة الحرة .

ومن هذه الحقائق المتغلغلة في اناشيد رومانس ومقطوعاته تلك الشهادات الصريحة في رئاسة القديس بطرس وقد جمعناها في هذا الدرس باقة من زهر تفوح بعبير تضوّع من جنة الحقائق الانجيلية ولا يزال هذا العبير ينسم في اجواء الكنيسة الجامعة وينسجم مع تلك الاطياب التي تفوح في كل آن واين وتؤرج أثير الكنيسة الكاثوليكية على مرّ القرون .

ولهذه الشهادات في رئاسة القديس بطرس قيمة علمية وادبية تهمّ كثيراً ارباب الشأن وهي شهادات من فم شاعر يوناني عاش في بيزنطية على عهد الامبراطور يوستينيانوس (٥٢٧ — ٥٦٧)

ولا يزال صدى اناشيد رومانس يدوي في كنائس الشرق البيزنطي ويعبّر عن ايمان الشرقيين بعقيدة أحبها رومانس كثيراً وعلّمها لابناء بيزنطية فاما ان تكون لهذه الشهادات قيمة ومعنى واما ان تكون اصداء تطير في مهب الرياح بحيث لا يعيرها اربابها اقل انتباه . ونحن نعلم ان الكنيسة اليونانية « ادخلت الشعراء الى هياكلها وقدس اقداسها ، علماً منها ان الشعراء هم ايضاً من ابناء المقادس يحملون تعاليمها الى قلوب ومسامع الشعب »[2] عن طريقة الجمال الشعري والادب الرائع وعن طريقة الموسيقى التي تقود الى الله .

والكنيسة البيزنطية تسمي رومانس في صلواتها « بوق الكنيسة ، ومعزفة الروح الالهي ، والبلبل الصدوح المغرّد بالنشائد الالهية . المصباح الكلي الضياء .

---

١) Cf. D. Cabrol : *l'Hymnographie de l'Eglise Grecque*, 1893, p. 17.

٢) Pitra : *Hymnographie de l'Eglise Grecque*. Rome, 1867, p. 23.

والقيثار الشجي الالحان والوتر المرنم باقوال الروح[1] » فالشاعر رومانس اذن يمثل بتعاليمه وعقائده تعاليم وعقائد الكنيسة اليونانية التي كان «بوقها وقيثارها» وهو شاهد ثقة على ما كانت تعلمه بيزنطية في القرن السادس قبل الانفصال .

ويعتبر الشاعر رومانس الكنيسة المسيحية جماعة من المؤمنين والرعاة المنتظمين تحت رئاسة واحدة وفي رعية واحدة اذ يدعون كلهم لراع واحد . ولهذا لا يريد ان يبقى رسل المسيح بعد القيامة مشتتين من الخوف بل يجب ان يجمعهم فيصرخ بلسانهم نحو يسوع : « تعالَ الينا ، ايها الراعي ، واجمعنا اليك نحن المشتتين من الخوف ، دس الموت واحضر الينا نحن المشتاقين اليك يا مانح الواقعين القيام .»[2]

ويشعر رومانس بان الرسل بدون رئيس هم « كالنعاج وكحملان الغنم » تتبدد اذا لم يكن لها راع . وهذا الراعي هو في نظر شاعرنا بطرس عينه وهو نائب المسيح راعي الرعاة . وقد برهن رومانس على هذه الحقيقة حينما صوّر يوحنا الحبيب وبطرس يسارعان الى القبر ولكن يوحنا وصل قبل بطرس ولم يدخل احتراماً لرئيسه الاكبر : « ولم يلج يوحنا القبر لكنه انتظر الزعيم لكي يتبع الحمل الراعي »

Οὐκ εἰσῆλθεν ἔνδον μνήματος,
Ἀλλὰ ἀνέμενε τὸν κορυφαῖον,
ἵνα ὡς ποιμὴν ἀκολουθήσει ὁ Ἀμνός. [3]

وبطرس الراعي لكل الخراف والغنم والنعاج التي تمثل جميع ابناء النصرانية من رؤساء ومرؤوسين ومؤمنين ، هو الرئيس الذي يتكلم باسم المسيح يوم العنصرة فيبدأ مهمته بهذا الخطاب : « فقال لهم كيفا بما انه رئيسهم ([illegible]) يا عاشقي الملكوت لنرفع قلوبنا الى الذي ينتظرنا ويقول : انا ارسل اليكم الروح الكلي قدسه .»[4]

---

١) راجع كتاب المناون العربي ، اول شهر تشرين الاول في صلاة الغروب ، ص ١٠١

٢) نشيد القيامة مقطوعة ٢٣

٣) نشيد القيامة مقطوعة ٤

٤) نشيد العنصرة مقطوعة ٤

وفي شعر رومانس ينطق الرسل انفسهم بهذه الحقيقة فيصرحون بلسانهم بهذه الرئاسة المختصة بزعيمهم وراعيهم بطرس الرسول الاول فيقولون بفم واحد للمسيح ساعة جمعهم على جبل الزيتون واراد ان يفارقهم ويودعهم قبل صعوده عنهم انهم يقولون له: « نحن قد تركنا الحياة وهجرناها لنرجحك انت. وعلى الارض صرنا مغتربين ومسافرين . فبطرس رئيسنا الاول (ὁ ἡμῶν Πρῶτος Πέτρος) بعد ان غدا صديقك تغرب عن كل الاشياء. التي كان يحوزها[1] . » اذن رومانس يعتقد بهذه الرئاسة وهذا الاعتقاد واضح من اقوال الرسل انفسهم وكلمة رئيس تدل عليها باليونانية كلمة أول فبطرس هو الاول في رئاسة التلاميذ وهو بلا شك رئيس تلاميذ الرب.

وليست هذه الرئاسة ولا تلك الزعامة لبطرس رئاسة شرف او زعامة مجد خارجي بل هي رئاسة حقيقية وزعامة ذات سلطان لتدبير ابناء المسيحية على مر العصور . وينفرد بطرس بهذه الزعامة عن باقي التلاميذ والرسل كما يصرح الشاعر رومانس في نشيد خيانة يهوذا يصرح بهذه العقيدة الاساسية في تدبير شؤون الكنيسة فيقول رومانس في نشيده المذكور :

اما بطرس رئيس احبائك. Πέτρος δὲ ἡ ἀρχὴ τῶν φίλων σου.
وقاعدة الذين يتبعونك Ὁ Κανὼν τῶν ἀκολουθούντων σου.
وقائد جماعتك[2] Ὁ στρατηγὸς τῆς φαμιλίας σου.

فالاوضاع اليونانية التي يعبر بها رومانس تدل على رئاسة حقيقيّة ذات سلطان ونفوذ وتدبير . وكل الذين يريدون ان يخضعوا لنير المسيح عليهم ان يخضعوا لرئاسة بطرس ، اذ هو الرئيس لكل اصدقاء واحباء يسوع وهو القائد الامين لكل الذين يتبعون المسيح ، وبطرس هو القاعدة الادبية التي يجب ان يرتكز عليها دستور المسيحية . وايمان بطرس هو الاساس في مملكة يسوع الارضية وهو المبدأ لكل احباء المسيح ἡ ἀρχὴ τῶν φίλων σου

فلا عجب اذا ما وجدنا في تعليم رومانس الشاعر اليوناني تلك الحقائق

---

١) نشيد الصعود مقطوعة ٧

٢) نشيد خيانة يهوذا مقطوعة ٩

التي نجد لها أساً في كتاب الانجيل والعهد الجديد . ورومانس يرتكز على الكتاب المقدس ويستوحي منه افكاره واىانه وايان الشعب الذي كان يمثله في بيزنطية في اوج مجدها . وايمانه في رئاسة بطرس الحقيقية لا يقبل ترددًا أو شكًا . فبطرس في نظره هو الاول ، هو الرئيس ، هو المبدأ في رئاسة الكنيسة المنتظمة الكل احباء المسيح وقد يعترف بطرس نفسه بهذه الرئاسة حين نسمعه يقول للمعلم الالهي حين غسل الاقدام : « لا يكفي باني حزت الوقار امامك وباني ادعى الاول بين احبائك[1] ؟ Καὶ πρῶτος τῶν φίλων σου κέκληκαι ; ويبتغي بطرس ان يتمنع من غسل اقدامه فلا يرتضي تواضعه وحبه لمعلمه ان تغسل اقدامه فيمانع ويصرح بتلك العاطفة الشديدة التي تساور قلبه وجهه فيصرخ : « أأنت تغسل قدمي ؟ لا ! لا ! فاليد التي أبدعتني لن تغسل قدمي الى الابد ! »[2] وهذا التواضع العميق يصرح به بطرس حين يتابع قوله : أأنت يا جابل العالم ، أأنت ايا الفادي تروم غسل اعضائي الفاسدة ودموعي ؟ »[3] يتمنع هذا الرسول عن غسل اقدامه ولكنه يخضع اخيرًا خوفاً من ضياع نصيبه في ملك يسوع فيترك « جابلَ العالم » يغسل اقدام « الاناء الخزفي » ويريد آنذاك ان يغتسل بكليته فيصرخ نحو معلمه : « اغسلني كثيرًا ان شئت لكي لا ابتعد عنك »[4]

ولا يريد بطرس ان يبتعد عن المسيح لئلا يخسر نصيبه في مُلك يسوع لان المسيح قد نبهه قائلاً : « ان لم اغسلك الان فليس لك معي نصيب واذا اسميك عدوًا . »[5] أيرضى بطرس ، يا ترى ، ان يحسب عدوًا ليسوع ؟ لا لا ! لن يحسب الحبيب عدوًا ولا يرضى بديلا عن الفادي فيهتف للحال « بخوف وارتعاش : ربي اذا غسلت فلا تغسل قدميَّ فحسب بل جسدي كله ! »[6]

١) خيانة يهوذا مقطوعة ١٠
٢) خيانة يهوذا مقطوعة ٩
٣) خيانة يهوذا مقطوعة ٣
٤) خيانة يهوذا مقطوعة ١١
٥) خيانة يهوذا مقطوعة ١٢
٦) خيانة يهوذا مقطوعة ١١

ويحب بطرس – كما يظهر من نشيد رومانس – يجب ان يذهب مع يسوع حتى الى الالام والموت : « اننا وان صعدت على الخشبة وأن نزلت الى القبر نتألم ونموت معك »[١]. واذا ما بردت محبة بطرس للمسيح فانما كان ذلك تحت تأثير الخوف الشديد « فان بطرس اضطرم بالحب اولاً ، ولم يلبث بعد قليل ان بردت محبته تحت تأثير الخوف » . وفي تلك اللحظة الرهيبة يتذكر بطرس ذلك الشرف الوسيم الذي أولاه اياه المعلم فيقول ليسوع : « ماذا تقول يا معلم ، أأنا انكرك ؟ أأنا اهملك واتركك وانسى دعوتك لي والشرف الذي أوليتني ؟ »[٢] وقد نعجب مع الشاعر من صدق بطرس وشدة عاطفته عندما نسمعه يبرهن على محبته للمسيح وشدة تعلقه به وكيف انه لا ينسى احسانات المعلم السامية بل يتذكرها فيقول له : « انني لا ازال متأثراً ، ألم تغسل قدمي؟ وانت تقول ايها الفادي اني مزمع ان انكرك ؟ انني لا ازال اذكر ، يا مخلص كيف حملت المطهرة وتقدمت عند قدميّ ؛ انت الحامل الارض والمسند السماء ، لقد غسلت قدمي باليدين اللتين بهما خلقتني وتقول اني سوف انكرك !»[٣]

ويعرف بطرس انه كاهن المسيح فينفر من نكرانه ويصرح لمعلمه الالهي انه يفضل الموت على الخيانة ، على النكران : « ان طعم وليمتك ، ايها المتنزه عن الخطأ ، لا يزال في حلقي فكيف استطيع ان انكر عطيتك ؟ ويحي لو كنت انا كاهنك مزمعاً ان أصير خائناً ، لخير لي ان أموت من ان أحيا . »[٤] ويبرهن بطرس على استعداده وثباته في محبة يسوع بقسم حافل يشهد عليه السماء والارض : « اني امام الملائكة والبشر وامامك ايها الخالق وامام البرايا العلوية والسفلية اعلن في هذه الساعة اني لو ألجئت الى ان اموت ما انكرتك ايها الفادي . فاني معك اريد ان أحيا وبدونك لا استطيع ان اتمتع بالحياة . »[٥]

١) نشيد نكران بطرس مقطوعة ٣
٢) نكران بطرس مقطوعة ٣
٣) نكران بطرس مقطوعة ٣
٤) نكران بطرس مقطوعة ٤
٥) نكران بطرس مقطوعة ٧

وقد اراد رومانس ان يجد السبب في سقوط بطرس فلاقاه في غيرته المفرطة وجرأته : « ان الغيرة المفرطة دفعت الرسول فانضم الى الجمع ودخل بجرأة فرأى هنالك نارًا تتقد وأناساً جالسين حولها والمسيح ماثلاً أمام رئيس الكهنة فتألم لهذه الكارثة وجعل يبكي ويقرع صدره وقال في نفسه بصمت : ايها المسيح ، انت مقيّد تتحمل الآلام وانت قوي . »[1]

فبهذه المحبة الشديدة كالموت تقوى في قلب بطرس فيصرخ من اعماق قلبه حين يرى معلمه مهاناً فلا يقوى على الصمت فيستدعي القوات السماوية للدفاع عن المسيح المتألم امام الجميع : « يا معلمي ، انت تلطم وانا لا ازال حيًّا بقربك ؟ انت تشتم ، يا محب البشر ، والارض ترى ذلك وتتحمله ، ولا تفغر فاها لتبتلع مهينيك ؟ انت تزدرى والسماء تنظر ولا تهبط وساكنوها لا يقومون ، وميخائيل لا يغضب فيما تتحمل انت النكال ، وجبرائيل يعبر ولا يذيب اعداءك[2] واذا ما صمتت قوات السماء فبطرس لا يصمت لانه يرى ولا يقدر على الاحتمال فيصرخ : « ها ان جميع القوات العلوية تصمت أما انا فارتمش واكتب هاتفاً : اسرع وخلص ايها القدوس رعيتك . »[3] هـذا هو بطرس المحب والغيور يظهره لنا الشاعرُ بكامله فيبدو لنا في محبته وجرأته وغيرته وسخطه ، ثم لا يلبث رومانس ان يعلنه لنا في ضعفه وتبوط عزيمته ، فينكر بطرس معلمه من شدة الخوف والحب ويلاقي الشاعر طريقةً يحسن التخلص من هذه الورطة فيقول لبطرس : « ألا تعرف الرجل ، يا بطرس وتقول ذلك ؟ الا تعرف الرجل ؟ لعلك تعني بذلك انك لا تعرف فيه انساناً فقط بل الهًا ايضاً ؟ »[4] ويجعل رومانس من بطرس الخائن آنذاك معلماً للحقائق : « لعلك تحاول ان تعلم هؤلاء الذين لا شريعة لهم ان المصلوب إله ! »[5]

---

١) نكران بطرس مقطوعة ٨
٢) نكران بطرس مقطوعة ٩
٣) نكران بطرس مقطوعة ٩
٤) نكران بطرس مقطوعة ١٤
٥) نكران بطرس مقطوعة ١٤

وفي هذه الآونة الرهيبة التي سجلت في تاريخ الانسانية امرًا فريًا ، نكران بطرس التلميذ للمسيح معلمه ، يشعر بطرس بجسامة اثمه ويفهم ان سبب خيانته هو كبرياؤه القديم ، فيطلب الصفح للحال من اله المحبة فيصرخ وهو الضعيف: « انت قوتي ومجدي ، يا محب البشر ، فلا تتخلَّ عني » هكذا قال بطرس بدموع لما ظهر من جديد بين تلاميذ المخلص ، فقد وضع يديه على رأسه وصرخ قائلاً :«ويحي ، يا خدام المسيح ، فقد حققت نبوءة المسيح في جحودي اياه فانكرته ثلاثًا .» ثم يستدعي بطرس جميع اصدقائه لينوحوا معه على خطيئته : « نوحوا معي وقولوا بدموع اين المحبة والغيرة ؟ اين الصوم والايمان ؟ الى اي حد بلغت بك الكبرياء ؟ »[1]

ولا يرينا الشاعر رومانس شخصية بطرس الضعيفة فحسب بل يحلل بتدقيق وتوسع نفسية تلميذ يحب معلمه حتى النكران وما نكران بطرس الا برهان محبته ليسوع وانما الجبانة والخوف سيطر على عقل بطرس فدفعته « غيرته المفرطة وكبرياؤه واتكاله على ذاته الى ارتكاب ما لا يحب ولا يهوى . اراد ان يتبع المعلم حتى الموت لانه لا يعرف لذة في الحياة اذا كان متغربًا وبعيدًا عن معلمه : « اني معك اريد ان احيا وبدونك لا استطيع ان اتمتع بالحياة . »[2]

هذه هي نفسية بطرس الرسول يحللها الشاعر رومانس ويظهرها في ضعفها وكبريائها ، في محبتها وجرأتها النادرة في ابان المحنة الصعبة ، مع ذلك لا يغيب عن فكر امام المرنمين ان بطرس في حالته هذه الشديدة لا يزال في زعامته وان تخللت حياته بعض الظلمات ، ساعة انكر سيده عن ضعف وجبانة ، فقد تبددت بنظر الشاعر هذه الظلمات كانها ضباب ساقه الريح فتبدَّد عند ما اشرقت انوار القيامة واذا بالمسيح يصفح لبطرس ويعيد اليه مجده وزعامته ورئاسته الشاملة لكل الخراف . ففي نشيد الرسل الذي يمثل المسيح والرسل على جبل الزيتون قبل صعود يسوع الى السماء يرينا الشاعر رومانس المسيح الراعي تحيط

١) نكران بطرس مقطوعة ١٧

٢) نكران بطرس مقطوعة ١٧

به اغنامه الرسل كما يتضح رمز ذلك من النقوش الرومانية القديمة . يستعرض المسيح اغنامه ونعاجه واحدة واحدة ويكلم كل رسول لوحده ويسأله ويسمع منه الجواب ثم يوجه اليهم المشورات والاقوال العذبة فتثير اعجاب الرسل وتولد فيهم الحماس والايمان الجهوري .

ففي هذا النشيد الدراماتيكي يعيد رومانس على ذاكرة مستمعيه عظمة بطرس المثبتة بفم المسيح نفسه اذ يقول له يسوع : « انظر اليَّ ، يا بطرس ، وتأمل كيف تزدلب الناس ، فكر بخطيئتك وتألم مع الجميع برفق . »[1]

ولا ينسى المسيح ان يذكر بطرس بخطيئته لكي لا تنفخه الكبرياء وعظمة الوظيفة فيقول له : « واذا ما نفختك الكبرياء فتذكر صياح الديك واذكر دموعك التي غسلتك انا بجاريها ، انا العارف وحدي ما في القلوب . »[2]

ولا يخفى على رومانس مشهد الحوار الرشيق الذي ذكره يوحنا الرسول في انجيله بعد قيامة يسوع . فالشاعر البيزنطي يعود بذكرياته الى تلك الكتابات والاقوال ويستوحي فيها ما يروق لمخيلته وما يستطيبه من الحقائق التي تلائم موضوع النشيد . ففي هذه اللحظة التي يستلها رومانس من مدى الزمن يواجه يسوع وبطرس وآنذاك يقول يسوع المعلم لبطرس تلميذه ونائبه : « يا بطرس أتحبني ؟ اصنع ما قلته الك » . ثم يسلمه رعاية الكنيسة رعاية مطلقة ويسلمه تدبير امورها وسياسة اعضائها على اختلاف طبقاتهم وميزاتهم : « ارعَ رعيتي واحبَّ الذين احببتهم انا . »[3] ثم يذكر رومانس في نشيده عاطفة فريدة يجب ان يختلج بها قلب كل رئيس ويفكر بها مليًّا عقل صاحب كل سلطان ، الا وهي الرفق بالمرؤوس الضعيف : « فكر بخطيئتك وتألم مع الجميع برفق . »[4] وخصوصاً يريد المسيح من بطرس ان يتألم مع الخاطئين : « تألم مع الخاطئين وتذكر عطفي إليك لانني قبلتك بعد نكرانك لي ثلاثا . »[5]

١) نشيد الرسل مقطوعة ٤
٢) نشيد الرسل مقطوعة ٤
٣) نشيد الرسل مقطوعة ٥
٤) نشيد الرسل مقطوعة ٥
٥) نشيد الرسل مقطوعة ٥

ولا تغيب عن ذهن رومانس سلطة المفاتيح التي تعبّر عن معنى السلطة ، عن معنى الحل والربط فيذكرها الشاعر في نشيد القيامة وفي خيانة يهوذا . يذكر رومانس سلطة المفاتيح لانها اساسية في رئاسة بطرس الحقيقية والوضعيّة : « لان لبطرس قد قيل يا بطرس اتحبني ؟ ارعَ خرافي كما تشاء . ولبطرس قد قيل : طوبى لك يا سمعان ، ساعطيك مفاتيح الملكوت ، ولبطرس اخضعت الامواج التي مشى عليها مانح القيام .»[١]

ففي هذه المقطوعة المثقلة بالتعاليم والحقائق يذكر رومانس الانعامات الخاصة ببطرس دون سائر الرسل ، فاليه وحده اسندت « رعاية الخراف كما يشاء » لانه الراعي وبقية الرسل هم « الحملان والنعاج » الذين اسندت رعايتهم لبطرس وقد اثبت رومانس هذه الحقيقة بقوله عن يوحنا الحبيب الذي سبق بطرس الى القبر ولم يدخل ، و رومانس يشرح سبب تهيّب يوحنا وتوقفه خارج القبر واحجامه عن الدخول : « لم يلج القبرَ بل انتظر الزعيم لكي يتبع الحملُ الراعي .»[٢] فبطرس هو اذن زعيم الرسل وراعيهم وهم مع يوحنا الحملان والغنم النطقية الذين يخضعون لرئاسة راعيهم وزعيمهم بطرس الاول .

وليست هذه الزعامة زعامة شرف فقط كما يزعم البعض بل هي قبل كل شيء زعامة فعلية وضعيّة في المصف الرسولي وقد سجلها رومانس على صفحات اناشيده وفي ابيات قصائده المتعددة . وهي شهادة متينة تدل على معتقد الكنيسة اليونانية برئاسة بطرس الحقيقية الكاملة ذات السلطة والنفوذ وهذه الشهادة من فم الشاعر رومانس ، وقد جسّد في عقليته وايمانه ايمان سورية حيث نشأ وترعرع في كنيسة القيامة ببيروت وكان بوقها الصادح واخيراً يمثل ايمان الكنيسة البيزنطية وخصوصاً القسطنطينية في عزها واوج مجدها .

وهذه النبرات اليونانية من فم شاعر سوري ولبناني وبيزنطي عاش قبل الانفصال تدل على ان ايمان الجميع كان واحداً وهذا الايمان الواحد كان يعترف برئاسة بطرس ويقرّ بان المصف الرسولي لم يكن كله متساوياً بالسلطان والنفوذ

١) نشيد القيامة مقطوعة ٦

٢) نشيد القيامة مقطوعة ٦

الواحد بل انما هناك زعامة مثلى تجعل بطرس الزعيم لجميع الرسل والمؤمنين كما برهن عليه رومانس بقوله عن يوحنا الرسول : « ولم يلج القبر — مع انه سبق بطرس اليه — انتظر الزعيم لكي يتبع الحملُ (يوحنا) الراعي (بطرس) » . فلو كانت السلطة متساوية فيما بين مصف الرسل لما كان دُعيَ بطرس « راعياً وزعيماً » ويوحنا « حملاً » وبقية الرسل مرؤوسين لبطرس وبطرس الزعيم هو صاحبَ المفاتيح ايضاً لانه اليه اسندت ابواب الملكوت ، اسندها اليه المسيح اذ قال له : « اللصُ اصبح بوابَ الفردوس يشجعك فارسل الى الفردوس من تريد . »[1] اذن يحق لبطرس وحده ان يرسل الى الملكوت « من يريد وكما يشاء » . ولا يغيب عن بال الشاعر رومانس تلك الشخصية القديمة وأول خلق الله ، شخصية آدم التي تظهر وتشغل رومانس في كل اناشيده وبلسان آدم نفسه يصرح رومانس برئاسة بطرس اذ يقول له المسيح : « بك يا بطرس سيعود آدم اليَّ صارخاً : ان الخالق اعطاني اللص بواباً وكيفا صاحبَ المفاتيح . »[2] آدم اذن يشهد بهذا السلطان المسلم لبطرس بالمفاتيح التي ترمز الى الولاية التامة المطلقة .

وهذا هو السلطان الضروري لتدبير شؤون الكنيسة وسياسة اعضائها . ومن هذه الشهادات العديدة وغيرها يتبين لنا بوضوح ما كان دور بطرس في شعر رومانس وما هي المهمات التي القيت على عاتقه فهو مدبر الكنيسة ويرأسها كيف شاء . وهذه الرئاسة تسمو بانطلاقها وحريتها المطلقة لا تختلف عن سلطة الملك بشيء . فهي متوحدة ومحصورة في شخص بطرس وهي رئاسة حقيقية كاملة وذات سلطان شامل ونفوذ قوي حتى ان ابواب الجحيم لن تقوى عليها .

وقد بيّن رومانس في اناشيده التي هي مظهر لاعتقاد الشعب والكنيسة اليونانية في بيزنطية في الجيل السادس ، وهي شهادات صريحة تأتلف مع الروح الليتورجية التي تنادي برئاسة بطرس في المصف الرسولي وهي ايضاً اثباتات واضحة تدل على ما كان يعتقده الشرق والغرب قبل الانفصال من ان

١) نشيد الرسل مقطوعة ٦

٢) نشيد الرسل مقطوعة ٦

الكنيسة هي رعية واحدة وراعٍ واحد يرئسها نائب يسوع المسيح في العالم المنظور وهذا النائب يمثل الاجيال في شخص بطرس وخلفائه .

وليس لنا امنية نبديها لارباب الشأن ولاخواننا المنفصلين عن وحدة الكنيسة الجامعة غير امنية المسيح في صلاته الوداعية : « ايها الآب القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد ... ليكونوا مكملين بالوحدة .»[1] فهذه الوحدة التي تنشدها الكنيستان الشرقية والغربية في الصلوات الطقسية هي غاية الاماني وأمل الابناء . قرّب الله بين الابناء المشتتين وحقق أمنية الشاعر رومانس الذي يتغنى بامجاد بطرس ليضم ابناء المسيحية الى وحدة الايمان وتحت راية الصليب الواحد وبادارة راعٍ واحد وايمان واحد هو ايمان بطرس رئيس الكنيسة وصاحب المفاتيح والمتقدم في كراسي الرسل وخازن الملكوت السماوي .

---

١) يوحنا ١٧ – ١١ ، ٢٢

وجوه من الشرق

قلق الحدود(١) في شعر فوزي معلوف

خواطر في الشعر

بقلم ميشال حايك

« مقلة ترتمي التراب واخرى
في السما وهو سادر حيرانا
ابدًا يطلب انفكاكًا من الارض
ويمشي مكبلًا حرانا
والثرى ممسك به ابدَ
العمر الى ان يضمه جثمانا »

(صلاح لبكي)

وضمك يا شاعر الشباب الغيز القانع بمطيات الوجود البخيل عرائس صغتها من الحلم المجسّد في ليلة قمراء من ليالي « عروس البقاع » . وكأن صوتك الآتي من وراء بحرنا الابيض كنفوسنا ، الازرق كاحلامنا ، كأن صوتك الاتي من بعيد المنفى يرجع صدى جبابرة قدماء راحوا كلٌ على خشبة من الارز العنيد ، وكل خشبةٍ على موجةٍ عنيفة ، راحوا « يفلّون في البحار الكنوز » و « يرحون على جسر بجز اكسين على رحمة الرياح النواهم(٢) » كما قال مواطنك

اولئك الجبابرة كان قلقهم شبيهاً بقلقك وحلمهم بالوسيع وسيعاً كحلمك — اولئك الذين شردتهم البحار في سرحة الافاق القصيّة كانوا جدودًا لكَ يا من اغتربت وشردتَ في الاعالي ، تصارع رخوة الجسم الترابي لتنهض به على سلّم

(١ Impatience des limites.
(٢ سعيد عقل : قدموس

السما. – واذا بالطيور تتألب حولك جماعات تبغي افتراسك والنجوم تتهامس حائرات مستطلعات اخبارك. واخيراً تجتمع بروحك العارية الحرّة قبل الاوان فتجلسان معاً على بساط من السحائب النديّة تتناجيان :

« ووقفنا معاً بقلب السماء
تتملّى
من القُبَل !
ما احبّ اللقاء بعد التنائي
فهو اشهى
من الامل ! »

انت وروحك حبيبان غريبان، انت عبد في التراب تذيب ايامك في سجن الجسم الفاني، وهي حرة في الجوّ البعيد وراء مبيت الشعاعات الزرقاء.. وكانت ليلة حلم مجنون اجتمعت فيها بروحك بضع دقائق هربت سريعاً ككل احلامنا الهاربات :

« تلك بضع من الدقائق مرّت
في خضم
من الخلود
هي مثل الاحلام زارت وفرّت
ايّ حلم
ترى يعود ؟ »

واذا انت على الارض بعد الاستفاقة من غيبوبتك الكبرى، ترجع لتقاسي مرارة السجن واسر الحدود :

« واذا بي اهوي الى الارض وحدي بعد حرّيتي اكابد رقّا
تركتني روحي وعادت لمأواها تشق الشعاع في الجوّ شقّا »

ولكن لن يطول عليك فراق اشقته فستجتمع بها بعد سنوات قلائل عندما تنفض عنك وحول وادينا المكبّلة، ولن يعكّر ذلك الاجتماع عليكما لا ضجة ولا لجاجة قلب جوعان : اما الان، بعد ان هويتَ من شاهق حلمك فانت في وحشة مرّة لا تجد فيها من السلوى غير يراع ينتحب ومحجر يتنزّى الدمع منه اسود فيسيل حبر على طرس :

«فرأيتُ اليراع قربي يواسيني ويبكي لما لقيت والقى . . .
يا يراعي وانت خير صديقٍ لي منذ امتزجتَ بي وستبقى
كم حبيبٍ سلا وعهدك باقٍ فهو اوفى من كل عهدٍ وابقى
رب دمعٍ كفكفتُه من عيوني سال حبرًا في الطرس يخفق خفقا»

كذا تبعثرت احلامك وتنفَّرت كأسرابٍ من النحل تتطاير عن تفائر، بعد ان غمرتك بشفقٍ مورّد يغري بالتعلّة الكاذبة :

«غمرته الاحلام بالشفق الورديّ يغريه بالمنى تعليلا
وتلاشت حلمًا فحلمًا الى اللاشيْ غشي به قليلًا قليلا»

وماذا بقي لك بعدِ ذاك ؟ لا شيء سوى حفرةٍ باردة خمدت في جوانبها اشواقك التي لا تُحصى ولا تُجمع :

«وتولى يقوده . . . الداء الى القبر في ربيع شبابه»

وهناك، ابعد من مرتمى عينيك، في لبنان، في التفافة غصنٍ على شجرة، سكت طائرٌ على عبرةٍ خرساء متمردة لانه احسّ بشيء من جمال الوجود يتألم عن الوجود، والوت زهرةٌ بيضاء عنقها الذي ما عانق غير ثغر النسيم العذريّ، واستولى عليها النعاس قليلًا قليلًا فأغفت وما استفاقت لان شيئًا من الندى تبخّر وتلاشى !

يومذاك كنت تغمض عينيك في البرازيل وكان الفراغ يتّسع في لبنان. . .

⁂

خلع فوزي معلوف مقلتين جديدتين على الحياة فوجدها مصفرّةً شاحبة الالوان . كذلك يجدها كل من يغور الى اعماقها ولا يتوقّف على بروق لامعة وخيالاتٍ عابرة تطلّ بين الفينة والفينة على جفون الناس فيُخدعون . لقد علم انّ كلّ ما نهاية له قصير الامد ولو طال، وان الوجود ما يعطي الّا ليمنع ولا يُسعد الّا ليُشقي. لقد ادرك ان الانسان، وهو تلك الجذوة التي لا تشتعل الّا اذا تطاولت لهبتها الى فوق، وجد الانسان ينطفئ في اوجار ظلمةٍ عميقة القرار، كفانوس يشحّ زيته، فاراد ان يعيش في مأمنٍ من عصوف الفناء، اراد التخلص من كل ما يحول دون الخلاص — ولذلك فقد حنّ الى الفوق، فوق كل دعوات التراب، فوق كل هموم الثرى، فوق كل المطامع المكبّلة،

فوق كل المتلكات تلك التي تفترس ممتلكها كما قال الفيلسوف الفرنسي غبريل مارسل (Gabriel Marcel) . واذا به يطلب جناحين يعلو بهما وكانت تلك « الرحلة على بساط الريح » :

« فوق طيّارة على صهوات الريح راحت تروّض المستحيلا
هي طير من الجماد كأن الجنّ في صدرها تحثّ خيولا
همهمت تضرب الرياح بنعليها فشقّت الى السماء سبيلا
ثم مدّت الى النجوم جناحين وجرّت على السحاب ذيولا ... »

هكذا روّض الشاعر التراب الثقيل وعلا به ولكنّ سقطته على الحضيض كانت مريرة بعد سكرة الارتفاع — وهكذا تمثر الحلم الكبير كالدخان في ليلة ريح شمال ، وما بقي من آثار الشعلة غير كومة رماد .

كان حلم فوزي معلوف ارحب من ان يحمله التراب وشوقه الى المجهول اقسى من ان يسمح له بالبقاء طويلاً بيننا . وما ترك من الاثار غير القليل الضئيل مما كان في نفسه العظيمة ، وما ذاك الّا لأن قصة الانسان الحقيقية لا تحشر بكلمات ولا تستطيع الاوزان ان تحتمل فواجعها ، لأن الحروف تحترق ان لامست لهبة النفوس ، والحروف لا تلتقط الا رماداً وذرات من السعير الداخلي المتأجج . كل شعور يتجسم في حرف يفنى . ولن يستطيع شاعر ان يعبّر عن شوقه ، ولذلك فهو يكتب قصيدة وراء اخرى وتنقضي حياته في محاولة حظّها الإخفاق في كل آن . فالشاعر يخون ذاته كل مرة غمس ريشة في دواة وكتب ، وكل مرة ألقى بين يدي القارئين العاديين اشعاره . فرب كلمة له او حرف او نقطة ظنّ انه يشحنها احساسه ويمرّ عليها القارئ الوثني ولا يتوقف . الشاعر وحده يستطيع ان يقرأ اشعاره ولا يخون ذاته ولا الاخرين . فهمت الان معنى عبارة كتبتها شاعرة شرقية الى الذي اهدته واحدة من قصائدها الصوفيّة ، وتلك العبارة الفرنسية لن اترجمها لعجزي عن ذلك . لقد قالت :

« Surtout, ne lisez pas : il
s'agit d'une pénétration. »

هذا الاندماج بنفس الشاعر ان يستطيعه احد ، ولا الشاعر ذاته يستطيع

ذلك تماماً ، لا يستطيع ان يندمج مع ذاته بعد ساعة الالهام ، لان النفس نهر سابح لا نغتسل بمياهه ذاتها مرتين كما قال « هراكليت » (Héraclite) أو كما تأوهت تلك الشاعرة الفرنسية الحماسة ده نويل(Comtesse de Noailles)
« Nous n'aurons jamais plus notre âme de ce soir » (1)

لو ادرك كلُّ شيء في الوجود ان هذا الاحساس ، ان هذا الإلهام هو في هرب مستمر امام الشاعر الراكض وراءه لكي يستجمعه ، لتوقف كلّ شيء في الوجود عن الصخب والضجيج ساجدًا لدى مرور النعمة في الارض ، موفرًا للشاعر كل القوى لاستجماع تلك النعمة — لو الزهور أدركت ذلك لوقفت عن التنفس ونشر العطور إجلالًا ، ولخشع الطائر فوق الغصن ، وأصمت العالم فترةً ، وانها لفترة صمت يوسعها ان تخلّص العالم ، لأن واحدًا من العالم ، هو الشاعر ، يقتبل في تلك الفترة الصامتة نعمة الإلهام أي روح الله !...

ولكن الإلهام لن يتجمع في حروف ، ولن يتجسد في كلمات ، وإلّا لاصبح الشاعر الهًا ، اذ ان الله وحده استطاع ان يلفظ كلمة ذاته ، ان يقول ذاته : والكلمة صار جسدًا وحلَّ فينا ، كما يصلّي الملايين من الكاثوليكيين ثلاثًا في النهار .

وما كان فوزي معلوف سوى واحد من الشعراء الذين حاولوا تجسيم احلامهم في كلمات ، فقتلتهم المحاولة — وتلك هي الشهوة الكبرى التي ما برحت تعتلج في قلب الانسان ، شهوة الى التلفظ بما لا يُقال ، شهوة الى اللامحدود تتطاول حتى الله ثم تنكفئ في تعب نحو المحدود ، نحو الانسان . فماذا بالنتيجة وجيعة ، واذا في نفوسنا تلك المطامع المتكالبة المتطاحنة كأنها تلك الآلهات الاغريقية التي لا تشبع ، تلك المطامع المتداخلة المتكاتفة والمتفارقة المتلاطمة ومسرحها النفس الانسانية المجرحة . فنفوسنا هي دوماً ساحة عراك وهي عدوة وحليفة لذاتها في الوقت الواحد . تنهب العلاء صعدًا تارةً ، وتشد نحو الثرى احيانًا ، ولكنها لا تقنع ابدًا عن ذاتها ولا ترتضي لها مقرًا إلّا حيث لا تستطيع ان تبني مقرًا وتسكنه . محاولتها الاولى والاخيرة هي الوصول الى اقصى ذاتها .

(١ Le Cœur Innombrable

لقد قال نيتشه (Nietzsche) : « انا عليَّ ان اتخطى دائماً انا . » فيردد صداه الفيلسوف الوجودي المعاصر غبريل مرسل (Gabriel Marcel) فيقول : « شعاري ليس : انا ، بل فوق انا » . هذه هي قصة القلق الوحيدة ، قصة الشهوة الانسانية الاولى التي تمتمت مقاطعها شفاه الانسان عند بزوغ الدهر ساعة ارادت حوّاء ان تتخطى حدود ذاتها لتساوي الله بالمعرفة والمقام . وكان الفشل الاول الذي لا يبرح كل مخلوق جديد يختبره من جديد ...

ان حلم فوزي معلوف كان حلم الانسان ، ولم يكتب على حقيقته . « على بساط الريح » كانت اثراً هزيلاً للملحمة اخرى مـا استطاع شاعر الطيّارة كتابتها بحروف مادية وعنوانها : « على بساط الروح » ، والروح خلف الكلمات والحروف ...

فاجعة الانسان تبدأ حين يبدأ بالتساؤل ، بالتكلم مع نفسه والاصغاء اليها ، حين يبدأ يعرف ان هنالك عالماً اكبر من عالمه الضيّق . عند ذاك يبدأ القلق ، لان الانسان يشعر بان عليه ان يستقر في ذلك العالم الكبير الوسيع ولا يستطيع الى الاستقرار فيه سبيلاً ولا عنه تعبيراً .

كذا كان فوزي معلوف : عاش طموحاً الى عالمه الكبير ، وقلقاً عن عجز ، ثم ابتعاداً عن الطموح والقلق الى حيث تجتمع النفوس باشواقها الجبّارة وتهدأ من اضطرابها — شاعر مات والشمس في المطلع وامامها الآفاق تناديها الدوران — مات وزهو الربيع واخضرار وروده تقول للشباب ان يفتحوا نوافذ قلوبهم لطيور الاحلام . ولكنه كان كتلك الزهيرات التي تلوي عنقها الساحر عند الصباح لتموت ، وكالثمرة تهوي الى الثرى قبل رفيقاتها مثقلة بالذائذ الناضجات — ومن يستطيع ان يعلم ايّ عذاب تقاسيه الثمرة الاولى لتنضج ؟ وصمتها الطويل القابل عل هو غير وجع اخرس يضنيها لأنها تحاول ان تتجسد عطاء . وبقدر ما يطول صمتها وعذابها تكون لذتها وعندما تبلغ اقصى امنيتها تموت . من يستطيع ان يعلم اي ألم مبرّح تعانيه العصفورة كي تقدر على البوح بالنغم ؟ وبقدر ما يطول ألمها تطيب انغامها للسامعين . ومتى باحت باجمل نغم تطوي جناحيها وتصمت في ضجعة الموت . كل شيء في الوجود يحاول

هذا التخطي، ويشعر بهذا العجز الشامل، والا فما معنى دورة الافلاك وهمسات الليل، وأنات اعماق الاودية الحالمة بقمم الجبال ؟

كل شيء في الوجود قلقٌ ونحن اكمل ما في الوجود – وشوقٌ الى ابعد. أترى كان ارسطو الفيلسوف الاول يريد ان يعبّر عن هذا حين تكلم عن الافلاك المتحركة شوقاً الى المحرّك الاول، الى الله ؟ لا شك في ان القديس اغوسطينوس كان اوضح معنى واعمق اختبارًا حين هتف ملء قلبه في اول الاعترافات : « خلقتنا لك يا الله وسيظل قلبنا قلقاً حتى يستقر فيك » .

بعد ان اوحى الله بأنه جوهر مثلث، كل شيء يبدو لي مثلثاً في جوهره الواحد.

تساؤلٌ فقلقٌ فإخفاق، هكذا تبدو الحياة : تساؤل عما وراء حدود النفس والكون، قلق في البحث عن حقيقة ثابتة، إخفاق في معرفة تلك الحقيقة كاملةً وفي التطوع الكامل لاجل متطلباتها. فاذا الانسان واحد من ثلاثة : انسان يولد ويموت في قلق واضطراب، انسان ينطوي على إخفاق وتشاؤم. ومن الناس الافراد القلائل مَن تجمعت فيهم هذه المراحل الثلاث فكانوا عظماء الانسانية لانهم اختبروا كل ما تستطيعه الانسانية من اختبار فاذا بهم حين يتكلمون عن ذاتهم يجتمعون مع كل شخص في بقعةٍ من بقاعه الداخلية. من هؤلاء، كان فوزي معلوف، من تلك النفوس الساهرة التي كانت لا تستطيع النفوة اذا الناس ناموا لان ارقها شوق الى اللامحدود، من تلك النفوس التي تكلم عنها شوبنهور (Shopenhauer) حين تكلم عن ذاته قائلا : « يقلقني أن لا يكون شيء يقلقني » . وهذا الأرق وهذا القلق المسيطران على نفس الشاعر هما معنى لكل ما في الوجود من نقص وحرمان. فلولا غصة في نفسه لما أنّت الرياح وانتحب الشجر، ولما وقف دمع على ضفة جفن او التوى فانكسر املودٌ في مهب عاصفة، ولولا كؤوس حبه المتحطمة لما التمعت النجوم كالشظايا الدامعة، ولولا خفقة الشوق في قلبه لما اغرورقت عينا الزهرة بالدموع ولما تشاكت عصفورتان مشتاقتان :

« ما انين الرياح غير زفير تزعته الرياح من رئتيه
ونواح الطيور غير عويل نقلته الطيور عن اصغريه
وبريق النجوم غير شظايا كاس حب تحطمت في يديه »(١

بارك الله رفات ارسطو القائل: « ان النفس البشرية تستطيع ان تكون كل شيء » ولكان اصدق لو قال : النفس البشرية هي كل شيء . تنظر الى الوجود فيحيا الوجود في نظرتها مستعيرًا له منها لونًا ، وهذا اللون منتحب الخطوط كل ساعة : اذ ان النفس في قرارتها حزينة مجهشة ، محرّقة الحدود، فاعماقها مخيفة ، كلما وقف الانسان على شاطئها استقلّ به الدوار ، لان لا شاطئ ولا اعماق لها .

على ذلك الشاطئ القصيّ ، فوق تلك الاعماق اللامتناهية ، وقف فوزي معلوف يتسمع الى اصداء اللجة المتجاوبات التي كانت تناديه الى الغوص والرحيل وما هي لجة في اسفل ، بل هي هوّة في علاء :

« غربةٌ في العلاء ما برح الانسان فيها يغالب المستحيلا . »(٢

لقد غالب شاعر الطيّارة المستحيل فصرعه المستحيل وهوى على الارض بعد نشوة الغربة في العلاء ، فاذا هو محطوم الحلم ، مهيض الجناح . . .

تساؤل

انفتحت عينا فوزي على الكون ، فاذا الكون خرافة يتغنى بها الانسان واذا الحياة ارجوحة تهزّها يـد الابدية ، ويوقّع الحانها الموت امام سرير الانسانية . الموت هو تلك المعجزة التي ما استطاع فك رموزها حين سائل ذاته عنها : « الموت ! الموت ! كلمة رهيبة مكتوبة في كل مكان : على اديم الغمام ، على صفحة الارض ، على متن الرياح ، على كمّ الزهرة ، على جذع الارزة ، على جبهة الانسان ! » هذا ما كتبه الشاعر وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وسيكتب بعد ست سنوات :

« . . . قف يا موت واشفق على قلبي ودعه مرةً يخفق .

١) على بساط الريح
٢) سعيد عقل : قدموس

دعْ مقلتي تبكي قبيل النوى ، تبكي على الورد ، على الزنبق
تبكي على روض غرام ذوى ما فيه من زاهٍ ومن ريّق ... »

وبقدر ما يثبت خطوته في الحياة ، تتشابك الاسئلة المزعجة عن الموت في نفسه ولا يدرك لها حلًّا :

« كيف جئنا الدنيا ؟ ومن اين جئنا ؟ والى اي عالمٍ سوف نُنفى ؟
هل حيينا قبل الوجود ؟ وهل نُبعث بعد الردى ؟ وفي ايّ ارض ؟
هو كنه الحياة ما زال سرًّا . . . . . . »

وهكذا فقد اصطبغت كل اشعار فوزي معلوف بتشاؤم اسود يطاول اليأس ، فاذا حياته كلها سؤال معقود على شفتيه كلما حاول الجواب عليه خانته الكلمات ؛ فشعره شهقة الى ما وراء الطبيعة او غصّة ميتفيزيقيّة كبت منها اكثر ممّا أسمع .

قلق التربة

هذا التساؤل العميق عن كنه الحياة والموت ادّى بالشاعر الى قلق نفساني وجيع . فبعد ان خشي الموت بدأ يتطلبه ، لأنه اراد التحرر من القيود الترابية التي توثقه :

« والآن يا موت اليَّ اقترب يا مرحبًا بالموثق المنتقي
معتق نفسي من قيود الاسى ، موثق جسمي في المدى الضيّق ...
لم يبقَ لي في الارض من بغيةٍ ما الارض الا جنّة الاحمق ... »

وما كانت رحلة فوزي معلوف على طيارة فوق سماء « كوارجا – ريو دجانيرو » الا العرض السطحي لرحلات عديدة قام بها على جناح خياله المديد نحو الموت . ما كانت رحلته في الجو غير تمرين على الموت ، وصعود اليه ، لان الموت صعود ، صعود الحياة الى قمتها ؛ فموت الانسان ذروة حياته ، وموت الثمرة نضوجها ، اكتمالها ، اختبارها . ولكن هناك حوائج ثقيلة تعيق الشاعر عن الصعود وتشد به نحو الارض ، وتلك الحوائج هي « المال » و« السيف » و« العلم » و« الناس » وكل ما في الوجود من هوم وعادات ومطامع متكالبة واهواء مقيّدة . امّا هو فيريد الانفكاك من اغلال الحدود ، من كبول

التراب ليعيش حرًا ولذلك فقد زهد بكل ما يتعبّد له الناس. فالمال الغزير بين يديه يصبح ترابًا اصفر، والشهرة في نظره عبودية، وليس يثبت غير الحرية، حرية الروح، بعد ان ينحل الذهب ويغيم الجمال وتُمحى الشهرة العابرة.

ولكن كيف يستطيع الصعود والتحرّر ما دامت الصعوبات تقف امامه في الجو كالصخور المسنونة الأطراف. فكان كلما علا تثاقل. وبدت له المرحلة شاقة. فهناك النسور، رمز القوى الناشمة، تتألب حوله تريد ان تمزّقه بمخالبها الحادّة:

«وإذا بي ما بين اجنحة سود على الافق حجّبت وجه بدره
طوّقتني بكل فاغر شدق صامد لي بمخليه وظفره ...»

ولكنه يتغلّب عليها اذ يستمد القوة من حلمه الكبير بالراحة الكبرى والانفلات من اغلال التراب:

«لا تخافي يا طير ما انا الّا شاعر تطرب الطيور لشعره
زارك اليوم متعبًا ينشد الراحة في هدأة السكون وسحره
فرّ عن ارضه فرارك عنها من اذى اهلها وتنكيل دهره ...»

وتتبع رحلته. الى اين؟ الى حيث تقصد كل نفس يحز فيها القلق فلا تقنع بالوادي والسهل الموحش، الى حيث يقصد كل انسان كبير الاشواق، جبار الاماني، الى قمة الموت حيث حاول الرواقيون (Stoïciens) ان يبنوا لهم معتصمًا من الالم، الى تلك النرفانا (Nirvana) التي تخيّلها بوذا للتخلص من براثن العذاب.

لقد داس العقبة الاولى، عقبة الجهاد المضنك الذي تمثله النسور وعلا في الجو حتى داني النجوم فذعرت منه اولًا ثم سخرت به وبمحاولته العقيمة. هذه هي عقبة اليأس تستولي على كل قاصد امرًا عظيمًا:

«هو تحت السدم أعجز عن ان يبلغ النجم فوق متن رياحه ...
لا تخافي منه وخليه يملو فقريبًا يهوي صريع كفاحه ...»

على انه يبارك اليأس ويجند كل ما لديه من قوى لكي يقطع هذه المرحلة الصعبة. ان لديه حلمًا كبيرًا كم تلهّف في وجع وحرقة للوصول اليه واذا به

يخاطب النجمة بكلمات تشيع فيها عذوبة النجوم الزرقاء الالوان مخبرًا اياها عن شوقه المزمن الذي كان يبثّها اياه في الليالي الطويلة :

« ايه يا نجمتي ألم تعرفيني شاعرًا ينصتُ الدجى لنواحه ؟
كم ليالٍ في الروض احييتها ابكي واشكو اليك بين اقاحهْ !
سامح الله فيكِ قلبًا نسيًّا . . . . »

سامحها وسار بعيدًا وراء ميت الاشعة ، وراء مرقوب الظنون . هو وحده في ذلك القفر العريض يعاوده اليأس ويخال ان طموحه كان مغامرةً تكاثر فيها الوهم ، فيندب حظّه ووحشته القاسية :

« نجمةَ الليل رحمةً ، فضلوعي
من شجوني
تتمزّقْ . . .
واذكريني بين الكواكب وادعي لي ، عسى يهتدي اليَّ السلامْ
ليت شعري والليل يعقبه الفجر ، متى يعقب البكاءَ ابتسامْ ؟
ضاع عمري سعيًا وراء رسوم خطّطتها في الشاطئ الاقدامْ . . . »

هذا التعب المهدّم صوّره لنا شاعر آخر اسمه سولي برودم (Sully Prudhomme) في قصيدته « Le Zénith » حيث وصف عراك النفس الطامحة الى العلاء والجسد الطالب الثرى مقرًّا :

L'éternelle dispute, agonie incessante :
La chair, au sol vouée, implore la descente,
L'esprit ailé lui crie un « Sursum » infini . . . »

أترى هل لذلك الاغتراب هدوء واستقرار في واحة خضراء ؟ أترى يجتمع بالحلم الذي خطّطت اقدامه رسومًا شواحب في الارض ؟ . . . ولكن ها قد بدا من بعيد « عالم الارواح » . . .

حفنة من تراب واهية تفرش فوق النجوم جناحين شدّدهما امل الالتقاء بالمجهول ، وتتصاعد حتى العالم العاقد الارواح بعضها ببعض مشدودة بخيوط الحب الغلّاب . والشاعر هو في كل آن ذلك الجبار العنيد ، « نمرود » الذي صوّره لنا « ڤيكتور هيغو » ذاهبًا الى « اكتساح السماء » فها هي الارواح ترف حائمات بين يديه . هي آماله العظيمة الرحبة التي تأوي بيتًا ما صنعته

كفٌ من التراب المضمحل ، وتبيت في جزيرة الشعاعات البواسم ، هي آماله المجنحة كأنها النحل يطنّ في اذنيه :

ولها كاختلاج اجنحة النحل أزيزٌ يطنّ في أذنيّا . . .
فتنبّهت من ذهولي وأصغيت لعلّي اجلو هناك خفيّا
فسمت الذي توشوشه الارواح عني ، وما تفكّر فيّا . . . »

وهنا يصغي الشاعر الى تمتمات الارواح وما تفكّر في بني الانسان الذين يملأ قلبهم « فحيح الافاعي » و « ينهش الحسد نفوسهم » و « ينسون الخير ويوغلون في الشر » و « يدوسون الضمير » ويحكّمون « الطمع » « والانانية » أولئك الذين « نطقهم اذى » و« ارضهم جحيم » و« عامهم هدم » و« عمرانهم خراب »[1] . ولكن الشاعر لا يشارك بني قومه بهمومهم السافلة ولا يقاسمهم المطامع الارضية ، بل هو يكفر عنهم ويهرق عمره ذوبانًا كالشمع على الهيكل لكي يهدي الناس ؛ وهو فوق ذلك يسكن عالمًا غير عالمه ولو خُيّر لما اختار غير ظلمة القبر :

« هو بالرغم عنه من عالم الارض ترئيا بشكل ابناء جنسهْ
سكن الارض مرغمًا وهو لو خُيّر ، ما اختار غير ظلمة رمسهْ . .
يتلاشى كالشمع – كي يعطي النور – على هيكل الخلود وقدسهْ . . . »

والتقى اخيرًا الشاعر بروحه ، بحلمه الكبير ، بعد ان هجر الارض فترة . . أترى ينعم باضواء النجوم وتمتماتها الشاردة غير الذين تخلصوا من اغلال الارض التي تقيد كل نفس عطشى الى النور ؟ أترى يلمح شعلات الافاق المجهولة غير الذين قبلوا بان يودّعوا الشاطئ ويرحلوا الى بعيد البعيد المغلق ؟

وما هي غير دقائق معدودات اختلى فيها الشاعر بروحه ، دقائق ملأى بقبلات الشوق ترجع صداها عذارى الارواح من بعيد و « يسكب النسيم العليل فوق لظى انفاسها ندى نفثاته » :

« اذا جلسنا على بساط من السحب يفوح الغرام من جنباته . . .
وعذارى الارواح تنشد من بُعدٍ بصوتٍ ، أغنّ في نبراتهْ . . . »

---

١) على بساط الريح النشيد الحادي عشر .

إخفاق

وصحا الشاعر من سكرته فوجد ذاته على الارض « يكابد بعد حرية الرق والعبودية » . لقد كتب بعد ذلك « شعلة العذاب » تلك التي ألهبت قلبه وحوّلت اشواقه الى رماد . فاذا به يركع « في هيكل الذكرى » يستعيد المراحل التي قطعها ويندب ماضيه السعيد :

« ارجعي القهقرى أيا ذكرياتي
ان قلبي
ذوى ومات
فانا عائش بماضي حياتي
فهو حبي
من الحياة . . .

« ليس فكري الا صحائفَ يضاءُ عليها الذكرى تخطّ وتمحو . . .
طُويت بسمةٌ ليُنثر دمعٌ وخبت بهجةٌ ليلمع جرحٌ . . . »

لقد « سقط على اشواك الحياة فجرحته » كما قال « الشاعر الملائكي » شلي (Shelley) :

« I fall upon the thorns af life ; i bleed »

وما اجمل ان نستعيد كلمات سولي برودم من القصيدة ذاتها التي ذكرناها :

« Mais épuisée enfin, la chair plie et s'affaisse,
Et comme un feu sacré dont se meurt la prêtresse,
L'esprit abandonné s'abat évanoui . . . »

اما الشاعر فهو ذلك المخلوق المختار ، تلك الجبلة الوديعة ينحني فوقها الفنان الاكبر ، الله ، يجبلها ويكملها حتى تصبح شبيهة به واهلاً لأن ينقلها اليه . يموت الشعراء شباباً لانهم من جبلة طيّعة تلبي انامل الله فتجبل وتكمل بسرعة فائقة ، فيهوي التراب الى التراب وتتابع الروح رحلتها حتى الوصال الاخير . . .

لقد سكت فوزي معلوف ، وفي غابة من غابات لبنان كان طائر سحري لم ينظره احد يصمت في ظل غصن ليتأمل بسكتة اخرى ابدية . . .

لقد سكت ليتابع في الصمت حلمه ، لقد سكت ليعبد ويحب ، كأنها سكتة الحمامة بعد انشودة في ايك دفيء ، سكتة حلم عريض لراحل راحل لا يقف …

بعد ان أسمعنا صرخات انسان ، سكت ليسمع حديث الله . السكوت وحده يسمع اما الكلام فحماقة وهذيذ محموم يتألم .

كان كعصفورة اغتربت وعاودها الحنين الملحّ الى عشها البعيد فحطّت قليلًا على غصن رطيب واندفعت بانشودة شوق وغربة ثم رحلت تاركةً في الجو رجعَ انغامها …

كان كثمرة نضجت باكرًا وانحنت بثقل نضوجها للمعطي الوهّاب – كذا اعطى فوزي الحياة اكثر مما اخذ منها وكل عظيم في الارض هو سخي .

اذا كانت حياته قصيرة ، فانها طويلة القصر ، وامامها الخلود يكسبها ما لا تقاس به الأعمار المحدودة . اما هو فكان ضحية شوقه الى اللامحدود . عظماء الدهر لهم تاريخ يبتلعه تاريخ الدهر الفاني ، اما ضحايا الشوق للخلود فلهم حياة مشحونة بالخلود والبقاء …

الشعر جذور

وانطوى بعد ذلك ولكنه ما برح حاضرًا باقيًا بيننا ، لأن الشوق القديم الذي ألهب حياته ما زال جديدًا يُلهب جذور حياتنا . ونجتمع به كل مرة قُدر لنا ان نتفلّت من هموم ترابنا وملاهيه الجوفاء لنجتمع بذاتنا وباشواقنا الحقيقية … الشعر عجنة البقاء ! ينطوي جناح الشاعر ويخمد ضرم الاحساس فيه ولكن سبب اضطرامه هو الباقي ، لانه هو هو في كل نفس في كل عصر في كل رقعة ارض .

ترى هل كان ازميل « فيدياس » ألّا كسائر الازاميل ، والرخام الذي بين يديه الا كسائر الرخام ؟ ومات « فيدياس » ومدت الايام يدها الطاحنة تضرب على تماثيله فتقطّعها ، ولم يبقَ غير روح « فيدياس » الانسانية الشاملة تحاول ان تجسّد شهوة لا حدود لها ، تحاول من حجر ان تصنع انسانًا ، تحاول من

الفاني ان تبني البقاء . وها نحن بعد ثلاثة وعشرين جيلاً نلتقي به كلما أصغينا الى نفوسنا التي تروي القصة الواحدة ، قصة كل النفوس . . .

وريشة « ميكل انج » كانت ككل ريشة بين اصابع كل رسام ، وسقف كنيسة « السكستين » كان ككل سقف في كل كنيسة . ومات «ميكل انج» ورعت سوسة الزمان اذيال رسومه ، اما ما بقي فشهوة انسان، دُعي عرضاً «ميكل انج» وكان يستطيع ان يُدعى غير ذلك ، شهوة انسان مثلنا يحاول ان يجتم بالالوان الاحساس الانساني اللامحدود الذي يضطرم في اعراق كل بشري طامع باكثر من بشريته . . .

و« بياتريس » تلك الفتاة الساذجة النظرات كانت ككل صبايا فلورنسا وانفتح قلب « دانته » على سر حبها فاختلى بذاته يحاول ان يبدع «بياتريس» جمالاً لا غبرة قبح عليه . ومات « دانته » و« بياتريس » ، مات الحبيبان وبقية الجذوة المشتعلة ، الحب . ونحن لا نعجب «بدانته» الا بقدر ما نكتشف ذاتنا في شعره . . وبقدر ما نستطيع الحب ، نستطيع فهم الشاعر . ولو استكمل الحب ذاته في كل النفوس ، لتعارفت كل النفوس وتحابت ، فجاء الملكوت وحضر الله الذي قال عنه يوحنا الحبيب « انه حب ». ولكن الحبّ لن يكمل الّا بعد ان يمرّ بالموت فيتكرس ويصبح ابدياً . طالما نحن في الحياة فالقلق وعدم الاستقرار نصيبنا الموجع وقسمتنا المبللة . ولذلك فثمي اعمق كياننا شهوةٌ للكمال ، للاستقرار ، شهوةٌ للموت . ولقد صدق دوهامل (Duhamel) حين قال : « دلّني على الانسان الذي لا يشتهي أن يموت . » .

العجز الانساني

والشاعر هو الذي يطلع في برهة مجفلة من الزمن على سرّ الحياة والموت والابدية ، وهو يمسي جريحاً كلما عاد من رحلته وحاول ان يستعيد مراحلها . الشاعر يقف على اسرار الكون مستعيناً بعقله وحسه ويحاول ان يعبّر بكلمات فانية عن تلك الاسرار التي هي اعمق من العقل والحس . ويكون العجز دائماً نصيبه والفشل قسمة محاولته . يقول حزوفاً ويتمتم مقاطع مبعثرة مضطربة

ولكن الحقيقة تبقى حبيسة الوادي النفساني الذي لا قرارة له . وما ذاك الّا لأن قصة الانسان الحقيقية لن تُملى . واذا ببعض الشعراء وقد امضّهم هذا العجز يقلعون عن الكلمات العاديّة الفاشلة ويريدون خلق جو من اجواء احساسهم الكبير ، فاذا الكلمات لا معنى لها واذا الجوّ يتلون بموسيقى حروفهم : فهنالك لفظةٌ او حرفٌ او وقفةٌ على شاطئ قافية اوتنفّسٌ على منعطف شطر ، او نظرةٌ صامتةٌ الى نقط ثلاث ، تزدحم فيها الاسرار التي لا يُباح بها : هؤلاء الشعراء هم السورياليون (Surréalistes)

وهذا العجز ما هو الا نتيجة متطلبات الالوهة في النفس البشرية وقد يؤدي الى سأم ويأس . ولقد اختبر كثير من الفنانين هذا العجز عن اداء الاصوات التي تصغي اليها مسامعهم الداخلية ، تلك الاصوات التي لا ترتسم بصورة ولا تتميّز بلون . أما قال «سوزو» (Suso) ذلك المتصوف الالماني العميق الفؤاد : «أنّى لي أن اعطي رسماً لما ليس له رسم ؟ فما من تشبيه او مقابلة تساعفني في ذلك».

ومنهم من آثر السكوت العنيد على الكلام المجدِّف على قدسية النفس واشواقها القاصية . فبعد ان حاول « رمبو » (Rimbaud) التعبير عن جوع روحه المذيب نطق بهذه العبارة الملأى بالعبارات التي ما استطاع التلفظ بها : « انا افهم واحس ، ولاني لا استطيع ان اعبّر عن احساسي بغير الكلمات الوثنية ، ارغب في السكوت ». ولقد سكت حقيقةً على وجعٍ هائلٍ وغصةٍ جبارةٍ وكبرياءٍ ذليلة ...

وهناك من انتحر لانه عجز عن التفوّه بالكلمة العظمى التي حمَلتها نفسه الكبيرة . وما انتحار « رينه كروفيل » (René Crevel) الا نتيجة المأساة الداخلية التي لا تُقال . فبين صمت الشفاه ونداء النفوس تُسمع كلمات الشاعر الخرساء التي هي مجبولة من صمت وتمتمة ، وصمتها اعمق وابعد غورا من تمتمتها .

فمها حاول الانسان ، لن يستطيع ان يقول كلمته ، ان يلفظ ذاته . فما استطاع ذلك غير الله القائل : « انا هو الذي هو » .

وما كلمات الشاعر الّا الصدى الضعيف ، الا الرجع الهزيل الذي يكاد لا يُسمع ، للكلمة التي ناداه بها الله منذ الازل ليستفيق على الحياة . وما حس

الشاعر الا شيء مماً شعر به يوم مدّ الله ابهـامه الى التراب العديم الاحساس لينهضه من كثافة العدم . وما شوق الشاعر الى اللانهاية غير اثر للشعلة التي، في مطلع الزمن ، تركها الله حين نفخ في الطين والماء . ولا يزال يبحث عن تلك الكلمة الاتية من الاعماق الانسانية ، ويفتش عن ذلك الاصبع الالهي وعن تلك النفخة الخالقة ، حتى يجدها وتكون العبادة التي لا تنقضي في ابد مشبع ، ومغموس بالصمت المترنم ، لانه ملئ بالله ... هكذا كانت نهاية فوزي معلوف ، ففي ذمة الله يا ابن لبنان !

حلم اخير

تراودني في بعض الغفوات اشباح من الشرق ما عرفتها الا قطعاً هزيلة في اثار تركوها على ورقات باليات .

كان ذلك سنة ١٩٤٤ ، في ليلة مقمرة من ليالي الصيف ، في قرية نائية من قرى الجبل مستلقية على جوانب مثلث اخضر . غفوت وفي اعماق النفس تتجاوب اصداء « على بساط الريح » فحلمت اني في « قصر الحمراء » في الاندلس اقطف وردة بيضاء مشعشعة البتلات واغرسها على قبر ابيض الطلاء لأفي بأمنية باح بها فوزي معلوف لصديقه الشاعر « فرنسيسكو فيلاسباسا ». وأزعج البياض المبهم عيني ففتحتها واذا بي على سريري والقمر الحيران يتمايل بين اشعة بيضاء باردة ، وفي البعيد من الافق غيوم شاردات كأنها نعاج ترعى او مراكب فينيقية ترجع « الى البلد الوادع الاسمر » محمولة على موجات بحر عريض . لقد أجمل حلمي بعيداً وكم كنت اودّ لو طال لانعم به . فذكرت آذاك قول الشاعر ذاته :

« يا لها فرصة مضيئة سنحت مرة ولم تعد
كنت فيها قرب السعادة لو شئت طوقت جيدها يدي
كنت كالطير عند ساقية أمّها ظامئاً ولم يرد ... »

ورب حلم يبخل الواقع بمثله — اجمل ما فينا نحن ابناء الشرق هي الاحلام واشنع ما فينا هو الواقع . ولا بدّ من يوم آخر يجتمع فيه واقعنا بحلمنا ، عند ذاك نصبح مستحقين نعمة اخرى كفوزي .

أعطنا ان نستحق عطاياك يا رب ! ..

ارق نفس ...

بقلم ميشال حايك

انه « الشعر الروحاني » المطل من شرفة المستقبل عندنا ... بين الواقع الشنيع الضاري وبين الحلم الجميل المزري ، توجد نفس الشاعر القلقة ، المضطربة ، التي لا تنام . تريد ان تتفلت من الواقع لتجتمع على مائدة الحلم بالحب الشامل الذي فيه تتعارف وتتحاب كل الارواح ، ولكن قيودًا من تراب تكبلها فتمسي على حنين مستمر . تبني كل يوم عالمًا جديدًا تأوي اليه ولكنه ينهار سريعًا ويبقى الالم القاسي ... وهذه ثلاثة مظاهر من هذا القلق النفساني يقدمها شاعر ... « المشرق »

أوصدتُ نافذة الافقِ ، خبا نور الليالي !
انتِ في هـذا الدجى تـمين في إثر المحالِ ،
ظبيـةً شاردةً بين غاربِ الجبـالِ
فارجعي ! ما أوحش السكنى بدنيانا ! تعالي !

*

انتِ يا نفسي حنينٌ ليس تفنيه الليـالي
إثرَ مجهولٍ خفيٍّ دقَّ عن مرمى الخيـالِ
فاستقري ، ان مـا تبغينه صعب المنالِ .
هدّم الشوق محيّاك فامسى في هزالِ

*

هـل تجسَّدتِ ؟ فكفّي لمست جسمًا ترابي
أترى جسـمك هذا ، ام ترى جسم السحابِ ؟
هل تُرى عينـاكِ هاتانِ بجوٍّ من ضبابِ
تحت شعرٍ لونُهُ لون ظلامٍ وعذابٍ ؟

*

كيف أزمعتِ على هجر الثرى والارتحـالِ ؟
ملّ دنياكِ الاماني ومواعيـد الوصالِ .
كيف تمضين وفجر العمر يبدو في التلالِ ؟
هل سئمتِ الارض واشتقتِ الى غير جمالِ ؟

*

مقلةٌ انتِ استفاقتْ ، قبل ميـلاد الزمانِ
من منام الحب ، في جسمٍ ترابيٍّ مُهـانِ ،
لم يزل فيك بقايا بسمةٍ ، يا بنتَ الثواني
من عذارى الجنـة الاولى وفردوس الحسانِ .

اي حلم بين عينيك غريب لا يبالي
بنفاثات الروابي وارتعاشات الدوالي!
انت كالصخر لماذا لا تردّين سؤالي؟
انظريني ساجدًا عفّرت وجهي في الرمال...

*

هل ترى أقضي حياتي كلها إلفَ الظلام،
ساهرًا قربك في العتمة معقودَ الكلام،
خفقةٌ منك لها ألف دويٍّ في عظامي!
نام كل الناس في الارض، لماذا لم تنامي؟...

الحلم البعيد

هل يا تُرى لمّا يجيء الغدُ، ذاك الخيال المرتجى الأبعدُ،
نقلتُ من كفّي المنى يا تُرى وتجفل الاحلام والموعدُ؟
يا نجم، يا ثكلى أشفقي ان ذوى حلمي غدًا، وولولي يا يدُ!
ويا فراشات، كسالى أرخلي؟ قد غاض ذاك العُنق الأغيدُ
وجفّ ثغرٌ فوق الحيابه كان ترابك وكان السددُ...

*

لا! خلّني اقضي ماثي على شرفة احلامي، هنا أسعدُ،
- اشهى مواعيد المنى موعدٌ منتظَرٌ يدنو ويستبعدُ -
حتى اذا الليل انطوى وانحتْ نجمة امسي في الضحى، ارقد...

*

خلف بحيرات الدراري لمَن يا ليل؟ - يا غيبوبةً تُحمدُ
هل من مقرّ بين اظلالها لا امسِ لي فيه ولا لي غدُ!...

نجوى

اسمعي!
من حشا الصمت واعماق السكون
تتعالى همسات...
أتراها شهقةً من اضلع
تستقي في الليل غصّات المنون؟
ام تراها كلمات

من هوًى ، باح جنّ العاشقون
حمّلتها النسماتْ
شهوةَ الليل فخلناها جنون ؟
ام صدى اشواقنا والادمعِ ؟
ام نمي ؟

*

اسهري !
قد تكون الآن عبر الافقِ
مقلةٌ شُدّتْ الى
مقلتينا بحبال القمرِ !
انما مقلة انسانٍ شقي
مثلنا ، يمسي على
عبرةٍ مزمنةٍ في الحدقِ !
خفّفي عنه البلا
ولنسامرْه بليل الأرقِ !
لِتنمْ كل عيون البشرِ
فاسهري !

*

احملي
جسمِيَ العالقَ في غلّ الوجودْ ،
في قيودٍ من ترابْ ،
حيث يبكي ذلك الجفن الملي
من هموم الأرض ، من سجن الحدودْ !
لي اخٌ رهن العذاب
(واخي كل شقيٍ ووحيدْ)
فاحمليني لا اريدْ ،
طالما في الأرض انسانٌ مصابْ ،
ان انامَ الليلَ ملْءَ المقلِ !
لستُ لي ! . . .

الاخبار العالمية

اخبار العالم الكاثوليكي

مؤتمر علماني عالمي للعمل الكاثوليكي : يجتمع هذا المؤتمر في روما من ٧ الى ١٤ تشرين الثاني من السنة الحالية وقد اعدّ بيان اهمّ مواده نخبةٌ من ممثلي البلاد الكاثوليكية اجتمعوا لهذه الغاية في المدينة الخالدة في ١٨ و١٩ كانون الاول ١٩٥٠

الكثلكة في الولايات المتحدة : جاء في كتاب موجز الحوادث الكاثوليكية في الولايات المتحدة لسنة ١٩٥١ ان عدد الكاثوليك اللاتين فيها وفي الاسكا وفي جزائر هاواي بلغ ثمانية وعشرين مليوناً وستمئة وستة وثلاثين الفاً وثمانية وثمانية وسبعين . فيكون اذن عددهم قد ازداد في السنة الاخيرة ثمانمئة وستين الفاً وسبعمئة وسبعة وثلاثين. اخص اسباب هذا النموّ ازدياد عدد المواليد ونقصان في الوفيات يُضاف اليها مئة الف اهتداء الى الكنيسة الكاثوليكية . في الولايات المتحدة اربعة كرادلة واربعة وعشرون رئيس اساقفة ومئة وستة وخمسون اسقفاً

الحالة الدينية في بولونيا : ازاء قوة الكنيسة الكاثوليكية البولونية وشدة مقاومتها للشيوعية اخذت الحكومة تبدل اساليب عملها المداني ضدّها طلباً للاشاتها . فانها لما تأكدت عدم مقدرتها على اقتلاع اصول الايمان الكاثوليكي الراسخة في اعماق قلوب البولونيين صارت تسمح للشيوعيين بالتردّد الى الكنائس بكل حرية . تريد بفعلها هذا ادخال الروح الشيوعية في الشعب الكاثوليكي . وان صمود السلطة الروحية الكاثوليكية قبال المناورات الشيوعية هو امر يزعج الحكومة البولونية ويشل أفكارها ويقف ازاءها في نضالها ضد الكثلكة حاجزاً لا يُتعدّى

اضطهاد الكثلكة في الصين الشيوعية : كانت الحكومة الصينية الشيوعية بادئ بدء متحذّرة في مناهضتها للديانة الكاثوليكية لكنها منذ شهر كانون الاول ١٩٥٠ قد اشهرت عليها حرباً علنية تستعمل ضدها كل وسيلة يمكنها استعمالها خصوصاً الكذب والشدة : تنشر بجرائدها عن المؤسسات الخيرية اشنع الافتراءات وتتهدد وتخوّف : تحجز على المدارس وتضع يدها على المستشفيات وتنلق المستوصفات وتضبط الكنائس وتطرد المرسلين او ترميهم في سجونها كما فعلت بالمطارنة التسعة . وهي تسعى الآن بكل جهدها لانشاء كنيسة مستقلة منفصلة من روما

اليابان وروما : مرّ بروما السيد تاكيو كورودكاوا وزير الاقتصاد الياباني في سفره الى جنيف لتمثيل بلاده في اجتماع منظمة الصحة الدولية العام وقد حظي بمقابلة الحبر الاعظم فانتهز هذه الفرصة واعلن لقداسته شكرانه للاعمال الجليلة التي تقوم بها الرسالات

الكاثوليكية في اليابان قائلاً : حينما دعتني وظائفي الوزارية في بلاد اليابان عجبتُ لما وجدت فيها من مشاريع الاسقف الاجتماعي الكاثوليكية من مستشفيات ومستوصفات ومآوي البرص وميَاتم مزدهرة وهكذا نا كدت انا بذاتي روح التفاني الذي يسل في قلوب المرسلين الكاثوليك ومذ ذاك لم ازل اعلّل نفسي بالاستفادة من اول سفر اقوم به الى اوروبا لأجيء انا بذاتي اقدم عنها لقداستكم تشكراتي

وقد اثر هذا الكلام في نفس الاب الاقدس فقدم للوزير تذكارًا لزيارته الايقونة الفضية الكبرى التي ضُربت بمناسبة اعلان عقيدة انتقال العذراء الى السماء

عدم استقرار حالة الاديرة الرهبانية والخورنات والمدارس في اسرائيل : منذ شهر نيسان ١٩٤٩ كفّ اسرائيل عن السماح لاحد بالدخول الى فلسطين الا بصفة سائح اي لمدة محددة : لشهرين او لستة اشهر . فباي وسيلة اذن اذا دامت الحال على ما هي تستطيع البيوت الرهبانية والخورنات ان تجد من يخلف فيها الذين يتوفون او يضطرون الى مغادرة البلاد لاي علة كانت فانه ليس في فلسطين دعوات رهبانية وكهنوتية كافية لذلك

اما المدارس فقد أغلق اكثرها لسبب هجرة العائلات الكاثوليكية يوم اجبرتها الحوادث على ترك فلسطين . والمدارس التي ظلت مفتوحة كالتي في حيفا مثلاً فاكثر تلاميذها اسرائيليون وهذا يعرّضها لمشادة عنيفة ولو خفيّة من قبل حكومة اسرائيل التي ليست راضية من رؤية العائلات اليهودية ترسل اولادها الى مدارس مسيحية .

لكن ليس من ينكر على دولة اسرائيل عدم اضطهادها للكهنة والراهبات بل بعكس ذلك ان دوائرها الرسمية لا تزال تراعي حرمتهم وتعاملهم معاملة حسنة وهكذا يصح فيهم قول احدى الراهبات : انهم لا يضطهدون الاعمال والعائلات الكاثوليكية لكنهم يخنقونها شيئًا فشيئًا .

افسس محج للزوار والسيّاح : افسس مدينة قديمة جليلة الآثار تريد الحكومة التركية ان تحدث فيها طرق مواصلات عصرية تسهيلاً للزوار والسياح فتجعلها هكذا محجًا آخر للمسيحيين ولمحبي الآثار القديمة هدفًا جديدًا

من الآثار المسيحية في افسس نخص بالذكر الكنيسة التي اجتمع فيها آباء المجمع المسكوني الشهير سنة ٤٣١ كنيسة ماريوحنا الملكية ثم البيت الذي أوته العذراء بعد الصعود وفيه توفيت حسب رأي بعض المؤرخين وهو رأي ينكره غيرهم كثيرون ورأيهم ان العذراء بعد الصعود عاشت في اورشليم وفيها ماتت . وقد تأتي الحفريات التي يقوم بها اليوم بعض العلماء بنتائج تضع حدًا لهذا الجدال

روما واثينا : في ١٥ شباط من هذا العام بمناسبة الذكرى التاسعة عشرة لقدوم بولس الرسول الى بلاد اليونان وجّه رئيس اساقفة اثينا السيد سبيريديون كتابًا الى الحبر الاعظم فيه يدعوه الى ارسال بعثة تمثل الكنيسة الكاثوليكية في احتفالات هذه الذكرى فاجابه المونسنيور مونتيني باسم قداسته بعدم امكان قبول هذه الدعوة ومن اسباب هذا الرفض

ذكر عدم رضى قداسته عن سوء موقف الشعب اليوناني ازاء الكرسي الرسولي فان اليونان لا تزال قائمة في اقامة ممثل دائم له فيها ولو للشؤون الدينية المحضة . وقد اساء السيد جان بوليتيس وهو من موظفي الدولة في وزارة الخارجية ومعه بعض الجرائد في تأويل هذا الرد فنقاد الكرسي الرسولي واضاف اليه ايضاحات بها بيّن اغلاط المؤولين المنتقدين نذكر شيئًا منها بنصّه : . . . ان اصرار الحكومة اليونانية على رفض ممثل روحي دائم لهو امر صعب فهمه الا على من لا يجهل بان موقفًا كهذا هو خصوصًا ناتج من تعصب بعض الدوائر الماسكة للكثلكة في اليونان .

اخبار دولية

لبنان : في ١٥ و٢٢ نيسان تمّ انتخاب المجلس الجديد وعدد اعضائه سبعة وسبعون بزيادة اثنين وعشرين نائبًا على عدد نواب ٢٥ ايار المنتهية مدته . وقد عقد المجلس الجديد جلسته الاولى في ١٢ حزيران ثم قدمت وزارة الانتخابات الثلاثية استعفاءها وشكّل السيد عبدالله اليافي الوزارة الجديدة

* اضحت مسألة حقوق المرأة اللبنانية بالانتخاب موضوع بحوث ومطالبات متشددة ملحّة ويبين انها لا بد ان تقرّ رغم اعتراضات الرجعيين وجلبة صخبهم . اما رأي الكنيسة المسيحية في هذه الحقوق فمعروف فانها ترى في تحرير المرأة المدني امرًا يفرضه الانصاف فرضًا جليًا فالبابا بندكتوس الخامس عشر سنة ١٩١٩ اعلن قائلًا : اننا نودّ ان نرى المرأة في كل البلاد متمتعة بحقوق الانتخاب .

الخلاف السوري الاسرائيلي : لم تُحلّ بعد المشكلة السورية الاسرائيلية حلًّا نهائيًا فالاسرائيليون مصمّمون على تجفيف بحيرة الحولة وعلى مواصلة عملهم لذلك . ليس هذا الخلاف الا مظهرًا من مظاهر الخلاف الجوهري الشديد القائم بين العرب واليهود منذ يوم اعلان بلفور المشهور سنة ١٩١٧ وليس من يجهل الاضطرابات الدموية العديدة التي عقبت هذا الاعلان وبالاخص يوم تجزئة فلسطين بين هؤلاء واولائك

* في الاجتماع الذي عقدته مؤخرًا في دمشق لجنة الجامعة العربية السياسية تقدمت اليها بعثة فلسطينية بمذكرة فيها طلبُ تجنيد جميع الفلسطينيين القادرين على حمل السلاح والالحاح بتحقيق قرار الامم المتحدة باعادة اللاجئين الفلسطينيين الى بلادهم

المندوبون الاربعة : تتابعت اجتماعات المندوبين الاربعة في باريس عديدة لكن دون جدوى . اذا كانت بالحقيقة غاية الحكومة السوفياتية – كما يدّعي بعضهم ذلك – المماطلة وكسب الوقت فقد اتخذت للوصول اليها خير وسيلة فان هذه المناورات والمحادثات المملة هي ايضًا نوع من الحرب «الباردة» القائمة منذ سنين بينها وبين الحلفاء علاوة على

الحرب «الحامية» التي لا تزال تدور رحاها في كوريا ففي هذه الحرب وتلك انهاك قوى الحلفاء المادية والمعنوية بانتظار السنة واليوم اللذين تختارهما لمفاجأتهم بالضربة القاضية

كوريا : بعد ان وصل الشيوعيون بهجومهم الاخير الى ضواحي ساوول عند منتصف شهر ايار وقفوا فجأة ثم اخذوا من جديد طريق الارتداد الى الشمال من حيث جاؤوا والحلفاء يتعقبون آثارهم مرة اخرى الى ان بلغوا الخط الثامن والثلاثين واجتازوه من جديد في الجهة الغربية .

* ما تكون نية الذين دفعوا بالصينيين الى الحرب الكورية المهلكة فانهم يهربون من الانتصار كمن يخاف نهاية هذه الحرب ولا يريدها بل لا يريد منها الا مداومتها لانهاك قوى العدو وربما ايضاً لاضعاف قوى حليف يمكنه يوماً الصمود امامه ومناوءته . . .

* ان دول الغرب ومنظمة الامم المتحدة ترغب رغبة شديدة في وجود حلّ سلمي لمشكلة كوريا والتخلص من حربها وتعمل لذلك تساعدها الجرائد باعداد الرأي العام على قبوله ، اما جزيرة فورموزا التي تطالب الصين الشيوعية بها فلا ترضى الولايات المتحدة الا ببقائها مستقلة منها ولن تسمح ابداً بان تمنع جبراً في حوزة منتصب ايّاً كان

* الحّت الولايات المتحدة على منظمة الامم المتحدة بان تقرر حظر امداد الصين الشيوعية بالمواد الصالحة للحرب وقد اتهم ماك ارثور انكلترا في خطابه بانها قد قدمت لها عُدداً حربية اما مباشرةً او بالسماح بذلك لغيرها من الدول على طريق هونغ كونغ . وبنوع اجلى وجّهَ اليها التهمة عينها النائب الاميركي ارمسترونغ الجمهوري امام المجلس قائلاً بان انكلترا في هذه السنين الثلاث الاخيرة قد ادخلت بواسطة بريطانيين الى الصين الشيوعية كل المواد الصالحة لانشاء مصنع قنابل ذرية . . .

ايران وبريطانيا العظمى : من يوم قرر المجلس الايراني تأميم شركة الزيوت الانكليزية الايرانية قامت بين حكومته وحكومة لوندرة مشادة عنيفة وخلاف شديداقلقا العالم ولا يزالان يُقلقانه . فانه رغم توسط الولايات المتحدة ونصائحها للحكومتين ورغم ما ابدته الحكومة البريطانية من الاناة والتساهل لم يمكن بعد الوصول الى اتفاق مرضي والوصول الى هذا الاتفاق يظهر من يوم الى يوم ابعد واصعب خصوصاً والشعب الايراني مُجمع ومُصمم على مناصرة حكومته بحزم وشدة يجعلانها هي نفسها نوعاً ما مضطرة الى اتمام مطاليبه غير قادرة على اخماد قوة تحمسه خصوصاً ووراء الحريق منتصب من يهمه ان يزيد في اضطرام نيرانه بمدها بالوقود صامتاً متستراً

مصر وبريطانيا العظمى : كانت الحكومة الانكليزية رغبةً منها في ارضاء مصر قد عرضت عليها ابدال معاهدة ١٩٣٦ بأخرى جديدة تكون لصالحتها معاً فأبت مصر الدخول معها في محادثات في هذا الشأن الا بالشروط الآتية اولاً : ان يترك الانكليز قناة السويس في خلال السنة . ثانياً : ان يسحبوا جيوشهم من مصر وهذا الشرط جوهري لا تهاون يمكن دونه . ثالثاً : الحاق السودان بمصر.

* اما الاسباب التي تجعل الحكومة المصرية مُصرّة على المطالبة بانصراف الجيش الانكليزي عن مصر والقناة فهي اولاً : تمسكها بفكرة الحياد في حالة وقوع حرب فان وجود جيش اجنبي في اراضيها يعرّض حيادها للخطر . ثانياً : انها ترى في وجود جيش غير المصري في بلادها اخلالاً بسلطتها السامية وهذا امر لا يرضاه معظم المصريّين . فاذا فهمنا ذلك فهمنا سبب الانتقاد العنيف الذي انتُقدت به حكومة لوندرة مؤخرًا في المجلس المصري فان بعض اعضائه ومنهم السيد محمد صلاح الدين وزير الخارجية تكلّموا بها واتهموها بانها هي التي ارادت دولة اسرائيل وانشأتها ولا تزال ترسل اليها السلاح بينما نراها ترفضه على مصر ليمكنها ان تُعلن بان الجيش المصري ضعيف غير قادر على حماية مصر وقناتها ومن ذلك تستنتج ضرورة بقاء القوات الانكليزية في مصر

<u>كشمير</u> : لم تجد بعد مشكلة كشمير حلاً نهائياً فان الهند لا ترضى بالاستفتاء الذي قرّرته منظمة الامم المتحدة فهي لا تجهل بان اكثرية سكان كشمير هي من المسلمين فيكون الاستفتاء ضدها . والاخبار الاخيرة تتكلم عن انتخابات مجلس تأسيسي تكون في شهر ايلول المقبل

مطبوعات شرقية

الشدياق واليازجي

مناقشة علمية ادبية

جمعها ونسّقها الاب انطونيوس شبلي اللبناني

٢٥٢ ص. متوسطة – مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية ، ١٩٥٠ – الثمن : ٣٥٠ غ. ل.

هي المناظرة اللغوية الشهيرة بين الشيخين احمد فارس الشدياق وابراهيم اليازجي المنشورة اصلاً في جريدة « الجوائب » ومجلة « الجنان » سنة ١٨٧١ ، جمعها الاب المؤلف في هذا الكتاب تسهيلاً لفائدة طلّابها من المشتغلين بالشؤون اللغوية والراغبين في الاطّلاع على تطوّر تاريخ الادب العربي في القرن التاسع عشر . وقد قدّم عليها الجاناً في حياة كلّ من المتناظرَين وفي آثارهما ، آخذاً ترجمة الشدياق عن يولس مسعد ، وترجمة اليازجي عن كرّاس نشرته جريدة « لسان الحال » . واردف المناظرة بنقود واهاجي للشدياق في المعلّم بطرس البستاني الذي نشر في « الجنان » ردود اليازجي على الشدياق . ثم بردّ مسهب على اليازجي نشره الشدياق في كرّاس على حدة . وختم المؤلف الكتاب بمنتخبات من آثار الشدياق ولا سيّما رسائله ، وبمنتخبات من آثار اليازجي كذلك . فجاء المجلّد ، على ما فيه من فرائد وشوارد لغوية ، واساليب منطقيّة قد يشوبها شيء من التحامل العاطفي ، مجموعة مفيدة ، ومحطة من محطات تاريخ الادب ، وصورة جليّة لما كان يشغل بال بعض ادبائنا في القرن الماضي .

ف. ا. ب.

اغاريد، اصداء، الابراج

تأليف أحمد قنديل

مطابع نصار، بيروت – ١٩٥١

هي ثلاثة دواوين شعرية للأستاذ احمد قنديل تتناسب تقريباً في الحجم وتتساوى من حيث جمال الورق والطبع. في «اغاريد» يرينا الشاعر كيف كان «شباباً واملا» تعصف في قلبه مطامع الحب وآماله فيطوّفنا في دنيا «النجوى والوصال فالحرمان فالذكرى»، وكلها حالات وعواطف بشرية هدرت في اعراق كل الناس. وفي «اصداء» يدخل معمعة الحياة، مسرح «الجهاد والعمل»، مع ما فيها من «نشيد نصر وخيبة وغربة» فاذا نفسه تحمل بؤس الناس وافراحهم، يأسهم واما لهم، فكأنها الصدى المرنّ لدى كل خفقة. وفي «الابراج» يخبرنا بانه قد اصبح «حياةً وملّا»، فتسير «الذكرى» متهادية امام «رقصة الموت». فكأن الشاعر وقد خمدت فيه نزوات الشباب الطموح يدلنا على الطريق الذي قرّرته له الايام: «هذا سبيلي» عنوان احدى قصائده.

واذا كان من حكم نصدره، بكل اتضاع، على هذه الدواوين الثلاثة، فهو القول بان عناوين القصائد هي اجمل من القصائد ذاتها، فان هذه ضعيفة الخيال والاحساس اجمالا. فكثيراً ما يتعب النَفَس عند الشاعر فيهبط بقارئه بعد نشوة الصعود الى وادي النثر السحيق فيخيب امل القارئ المفجوع. شعر الاستاذ قنديل إطلالٌ على جنة الشعر ووقوفٌ على الباب المرصود لا تسمح له الالهة الملهمة بالدخول ليغرف من جمالها ويخبر الناس عمّا رأى واحسّ وعاد به.

ميشال حايك

بين لبنان وفرنسا

تأليف اتناس حاج قب

المطبعة البولسية، حريصا – ١٩٤٨ – ٢٢١ ص

هي مشاهد وعبر رسمها الكاتب أثناء رحلة قام بها مع رفاق له تركوا لبنان على دمعة نحو القطر المصري ثم الى ايطاليا حيث شاهدوا رومية وآثارها، كنائسها ودياميسها . واذا بهم يتوجهون بعد ذلك الى فرنسة حيث يقفون طويلاً امام متاحف وقصور مدينة الجمال والنور ويتأملون عن كثب بكل النواحي الاجتماعية والادبية هناك وبادوار المؤسسات الاكليريكية في النهضة الروحية الحديثة في فرنسة . ويسيرون نحو لورد الشهيرة بعجائبها ثم نحو الشمال الى بريطانيا ثم الى أرس مسقط رأس الكاهن القدّيس . ويعودون ادراجهم مارّين بمرسيلية وايطالية، وما هم بعد عاصفة في البحر يرجعون الى القرية الصغيرة الهانئة في لبنان .

لا تبرح ذكرى لبنان تطلّ على خيال الكاتب امام المشاهد المتنوعة التي رآها . فكأنه ما قام برحلته الا ليطلع ابناء بلاده على جمالات الغرب وعلى التأثيرات التي انطبعت في نفسه خلال الرحلة .

كتاب كنا بحاجة اليه بين ضجيج الكتب المتساوقة التي لا يحيد اكثرها عن موضوع غراميات كاذبة سهلة وقصص لا يمتّ الا القليل منها بشيء الى ما هي عليه الحياة الحقيقية .

مكتبتنا العربية تعوزها اخبار رحلات منزّهة عن غايات سياسية وعقائدية . فما اجمل هذا المثال بين يدينا !

الكتاب متقن الطبع جميل الورق صغير الحجم . اسلوبه ناعم رائق يدل على نفسية هادئة عند الكاتب . وان فيه من المرونة والطلاوة ما يجعلنا ننتظر امثاله من ادبائنا .

ميشال حايك

F. M. PAREJA, *Con la collaborazione del Dott.* A. BAUSANI *e del Dott.* L. HERTLING. *Islamologia*. Orbis Catholicus, Rappresentanza Herder. Romae, Piazza Montecitorio, 117, 1951, in 8°. 842 pp., 48 cartes, dessins et tableaux synoptiques.

لا يسوغ لنا القول إنّا في افتقار الى مؤلفات تعنى بدراسة الاسلام لانها عديدة في كل الارجاء، ولكن ليس بينها مؤلف قيّم كالمؤلف التي نتصدى للكلام عليه سواء أكان ذلك من حيث سعة مادته ام من حيث دقته العلمية وانسجام مجموعه او من حيث رصانة احكامه ووضوحه وبعده عن الحشو وحرص المؤلف التعليمي فيه فلم نرَ اي كتاب كان يضارعه في مجموعه.

وواضع هذا الكتاب هو الاب فيلكس م. باريجا (P. Félix M. Pareja) اليسوعي الإسباني استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة الغريغورية في روما. وقد وضع الفصل الجغرافي للبلدان الاسلامية فيه الاب ل. هرتلنغ (R P.L. Hertling) استاذ التاريخ الكنسي في الجامعة نفسها. اما القسم الثالث منه الذي عني ببحث الاداب الاسلامية فبقلم الدكتور السندرو بوزاني (Dr Alessandro Bausani) مقرئ الفارسية في جامعة روما وهو الذي عهدت اليه ترجمة هذا الكتاب عن اصله في الاسبانية الى اللغة الايطالية.

ولا ريب في ان كتاب الاب باريجا هو المرجع الذي لا يستغنى عنه لتفهم روح الاسلام تفهماً راسخاً – والكتاب يشتمل على ٨٥٠ صفحة – وادراك الوجهة العلمية الغربية فيها على هذا الصعيد.

ولا ينقص هذا المؤلف شيء مما يتعلق بالجغرافية والتاريخ والانظمة والثقافة ولا سيما في الحقل الاسلامي حيث لا نقوى على الفصل بين الدين والثقافة.

وقد اردف المؤلف قائلاً وقد اصاب كل الاصابة: ان غاية الدراسة الاسلامية ليست في الحكم على قيمة الاقوال المسلّم بها دينياً وانما في بسطها فقط.

ويتناول القسم الاول من الكتاب المتعلق بالتاريخ البلاد العربية قبل الاسلام

واخريات الحوادث التي تتصل به وذلك بعد ان يصف المؤلف وصفاً دقيقاً موضوعياً الاقطار الاسلامية : فقد تصدّى الى حرب اسرائيل وقضية سورية الكبرى والهند والباكستان .

ونقع في هذا المؤلف على تاريخ الشرق الادنى المشبع بحثاً كتاريخ مصر بتقلّب حوادثه ، وذلك على قدر ما يسمح به المقام في كتاب تتداوله الايدي. اما تاريخ سورية ولبنان من عهد الانتداب فستوفي التفاصيل الضرورية .

ومما يجدر بنا ان نلفت النظر اليه هو تاريخ الهند الذي خصّه المؤلف بفصل وبحثه بحثاً لم يتعدّ الى مثله مؤرخ قبله حتى بروكلمان نفسه في كتابه القيم.

ولئن اثنينا على حضرة الاب باريخا فلأنه كان السبّاق الى وضع هذه المأثرة القيمة وان وددنا لو كان المع في فصوله المتماسكة التنسيق الماعاً اكثر تفصيلا الى ما كانت ترمي اليه الفتن في خلافة عثمان والى مقتل هذا الخليفة وان لم يهمل ذكرهما .

ولقد بحث المؤلف الاسس الدينية ، « الانظمة » ، كالقرآن والسنة والعلم الديني (اللاهوت) الاسلامي واللاهوتية بحثاً تدعمه الحجج المستمدة من العلوم الحديثة وكان واضحاً موزوناً مفعماً حيوية .

وضرب الاب باريخا مثلًا على كلفه بالامور الموضوعة « المحسوسة » ببحثه الحج بحث العالم القابض على ناحية فنه (ص. ٤١٢ — ٤١٧) ، فلم ينقص شيئاً سواء اكان من حيث نشأة الحج او معناه ام من حيث تصوير شعائره وملابسات ظروفها الحسية وكيفية ممارسة تلك الشعائر وابرز ذلك في لوحة جلية لا يحاكي جلاءها وضوح حتى يخيل اليك انك تتابع يوماً فيوماً ومكاناً فمكاناً كيفية ممارستها . اما بحثه العقائدي فسمته التنقيب الدقيق المرتبط بالظروف التاريخية من دون تعقيد .

واقد بسط علم الكلام كما اجمع عليه في مرحلته الحاسمة وفق ما جاء في كتاب الغزالي « الاقتصاد » وادرك اهمية المعتزلة التي لم يفهموها فهماً

صحيحاً في الماضي . على اننا كنا نودّ ان نراه اكثر تنصلاً لها وايضاحاً لما هو ولا سيما في منشئها التاريخي واخلاصها « للامة » .

والفصل الذي خصّه بالتصوف هو فصل ممتع حقاً باقتضابه وبموضوعيته بعيد عن سيطرة عواطف المؤلفين وعن التحيّز الى الاصطباغ بصبغة ذرائع الدفاع المسيحية .

وفي هذا الفصل نرى اصول التصوف والنواة القرانية والمؤثرات الغريبة وقد تناولها المؤلف باعتدال ورصانة كما نرى التعاليم والمذاهب التي ابرز صورها وعلاقاتها بالاسلام الرسمي والدور الذي مثله الغزالي .

وافرد المؤلف فصلاً للطريقة والاولياء والشعائر المذهبية والاعياد ومناهج الاتصال بالله الخ.. اما الفصل الذي تكلّم فيه على « محمد في الاسلام » فذو معنى عميق ، وقد نقل فيه نصاً طويلاً عن كتاب المولد الرائع لسليمان الشلبي بشأن المعجزات وقصيدة وجيزة تتعلق بالموضوع نفسه لاحد مؤلفي المغرب (ص. ص. ٥٤٣–٥٤٥) وختم هذا الجزء بفصل في الفِرَق وتعاليمها وانظمتها واتبعه بجدول ثبت لها .

والجزء الثالث من الكتاب وضعه الاستاذ بوزاني وخصّه بدراسة الاداب الاسلامية وافرد فيه ثلاثة فصول متتابعة خصها بالادب العربيّ والفارسي والتركي .

وفي هذا الجزء فصل يطلعنا على الادب الاوردي والاداب « الفرعية » الباشتو « Paštô » والبالوشي « Balūčî » والكردية والبربرية والهوزا « Hausa » والسواهيلي « Swahili » .

وما خلا المصادر القيمة التي اعتمدها المؤلف ثمت مختارات عديدة لمؤلفين كثيرين في ثناياه وتزيد في رونقه . حيث نقع على شرح مفصل مستحب «لزجل » ابن قزمان ، هذا الادب العربي الشعبي المشوب بلهجة اسبانية وقد اورد المؤلف مثلاً شيئاً منه في كتابه هذا . ولا شكّ في ان الجزء العربي له رائع وقد لمع فيه بوزاني ولكنه كان المع في الفرع الفارسي

ولقد كنا نترق ان نرى بين هذه المختارات التي تعرفنا بالكتب مقالة المرحوم جويدي الرائعة في دائرة المعارف الايطالية .

ويشتمل الجزء الرابع الذي يلي على العلوم والفنون التي درس المؤلف اولاً بيئتها التاريخية التي نشأت فيها العلوم العربية ليقف عند المناهج الفلسفية ويبحث تياراتها المختلفة والشخصيات البارزة في المحيط الاسلامي فيها ليعقبها بالعلوم الطبيعية والطب والفيزيائية الرياضية .

وانتقل في نهاية الامر الى بحث الفنون فبدأ فصله هذا باعتبارات كانت في محلها بشأن نشأة بعض مزايا الفن الاسلامي ذي الطابع الخاص «ورسخ كفن عظيم» على الرغم من الضروب العديدة التي استمدها من غيره. ومن ثم تصدى المؤلف الى ايراد لمحة عن نماذج اثار البناء. وصناعة التزيين مفضلاً في قسمه الوصفي اتباع النهج الجغرافي لا التاريخ مستقرئاً الاقطار الاسلامية الكبرى من دون ان يهمل تطور اي قطر كان منها تطوراً تاريخياً .

وعقب وصفه للابنية التاريخية في البلدان المختلفة افرد بعض الصفحات لضروب الفنون الفرعية وهي وان كانت قليلة فانها جوهرية .

وهذا الكتاب غزير المادة مفعم بالفائدة لدرجة لم يكن بوسع المؤلف الا ان يبقى وفياً لمبدإ كلفه بالامور المحسوسة . ولذلك قد ذيل الفصل المخصص للفنون بتصاميم مساجد سبعة واضحة كل الوضوح .

ولن نقوى على ان نذكر جميع محاسن كتاب الاب بارنجا ، هذا الكتاب الذي استوجب حتماً اعادة النظر فيه لانه من المستحيل ان يكون الامر على غير ذلك ولا سيما عند شعورنا بان المؤلف لم يسند كلامه الى السماع قط وهذا مما جعله يعاني المشقات في درس خير المؤلفات الغربية التي تبحث الدراسات الاسلامية لتأتي اقواله فيه اقوال العالم بالامر. فعند كل نقطة تحتاج الى الشرح لا يتورع عن الوقوف امامها ليفيها حقها: اذ رأيناه ملماً حقاً بكل شاردة وواردة في الموضوعات التي كانت مثار المناقشات في اي فرع كان من فروع الدروس الاسلامية لكي لا يهمل معالجتها متى عنّت له السانحة من دون ان يؤخذ مأخذ عليه فيها ليظل ضمن النطاق الذي فرضه عليه كتابه فرضاً .

وباستطاعتنا ان نعدّ كتابه بمثابة دائرة معارف حقيقية لا نضوب فيه لسهولة العودة اليه بفضل فهارس فصوله وتبويب ثبت اسماء اعلامه التي تربو اكيداً على اكثر من ستة الاف اسم .

ومما لا ريب فيه ان اصدار مؤلف واسع كل هذا الاتساع تدعمه الوثائق القوية والحكم الناضج والاتزان الشديد يستغرق وقتاً طويلاً .

واننا لنحرص على التذكير — ونحن نكتب في الشرق — بان المؤلف قد دلل على وسع عقل كبير : اذ اعترف بالمؤثرات الخارجية في الاسلام كتأثير المسيحية مثلاً ولكنه لم يقل كلمة واحدة لا يرتاح اليها مسلم سواء اكان سنياً ام شيعياً بل على العكس من ذلك فانه رغب دائماً في ذكر الناحية الايجابية في الاسلام لعلمه ان المسلمين هم «مسلمون» لا «محمديون» كما يسمونهم غالباً في الغرب ، وان دينهم «الاسلام» لا «المحمدية» كما اكد ذلك صراحة من الصفحة الاولى في كتابه .

والاب باريخا الذي يعرف الردود التي استطاعوا ان يأتوها حول صدق النبي قد بحث عن ايجاد نصوص خلّها . اما فيما يتعلق بقضية تعداد الزواج وهي حجرة العثرة في الغرب فقد صرح مجيباً يتهكم لاذع « اما بشأن الميل الظاهر الى النساء فليس هو الوحيد بين كبار شخصيات التاريخ» واردف بعدئذٍ هذه العبارة التي قد تبدو جريئة : « يجب ان لا ننسى ان محمداً كان واسطة السمو الروحي لشعبه فتعليمه حمل الى الكثيرين معرفة التوحيد والعقاب الاخير ولولاه لما كانوا يعرفونهما. ولذلك نعتبر ان كتاب «الدراسات الاسلامية» الذي وضعه الاب باريخا ومعاونوه العلماء جدير بان يتخذ كقاعدة للدراسات الاسلامية لا في الجامعات الاوربية فحسب بل ينبغي له ان يلاقي اقبال البلدان الاسلامية عليه : فالاختصاصيون المنقطعون الى هذه الدراسة يسعهم ان يروا في كتاب واحد محصل مجموعة نتائج العلم الغربي ، والمسلمون المتعلمون وهم ليسوا من ذوي الاختصاص سيجدون في هذا المؤلف الذي لا تحيّز فيه وجهة نظر المستشرقين . وانه لمن الخدمات الجلّى للشرق والغرب ترجمة هذا الكتاب

الى العربية . اما اخراجه فجميل ولاسيما عندما بدا اهتمام المؤلف وحرصه على ان يكون تعليمياً .

وفيما خلا الفصل التمهيدي الذي حدّد فيه مفهوم الدراسات الاسلامية واوضح مبادئ دراسة المناهج الخاصة لمختلف العلوم والتعليمات العملية بشأن دراسة الاسلام والمؤسسات العلمية وادوات العمل تد اتبع الكتاب بذيل لتعريف الكتب المختارة وضم اليه مجموعة خرائط جغرافية تناهز الاربعين عداً مع رسوم عديدة وضع معظمها بنفسه وثبت مختصر لفصوله . اما الغلاف فتزينه صورة محمد الثاني بريشة بليني « Bellini » .

ا . لاتور اليسوعي